هِرمس

المُثَلَّث العَظَمَة

أو النَّبِيّ إدرِيس

ترجمة كاملة للكتب الهرمسية
مع دراسة عن أصل هذه الكتب



تأليف
لويس مينار

ترجمة:
عبد الهادي عباس

هرمس (المثلث العظمة)
أو النبـي إدريس

- هـرمـس (المثلـث العـظـمـة)
- دار الحصاد للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - برامكة

هاتف / فاكس : 2126326

ص . ب : 4490

- الطبعـة الأولـى : 1998

لويس مينارد

هرمس (المثلث العظمة)
أو
النبي إدريس

ترجمة كاملة للكتب الهرمسية
مع دراسة عن أصل هذه الكتب

ترجمة عبد الهادي عباس

مقدمة الطبعة العربية

تتردد في تاريخ الشعوب منذ ألوف السنين أسماء رجال كبار تركوا آثاراً لهم في الفكر والحضارة تتناقلها الأجيال وتضفي عليها صفات عديدة قد يشترك في تكوينها كثير من الرجال في عصور وأمكنة مختلفة، وقد تختلف حول ماهية هذه الأسماء وحول مزاياها وقيمها وأفكارها ومن هذه الأسماء الكبيرة هرمس الذي يشار إليه باسم Hermes Trismagiste ومعناها العظيم ثلاثاً فمن هو هرمس هذا وأين عاش وماهي أفكاره وآثاره.. الخ؟

إن الكثيرين لايعلمون عن هذه الشخصية الموغلة في القدم رغم الوجود البارز لأفكاره وكتبه في تراثنا وثقافتنا، ويشاركنا في ذلك شعوب مختلفة في الشرق والغرب بحيث يُعد شخصية عالمية يعرف عندها بأسماء مختلفة منها هرمز واخنوخ وإدريس الخ.. وقد أخذ في تاريخ الشعوب صفات شتى منها شخصية الإله أو النبي أو الطبيب أو الفيلسوف والعالم ولاتزال شارة الطبابة Cadncee تعرف باسم صولجان هرمس وهي شارة عالية عبارة عن صولجان تلتف عليه حيتان في أعلاه جناحان...

لايمكن الإلمام بكل الدراسات التي قامت حول هذه الشخصية في مختلف لغات العالم... وتقول بعض هذه الدراسات عن هرمس هذا أنه هو الشخصية التي سمّاها الفرس (أنبجهد) وسماها اليهود أنوش

أو أنوخ أو خنوخ وسماها الصابئة بوذا سيف وسماها المسلمون إدريس النبي.. وهنالك أسماء أخرى عديدة. ويقال إن هرمس قد وجد في الألف الثالثة أو الرابعة قبل الميلاد. أما موطنه، فإن الفرس يدّعون أنه قد ولد في فارس وادعت بابل نسبه إليها ومصر أيضاً واليمن التي عدّته من أجدادها. ووجد المؤرخ الإسلامي ابن كثير أنه يتصل بعمود النسب مع النبي محمد، ويعدّه اليونانيون واحداً من آلهتهم وكذلك الرومان، واليهود وإن لم يعدّوه من أنبيائهم فإنهم أحاطوه بتقديس كبير. كذلك لدى المسيحية. وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على علاقة هذه الشخصية بحضارات مختلفة.

هرمس في الكتب الدينية:

أشارت الكتب المقدسة عند الشعوب إشارات موجزة لهرمس فقد جاء في سفر التكوين من التوراة (الاصحاح ٥ ـ فصل ١٨ ـ ٢٥) (وعاش يارد مائة واثنتين وستين سنة، وولد اخنوخ وعاش اخنوخ خمساًوستين سنة وولد متوشالح. وسلك اخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح ثلاثمائة سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت كل أيام اخنوخ ثلاث مائة وخمس وستين سنة وسلك اخنوخ مع الله ولم يوجد بعد لأن الله أخذه...) وأورد الانجيل شيئاً عن اخنوخ حيث جاء في رسالة القديس يهوذا (عدد ١٤ ـ ١٦) وقد تنبأ على هؤلاء أيضاً اخنوخ سابع آدم حيث قال: هو ذا يأتي الرب في ربوات قديسية، ليجري القضاء عليهم جميعاً ويحج جميع المنافقين منهم عن كل أعمال نفاقهم التي نافقوا بها وعلى جميع الفظاظات التي نطق بها عليك أولئك الخطاة المنافقون... الخ.

وذكر القرآن إدريس في سورتي «مريم» و«الأنبياء» ففي سورة مريم الآية ٥٦ ـ ٥٧ «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ورفعناه

مكاناً علياً» وفي سورة «الأنبياء» (الآية ٨٤ و ٨٥) و«اسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين».

ولو رجعنا إلى كتب التفسير الدينية لرأينا ماهو مألوف عادة في هذه الكتب من ذكر تفصيلات وأساطير عديدة... وقد جاء في «جامع البيان» في تفسير الطبري في معرض تفسير الآيتين ٥٦ و ٥٧ من سورة مريم... أن ابن عباس سأل كعباً عن تفسير ورفعناه مكاناً علياً... قال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه إني رافع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم فأحب أن تزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال إن الله أوحى إلي كذا وكذا فكلم لي ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملاً فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس فقال هو ذا على ظهري، قال ملك الموت فالعجب بعثت أقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو على الأرض فقبض روحه فذلك قول الله تعالى ورفعناه مكاناً علياً.

وجاء في تفسير النسفي للآية: إنه اخنوخ أول مرسل بعد آدم وأول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر في علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ويقال سمي إدريساً لكثرة دراسته كتب الله ـ وتورد كتب التفسير الأخرى قصصاً مماثلة...

هرمس في كتب التاريخ العربية:

ورد ذكر هرمس في العديد من كتب التاريخ عند العرب. ومن ذلك على سبيل المثال أن اليعقوبي المتُوفّى سنة ٨٠٧ ميلادية يذكر في تاريخه (المجلد١ ص١١ ط ـ بيروت ١٩٨٠) أن اخنوخ بن يرد هو ادريس النبي وأنه بعد بلوغه الستين ولد له متوشلح وأنه أخبر أولاده بأن

الله معذب الأمة عذاباً عظيماً ليس فيه رحمة وأنه أوصاهم بأن يخلصوا عبادة الله ويستعملوا الصدق واليقين وأنه مات بعد أن عاش ثلاثمائة سنة. ولم يكتف ابن قتيبة بذكر إدريس هذا وماهيته فروى عن وهب أنه كان رجلاً ضخم البطن عريض الصدر قليل شعر الجسد كثير شعر الرأس وكانت إحدى أذنيه أعظم من الأخرى... إلى آخر ماهنالك من أوصاف ذكرها وقال إنه سمي إدريساً لكثرة ماكان يدرس. ويذكر أيضاً ابن قتيبة في كتابه المعارف (ط ١٩٣٤ مصر) أنه أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبسها وعاش خمسمائة وخمساً وستين سنة وأنه هو أبو جد نوح ويذكر الطبري المُتوفّى عام ٩٢٣م في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» عن نسب إدريس وأنه اخنوخ بن يريد حفيد قين بن آدم وكان أول بني آدم أعطي النبوة عاش ثلاثمائة سنة وهو أول من كتب وقطع الثياب وخاطها وأول من سبى من ولد قابيل وإن آدم توفي بعده.

وقد روى الطبري حديثاً عن الرسول بأنه قال لأبي ذر: «أربعة من الرسل سريانيون آدم وشيت ونوح واخنوخ وهو أول من خط بالقلم وأنزل الله على اخنوخ ثلاثين صحيفة»... وهنالك قصص أخرى أوردتها كتب التاريخ العربي القديمة لايتسع المجال لذكرها وأكد بعضها أن هرمس أو إدريس هو من اليمن وقد افتخر الشاعر حسان بن ثابت بذلك حين قال:

فنحن بنو قحطان والملك والعلى ومنا نبي الله هود الأخاير
وإدريس ما إن كان في الناس مثله ولا مثل ذي القرنين ابناً لعابر

هرمس في بعض المؤلفات العربية

إضافة لما أشرنا إليه من تعرض كتب التاريخ العربي لذكر هرمس فإنه قد ذكر أيضاً في كثير من المؤلفات الدينية والصوفية وكتب التنجيم والسحر والعلوم القديمة. وكنموذج عن ذلك نشير إلى ماذكره الشهرستاني المُتوفّى سنة ٥٤٨ هـ في كتابه «الملل والنحل» حيث عَدَّ

هرمس من الأنبياء الكبار وأنه إدريس وهو الذي وضع أسماء البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجعة والاستقامة وبين تعديل الكواكب وتقويمها. وأشار إليه القفطي المُتوفّى عام ٦٤٦ هـ في كتابه «تاريخ الحكماء» بأنه خرج من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفعه الله بها وأنه أخذ في عمره يعلم شيث بن آدم وهو جد أبيه... وأنه دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل وأمر بالصلاة والصيام والزكاة والطهارة من الجنابة وحرم لحم الحمار والكلب وحرم السكر من كل شيء وأمر بالقرابين... وأشار إليه ابن كثير في «البداية والنهاية»، بأنه أول من أعطي النبوة بعد آدم ويقول: كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن رسول الله (ص) مر به وهو في السماء الرابعة. وقد ذكرت رسائل إخوان الصفا أنَّ هرمس المثلث بالحكمة وهو إدريس النبي صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة حتى شاهد جميع أحوال الفلك، ثم نزل إلى الأرض فأخبر الناس بعلم النجوم فقال الله تعالى: «ورفعناه مكاناً علياً» (رسائل إخوان الصفا جزء ١ ص١٣٨) أي أنه بحسب رأيهم أول رواد الفضاء.

وقد اهتم العرب المسلمون اهتماماً واسعاً بالهرمسية. ووجد بين المتكلمين منهم متهرمسون كثيرون وعن طريقهم وصلت الهرمسية إلى الغرب، وأثرت في بعض مفكريها ومنهم القدّيس ألبِرتُس الكبير (١١٩٣ - ١٢٨٠). وتنقسم الهرمسية بالإجمال إلى مدرستين: الهرمسية الشعبية، والقطب الذي تدور عليه هو علوم التنجيم والغيب. والهرمسية العلمية، وهي لاهوتية وفلسفية.

هرمس في الدراسات الحديثة:

جاء في دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية ـ تحت مادة إدريس ـ أن مايضفيه كتاب العرب على إدريس إنما يرجع بنوع خاص إلى مصادر يهودية متأخرة غير موثوق بها. ولأخنوخ المذكور في التوراة ثلاث صفات بارزة توجد أيضاً في القصص الإسلامية المصوغة على مثال قصص اليهود وهي: ورعه وتعميره على الأرض ٣٦٥ سنة وفي هذا مايشير إلى أنه كان بطلاً من أبطال الأسطورة الشمسية ورفعه إلى السماء. واسم اخنوخ نفسه الذي توحي حروفه معنى «الملهم» قد أثر في تكوين القصص التي حيكت حوله... الخ.

وقد رد محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين على ملاحظات كاتب المادة في دائرة المعارف وقال: أما هرمس المثلث بالنعم فإنه كان قبل الطوفان ومعنى هرمس لقب كما يقال قيصر وكسرى ـ وهو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها وأول من نظر في الطب الخ.

وبحث مرسيا إلياد في كتابه «تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية» موضوع الهرمسية فذكر في الجزء /٢/ فقرة ٢٠٩: أن هنالك تحت اسم الهرمسية ترد مجموعة المعتقدات والأفكار والتطبيقات المنتقلة في الأدب الهرمسي. والمقصود بذلك مجموعة النصوص ذات القيمة غير المتساوية المحررة بين القرن الثالث قبل وبعد المسيح. ويميز عادة بين صنفين منها: الكتابات العائدة للهرمسية الشعبية (فلك سحر علوم خفية ـ كيمياء الخ) والأدب الهرمسي العلمي، وبالدرجة الأولى، منه السبع عشرة أطروحة باللغة اليونانية للمدونة الهرمسية. ورغم اختلاف القصد والمحتوى والإنشاء، فإنه يوجد بين المجموعتين نصوص فيها وحدة في القصد. وحسب التسلسل التاريخي فإن النصوص الشعبية هي الأكثر

قدماً ويرجع بعضها إلى القرن الثالث ق.م. أما بالنسبة للهرمسية الفلسفية فقد تفتحت بصورة خاصة في القرن الثاني بعد المسيح. وقد جاء تفتحها هذا جرّاء تلاقح التيارات الفكرية والدينية التي كانت تسود المنطقة بدءاً من مصر وبلاد الشام والرافدين وفارس ثم اليونان. ويقول مرسيا الياد: إن الأدب الهرمسي بممثليه وديكوره وأساطيره يبدو مصرياً خاصة بالنسبة للنصوص القديمة.

وقد أتاحت اكتشافات الكتابات الهرمسية بمصر في الفيوم/ ١٩٣٠) وخاصة في نجع حمادي معرفة مدى انتشار وتداخل الغنوصية القديمة. وتعد الهرمسية مثالاً على المنحى التوفيقي الإنتقائي للفكر الغنوصي حيث أقامت التماثل بين آلهة مصرية وآلهة يونانية وغيرها...

هذا والمعروف الآن هو أن هرمس المثلث العظمة، هو المؤلف الوهمي للكتب التي تعرف بالكتب الهرمسية وعلى الأخص للمجموعة التي وصلتنا والتي تعرف باسم الأول منها بوامندريس ويزعم أن الإله المصري طوت المعروف بـ «طوت الأكبر»، هو مؤلف تلك الكشوف الفلسفية. وهو يظهر في بعض الكتب بصفته واحداً من المتحاورين.

وفي هذا الكتاب الذي نقوم بترجمته للعربية ترجمة كاملة عن اليونانية للمؤلفات الهرمسية، قام بها لويس مينارد Louis menard وقدم لها بدراسة مطولة عن أصل الكتب الهرمسية هذه وهو كتاب حديث صادر في عام ١٩٧٧ . ونرجو بترجمتنا لهذا الكتاب إلى اللغة العربية أن نكون قدمنا للقارئ العربي فائدة في الإطلاع على نصوص لو صحّت نسبتها إلى هرمس وصح أن هرمس هو النبي إدريس، لكانت تُعد من النصوص المقدسة، وفي كل الأحوال يلاحظ من هذه النصوص رغم مايبدو فيها من أساطير مدى قربها من النصوص الدينية في ديانات أخرى. الأمر الذي يدل على أن جميع الأديان تنهل من منبع واحد هو

عقل الإنسان هذا العقل الذي كان عامل بناء كما كان عامل تدمير في حضارات الشعوب وأنظمتها وثقافاتها.

المترجم

دراســـــــة
حول
أصل الكتب الهرمسية

تمتعت كتب **هرمس المثلث العظمة** بسلطة كبرى خلال القرون الأولى من تاريخ الكنيسة. وغالباً ما استشهد بها فقهاء الكنيسة مع كتب سيبيل التي كانت قد أنبأت الوثنيين بقدوم المسيح في حين أن أنبياء العبرانيين كانوا ينبئون بهذا وقد قال لاكتانس: «لا أعرف كيف اكتشف هرمس كل الحقيقة تقريباً». وقد نظر إليه كواحد من المتنبئين الملهمين، واشتهرت كتاباته كآثار موثوقة للتيولوجيا (المعتقدات) المصرية القديمة. وقد قبل هذا الرأي كل من **مارسيل فيسين وباتريزي** وغيرهما من جهابذة النهضة، الذين ترجموا أو شرحوا الكتب الهرمسية. لقد اعتقدوا أنهم وجدوا فيها المصدر الأول للمُسارّات الأورفية(*)، ولفلسفة **فيثاغورث وأفلاطون**. مع ذلك لم يطل الأمر حتى أثيرت الشكوك حول موثوقية هذه الكتب والكتب التي تحمل اسم سيبيل وقد انتهى نشاط النقد ليبرهن على الصفة المحرفة لهذه ولتلك. وقد حدد أحد العلماء من الشراح تاريخ سلاسل الموحيات السيبيلينية بأنه عمل يهودي في جزء منه، ومسيحي في الجزء الآخر، وأنّ لاكتانس وفقهاء آخرين من الكنيسة، المخدوعين بتدليس أسلافهم، غالباً ما احتجوا بها على الوثنيين لاقناعهم بحقيقة المسيحية.

لم يُعْتَمد بنفس اليقين أصل وتاريخ الكتب التي تحمل اسم **هرمس المثلث العظمة. فكازابون** أسندها إلى أحد اليهود أو أحد المسيحيين. ويعتقد مؤلف البانتيون المصري، **جابلونسكي**، أنه قد تعرف فيها على عمل غنوصي(*). ويجري اليوم تصنيف هذه الكتب بين المنتجات الأخيرة للفلسفة الاغريقية، لكنه من المقبول أن وسط الأفكار الاسكندرانية التي تشكل الأساس توجد ملامح مذاهب دينية من مصر القديمة، وعلى هذا الرأي توقف كل من كروزر وشارحه العالم م. غوينيو.

وفي عمل حديث حيث عرضت المسألة بكثير من الوضوح، يعبر السيد م. **ايجر** عن أمنيته بأن ينشر فقيه لغوي طبعة جيدة لكل النصوص الهرمسية وأن يرفقها بشرح لها. وقد تحققت هذه الأمنية في شطر منها حيث نشر السيد **م. بارتي** في برلين طبعة رائعة لأربع عشرة قطعة نمتلك نصها الإغريقي كاملاً. وقد جمعها، كما يجري عادة، تحت اسم بوامندريس[1]. لكن هذا العنوان، حسب ملاحظة باتريزي لايناسب إلا واحدة منها، تلك التي تضمها المخطوطة الأولى. إضافة إلى ذلك يوجد حوار طويل بعنوان **اسكليبيوس**، لانملك عنه سوى ترجمة

(*) غنوصي من غنوصية أي المعرفة وتعود إلى كلمة غنوصيس اليونانية. والغنوصية حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر المتأغرق وهي تؤمن بأنه ليس بالايمان وأعمال الخير يكون الخلاص وانما بالمعرفة. وتقول الغنوصية بالثنائية أي التمييز بين الخير والشر وتعدهما عنصري الوجود الاساسيين. كما وأدمجت الغنوصية شيأً من السحر والشعوذة في تعاليمها. كما أنها انكرت الاسس اليهودية للمسيحية وبخاصة العهد القديم. وفي القرن الثاني نادت بأنه عن طريق الحكمة يتم الخلاص. كما أن الغنوصية قسّمت الناس إلى ٣ طبقات: الغنوصيون وخلاصهم مؤكد والمسيحيون غير الغنوصيين ويمكنهم بالمعرفة الوصول إلى الخلاص وماعدا ذلك فهالكون ويُقال أن الغنوصية تلاقت في النهاية مع المانويه. (الناشر)

(١) هرمسية بوامندريس مثلث العظمة، برلين ١٨٥٤ ينبغي الاحتفاظ بشكل بوامندري اليوناني. كما يلاحظ م. إيجر .

لاتينية تُسندُ خطأ إلى **أبّوليه**، وأخيراً فقد احتفظ كل من **ستوبيه سيريل ولاكتانس وسويداس** بالعديد من القطع؛ وأن الثلاث الرئيسية استخلصت من حوار بعنوان «الكتاب المقدس». ويخبر بارتلمي بنشره هذه القطع المختلفة، لكن هذا الجزء من عمله لم يظهر، لسوء الحظ. ويمكن الاستعاضة عن بعض القطع بنص ستوبيه، وأما بالنسبة للقطع الأخرى وبصورة خاصة تعريفات اسكليبيوس التي تستخدم كملحقة بكتب هرمس، فقد رجعنا فيها إلى الطبعة غير المصححة لباتريزي وهي الوحيدة الكاملة حتى الآن. وكانت قد جرت ترجمة البوامندريس والاسكليبيوس إلى الفرنسية القديمة؛ ولاتوجد أية ترجمة للكتاب المقدس ولا لتعريفات اسكليبيوس ولا للقطع الأخرى.

إن ماننشره هنا يتضمن في آن واحد القطع والأجزاء الكاملة، وقد صنفناها في الترتيب المعتمد بصورة عامة مع أنه كيفي تماماً. في الكتاب الأول جمعنا البوامندريس والمحاورات الثلاث عشرة التي ترتبط به، وأما الكتاب الثاني فيحتوي الاسكليبيوس خطاب التلقين الذي حافظ لاكتانس على عنوانه الحقيقي. ومن بين القطع التي توجب بسبب اتساعها وأهميتها، أن تنال عناية مستقلة، تلك القطع التي أُخذت من الكتاب المقدس؛ انها تؤلف الكتاب الثالث. وأخيراً الكتاب الرابع ويتضمن تعريفات اسكليبيوس والقطع الأخرى. وأغلب هذه القطع قليلة الأهمية بذاتها لكن يجب تقديم ترجمة كاملة لها. ومن جهة أخرى فإن القطع الأكثر تفاهة لكتاب مزور تقدم أحياناً علامات قيمة تسمح بتحديد التاريخ والأصل.

لقد اعتدنا بصورة شبه دائمة عندما نقرأ ترجمة ما، أن نحّمل المترجم غوامض غالباً ما ترجع إلى أسلوب المؤلف أو الموضوعات التي يعالجها. إن صعوبة ترجمة الكتب الهرمسية تعود لأسباب عديدة: عدم الدقة في جزء كبير من النصوص، الحذاقة المفرطة للفكرة وعدم كفاية لغتنا الفلسفية. فالكلمات التي غالباً ما تُرَجَّع في المؤلفات الفلسفية

وبخاصة الأفلاطونية وغيرها لايوجد مقابل مماثل لها في الفرنسية. ولبعض هذه الكلمات معنيان أوأكثر في اليونانية ويتسلى الاسكندرانيون باللعب على هذه المجازات. وإذا أضفينا الصفة الحيادية لهذه المفاعيل، والتي لايمكن أن نوردها إلا بمقدمات جمل، ومجموعة كلمات يدق معناها جداً في اليونانية، أعطاها الاستعمال في الفرنسية معنى غامضاً جداً وعاماً جداً. وهكذا فإن كلمتيْ العالم والطبيعة يعنيان بالنسبة لنا نفس الشيء في حين أنهما يمثلان أفكاراً مختلفة جداً في اليونانية.

وبدون انقطاع نُقابل النفس بالمادة. والروح غالباً ماتكون مرادفة لكلمة الحياة. وتنقصنا كل رهافة التحليل النفسي للاغريق، حيث لاتوجد كلمات في الفرنسية ترادف بعض الكلمات اليونانية.

وليست الصعوبة فيما يخص الكلمات هي المشكلة الأهم. فمع أن لغة هرمس لاتقدم هذه التركيبات العلمية التي تجعل من الصعب الترجمة الحرفية لِـ توسيديد بـ باندار، أو الجوقات التراجيدية، فأسلوبها غامض بصورة دائمة تقريباً. ولايمكن للمترجم أن يجعلها أكثر وضوحاً، لأن هذا الغموض هو في الفكرة أكثر مما هو في العبارة. فالاسكليبيوس الذي لم يوجد إلا في اللاتينية، يقدم نفس الصعوبات كما هو الشأن في النصوص الإغريقية. وتسمح بعض المقاطع المذكورة بلغة اغريقية من قبل لاكتانس، بالاعتقاد أن هذه الترجمة القديمة التي تبدو سابقة للقديس أوغسطين، ينبغي أن تكون دقيقة لجهة معناها العام، لكن رغم المخطوطات، يستحيل إسنادها لأبوليه. وقد سبق أن لاحظنا منذ زمن طويل أن أسلوب أبوليه لايوجد فيه شيء مشترك مع هذا الشكل الثقيل وغير المضبوط. ونأمل إضافة إلى ذلك، بأن نتمكن من إظهار أنه ليست الترجمة اللاتينية وحدها فحسب، بل حتى نص اسكليبيوس لايرجع إلا لزمن قسطنطين.

في هذه المقدمة، سوف نحاول تحديد عصر الكتب الهرمسية

وأصولها بمقارنتها حسب البرامج المخططة من قبل أكاديمية التسجيلات للرسائل الجميلة، مع الوثائق التي تركها لنا المؤلفون الإغريق حول الديانة المصرية، ومع الوقائع التي يمكن اعتبارها مكتسبة في علم الهيروغليفيات. ويقدم نشر الدراسات المصرية فائدة خاصة لهذه المقارنة. فالأعراق كالأفراد تحافظ عبر الزمن على صفة خاصة وعلى أصولية، وغالباً ما أعاد فلاسفة الإغريق في أنظمتهم نسخ مظهر الشعراء الميثولوجيين ربما بدون تبصر. كذلك يوجد بين الفترة الدينية لمصر وفترتها الفلسفية بعض هذه العلاقات العامة التي تعطي هيئة عائلة إلى كل تعبيرات فكر شعب ما. ولايقبل أحد اليوم، تجمد مصر المزعوم، فهي لم تستطع البقاء ساكنة بين زمن الأهرامات والعصر المسيحي. فكل ماهو حي يتحول والمجتمعات التيوقراطية كغيرها، ولو ببطء أكثر، لأن حياتها هي أقل نشاطاً. ولصنع تاريخ للديانة المصرية كما صنعنا تاريخ الديانة الاغريقية، ينبغي اتباع التحولات في ذلك، فأكثرها قدماً لايمكن أن يعرف إلا بتاريخ زمني دقيق للآثار الهيروغليفية، وتأكدت لنا الأخيرة بالطريقة المختلفة التي تكلم عنها المؤلفون الإغريق في فترات مختلفة. وأخيراً، ومن تلاقي المذاهب الدينية المصرية والمذاهب الفلسفية الإغريقية خرجت الفلسفة المصرية، التي لم تترك أية آثار سوى كتب هرمس، التي نتعرف فيها، تحت شكل مجرد على الأفكار والاتجاهات التي حصلت سابقاً تحت شكل ميثولوجي (أسطوري).

وهنالك مقارنة أخرى لاتزال تهمنا بصورة مباشرة أكثر، هي المقارنة التي يمكن اعتمادها بين بعض الكتابات الهرمسية والآثار اليهودية والمسيحية، وبخاصة سفر التكوين ومؤلفات فيلون والراعي هرماس والإنجيل الرابع، وللوهلة الأولى، يمثل مجيء المسيحية، مظهر ثورة جذرية في عادات ومعتقدات العالم الغربي، بيد أنه ليس للتاريخ تغيرات مفاجئة ولا تحولات غير متوقعة. ومن أجل فهم العبور من دين إلى آخر، لاينبغي مقارنة حديهما الأقصيين: الميثولوجيا الهومرية والرمزية

النيسية (le symbole de nicee)؛ ينبغي دراسة الآثار المتوسطة والنتاجات المتعددة لفترة الانتقال حيث كانت الهيللنية البدائية، التي ناقشتها الفلسفة، تتبدل كل يوم أكثر بخلطها مع أديان الشرق التي كانت تطغى بشكل مبهم على أوروبا. وتمثل المسيحية آخر حد من هذا الغزو الفكري الشرقي للغرب. ولم يكن وقوعها على الغرب كضربة قاصفة وسط عالم قديم مدهوش ومذعور. بل كان لها عهدها من الحضانة، وفي الأثناء التي كانت تبحث فيه عن الشكل النهائي لمذاهبها، نجد أن المسائل التي كانت تتابع حلها كانت أيضاً تشغل الأذهان عند الإغريق، وفي آسيا ومصر. وكان يوجد في الفضاء أفكار هائمة اختلطت في كل نوع من العلاقات.

لايمكن لتعددية المذاهب التي حصلت في أيامنا تحت اسم الاجتماعية أن تقدم سوى فكرة ضعيفة عن هذه الكيمياء العقلانية المدهشة التي أقامت مخبرها الرئيس في الإسكندرية. لقد رتبت البشرية دعمها للمسائل الكبيرة من فلسفية وأخلاقية: أصل الشر، مصير الأرواح، سقوطها، والغفران لها؛ وكان البديل المعروض حكم الضمائر. وقد رجحت الحلول المسيحية وأضفت النسيان على غيرها، التي انغمرت أكثريتها في لجة الماضي. وعندما نعثر على فضلة ما، فإننا نعاود التعرف فيها على عمل مزاحم مغلوب وليس على عمل منتحل. لقد أُعِدَّ انتصار المسيحية من قبل أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم هم أنفسهم خصومها والذين لم يكونوا سوى رواد لها؛ فهذا العنوان يناسبهم، مع أن كثيرين منهم كانوا معاصرين للعهد المسيحي وبعضهم متأخر قليلاً. إذ أن مجيء ديانة ما لايحدد إلا في اليوم الذي تقبل فيه من الشعوب، كتوثيق لتاريخ انتصارها المزعوم. فالبشرية هي التي تعطي للأفكار حقها بأن تذكر في العالم، وينبغي على العلم أن يعيد لأولئك الذين عملوا لثورة ما، ولو بإرادة محاربتها، مكانتهم في تاريخ الفكر البشري.

سوف نبحث في تمييز مايعود إما للمصريين وإما لليهود في كتب هرمس المثلث العظمة وعندما نصادف في هذه الكتب أفكاراً أفلاطونية أو فيثاغورية، يمكن أن نتساءل عما إذا كان المؤلف قد وجدها في مصادر قديمة حيث كان فيثاغورث وأفلاطون قد امتاحاها قبله أو إذا كان يمكن التعرف فيها على عنصر يوناني بحت. فهناك المجال إذن لكي نناقش بدئياً التأثير الواقعي والمفترض للشرق على الفلسفة الهيللينية. وبصورة عامة هنالك ميل، على ذمة الإغريق أنفسهم، للمبالغة في هذا التأثير وعلى الأخص لمد تاريخه إلى الوراء... إنه فقط بعد إنشاء الاسكندرية أقيمت علاقات دائمة ويومية بين الفكر الإغريقي وفكر الشعوب الأخرى، وفي هذا التبادل للأفكار كان لدى الإغريق مايعطونه أكثر مما يتلقونه. فالشعوب الشرقية، تلك التي على الأقل لم تجد نفسها في احتكاك مع الإغريق، لايبدو أنه كان لديها أبداً فلسفة بمعنى الكلمة، فتحليل قدرات الروح، والبحث عن أسس المعرفة، وعن القوانين الأخلاقية وتطبيقها في حياة المجتمعات، هي أشياء مجهولة قطعاً في الشرق قبل فتح الإسكندر. والكلمة التي يسندها أفلاطون إلى الكهنة المصريين حول مواطنيه: «أيها الإغريق لستم سوى أطفال، لايوجد بينكم شيوخ» يمكن ردها للشرق ولمصر ذاتها. فالذهنية العلمية هي أيضاً غريبة، عن هذه الشعوب كما هو غريب عنها الحس السياسي. ويمكن أن تدوم قروناً طويلة، ولاتبلغ أبداً سن الرجولة، إنهم أطفال شيوخ، يقادون دائماً من أطراف ثيابهم وهم أيضاً، غير مؤهلين للبحث عن الحقيقة سوى في استمالة العدالة.

فالشرق، المتلقن بالفلسفة من قبل الإغريق، لم يستطع أن يعطيهم إلا مما عنده، تمجيد الشعور الديني. وقد قبل الإغريق المبادلة، لتعبهم من الشكِّية التي أنتجها صراع مدارسهم. ألقوا بأنفسهم بردة فعل، في انطلاقات صوفية رائدة لتجديد المعتقدات. وكانت كتب هرمس المثلث العظمة خطوة وصل بين مذاهب الماضي ومذاهب المستقبل. وبهذا

ارتبطوا بمسائل حية وآنية. وإذا كانوا لايزالون ينتمون إلى الوثنية، فذلك لوثنية الساعة الأخيرة الملأى دائماً بالازدراء نحو الدين الجديد ورفض الخنوع أمامه، لأنها تحافظ على مستودع الحضارة القديمة التي ستنطفئ معها، لكن المتعبة من صراع لا أمل فيه، قانعة بمصيرها وعائدة لتنام إلى الأبد في مهدها الأول، مصر القديمة، أرض الأموات.

ـ ١ ـ

إلى جانب سكان الاسكندرية المصريين عاشت فئة من اليونانيين الذين قدموا إليها على امتداد فترة سيطرة جيوش الاسكندر وخلفائه من البطالسة. إضافة إلى بعض اليهود من المهاجرين. وقد احتكت هذه الفئات فيما بيها زمناً. وإذا لم يخلط الاحتكاك الدائم هذه الفئات المختلفة، فإنه كان يسهل انصهار الأفكار. وتفسر الصفات المميزة لهذه **الفئات** الثلاثة كيف تَرَتَّب حصول هذا الانصهار للأفكار وبأية نسبة ساهم كل منها فيه. كان الإغريقيون مهيمنين، إن لم يكن بعددهم، فعلى الأقل بذكائهم، وهكذا فرضوا لغتهم، إنما مع احترامهم للأعراف والتقاليد الأصلية. والإغريق الذين صنفوا بسهولة المفاهيم الدينية لشعوب أخرى في أوسع إطار لتعددية آلهتهم، قبلوا آلهة المصريين واقتصروا على ترجمة أسمائها في لغتهم. وقد قبلوا حتى بملء اختيارهم، أن يأتي إليهم التلقين الديني من قبل المستعمرات المصرية. هذا التنازل قليلاً ما كلفهم لأنهم لم يطمحوا أبداً لأقدمية عالية، وكان يتملّق بصورة متفردة عجرفة المصريين ويمنعهم من النظر إلى الإغريق كأجانب، فقد كانوا كجاليات عادت إلى الوطن الأم. كذلك فإن مصر التي لم تتحمل مختارة سيطرة الفرس، تقبلت منذ البداية وبدون مقاومة سيطرة البطالمة Des ptolemes.

وعلى العكس، فإن اليهود وقد سبق للفرس أن حرروهم من النير البابلي، خضعوا بسهولة إلى سيادتهم البعيدة، لكنهم رفضوا برعب سلطة السلوقيين المباشرة. وكانت الديانة اليهودية أقل بعداً عن الثنائية الإيرانية عما هي عن تعددية الآلهة الهيللينية. فقد كان بمكنة الأغارقة تصنيف يهوه Jehovah مثل كل الآلهة الأخرى في مجمع آلهتهم، لكنه هو لم يشأ أن يُصنَّف. إنه لم يشأ الاكتفاء بالمكان الأول، وأراد أن يكون الأوحد. ولم يستطع السلوقيون الذين امتدت سيطرتهم على شعوب ذات ديانات مختلفة قبول هذا الادعاء، ورفض اليهود من جانبهم نفوذ العبقرية الإغريقية باسم الشعور الديني. بيد أن الظروف في الاسكندرية لم تكن نفسها التي هي في فلسطين.

كان المصريون في بيتهم، ولم يجد الإغريق أنفسهم أنهم غرباء في أي مكان. وعلى العكس، حافظ اليهود على البقاء أجانب في كل مكان، واكتفوا بالضيافة. وأصبح التفاهم منذئذ أكثر سهولة، فترجموا كتبهم إلى لغة الذين استضافوهم والذين درسوا فلسفتهم.

وقد بهرهم أفلاطون بصورة خاصة، بنظرياته التوحيدية، وكان يقال في الحديث عن الأكثر شهرة من بينهم: «إما فيلون الأفلاطوني أو أفلاطون الفيلوني». ففيلون وهو يتصور بلا شك، أن اليونان كانت دائماً ما كانته في زمنه، يدّعي أن معلمين إغريق جاؤوا إلى بلاط فرعون كي يعلموا موسى. مع ذلك، فان عصبية اليهود على الأغلب تغلبت على الاعتراف، وأنهم بدلاً من الإقرار بما يتوجب عليهم للفلسفة الإغريقية، قالوا بأنها استعارت مبادئها من التوراة. وحتى العصر المسيحي، لم يبد أن الإغريق قد أخذوا هذا الزعم في الحسبان. صحيح أن عبارة: «أفلاطون ليس سوى موسى اثيني» قد ذكرت عن رجل دين اسكندراني يدعى نومينيوس وهو من أفاميا Noumenios d,Apamee.

لكن ماذا يستخلص من جملة معزولة مستخلصة من مؤلف مفقود؟ كل مايمكن أن تثبته، هو أن نومينيوس لم يعرف موسى إلا باستعارات فيلون، لأنه لايوجد سوى نقد محكم قليلاً يمكن أن يجد نظرية للأفكار في الفصل الأول من التكوين.

إن استعارات الإغريق من التوراة قلما تكون أكثر احتمالاً من معلمي موسى الإغريق. ولو أن أفلاطون قد أخذ شيئاً من اليهود، فإنه ماكان ليهمل إدخاله في إحدى حواراته كما أدخل فيها بارمينيد وتيمه timee . وبعيداً عن انكار ديونهم فالاغريق مدفوعين للمبالغة في الأهمية. من جانب آخر، ولأجل إستعارة شيء من اليهود، كان عليهم أن يعرفوهم، وقبل الاسكندر لم يكن الاغريق يعرفون حتى الاسم. وفيما بعد، وفي ظل الهيمنة الرومانية، عندما كان اليهود قد انتشروا في كل الغرب، روى جوستان تاريخهم حسب **تروُج بومبيه** وربط أصلهم بدامسكوس؛ وأن الورثة الذين أعطاهم لهذا الدمسكوس هم: **ازيلوس، آدوريس، ابراهيم، وإسرائيل.** ومايقوله عن يوسف موافق تقريباً لما جاء في القصة التوراتية، لكنه يجعل من موسى ابناً ليوسف ورئيساً لمستعمرة من المجذومين المطرودين من مصر. ويضيف أن **أرواس بن موسى** قد خلفه، وأنه كان لليهود ملوك عليهم هم كهنتهم وإن البلاد قد خضعت لأول مرة إلى كسرى. ويمكن أن يكون تروج بومبيه قد استعان ببعض التقليد المصري أو الفينيقي، لكنه بالتأكيد لم يقرأ التوراة، ومع ذلك يبدو أن هذا قد كان سهلاً في زمنه.

لم تكن تعرف الديانة اليهودية بصورة أفضل من تاريخهم. ومن المعلوم أنه كان لهم رب قومي؛ ولكن من كان؟ ويشك بلوتارك في أن هذا الرب يمكن أن يكون ديونيزوس، الذي هو في الأساس أدونيس نفسه. وهو يستند في ذلك على تشابه الاحتفالات اليهودية مع

الباكخوسيه(*) وعلى بعض الكلمات العبرية التي اعتقد أنه وجد تفسيراً لها في العبادة الديونوزوسية. وفيما يخص رعب اليهود، بالنسبة للخنزير، فهو يأتي، حسب رأيه، من أن أدونيس كان قد قتله خنزير بري. وكان من السهل أكثر سؤال أحد اليهود، لكن بلوتارك كان لديه قليل من الحرج، وعوضاً عن أن يستعلم قبل أن يستنتج، كان يريد أن يتكهن تماماً.

لاريب في أن المصريين كانوا معروفين أفضل من اليهود، مع ذلك فإن كل الاغريق الذين تحدثوا عن الديانة المصرية أعطوها ملامح إغريقية، تتغير حسب الزمان الذي عاش فيه كل واحد منهم وحسب المدرسة التي ينتمي إليها. وأقدم المؤلفين الاغريق الذين كتبوا حول مصر هو **هيرودوت** فقد وجد فيها تعدداً للآلهة مماثل لما هو عليه الحال لدى الاغريق، مع تراتبية من ثماني آلهة أساسية واثني عشر ثانوية ويفترض تركيباً مشابهاً لنسب الآلهة عند هزيود. ومن جانب آخر، فإن لكل مدينة كما يقول، ديانتها المحلية، فعبادة **أوزيرس وإيزيس** هي وحدها مشتركة في كل مصر وتشبه كثيراً أسرار ايلوزيس. مع ذلك فإن هيرودوت قد صدمته سمة خاصة بالديانة المصرية: عبادة الحيونات، لكنه لايبحث عن سبب هذه الرمزية، المختلفة عما هي عليه عند الإغريق. ويلاحظ أيضاً أن المصريين خلافاً للإغريق لايقدمون أية عبادة للأبطال. أما **ديودور** الصقلي فعلى العكس، يرى أن آلهة المصريين ما هي سوى ملوك قديمة جرى تأليهها. صحيح أنه يوجد أيضاً آلهة خالدة: الشمس، القمر، الطبيعة، لكن ديودور لايهتم بها. فالنظام التاريخي المزيف للمؤمن ببشرية الآلهة كان يسود في اليونان في زمنه، وقد طبق في مصر. ويأتي بعدئذ بلوتارك، الذي تسند إليه رسالة عن ايزيس

(*) الباكخوسية: مهرجانات كان يقيمها الرومان تشبيهاً بمهرجان ديونيسوس عند الاغريق. وتتفشى فيه الخلاعة والعربدة والمجون (الناشر)

وأوزيريس، وهي الوثيقة الأكثر إثارة التي تركها لنا الاغريق حول الديانة المصرية؛ مع ذلك فإنه قد ألبس أيضاً هذه الديانة للإغريق؛ وبدءاً من ديودور تغيرت الطريقة فلم تعد بشرية الآلهة هي المعززة، إنها العلم المتعلق بالأبالسة. فبلوتارك، وهو أفلاطوني، يرى في الآلهة المصرية ليس رجالاً مؤلهين، وإنما أبالسة؛ ثم عندما يريد شرح أسماء الآلهة، إلى جانب بعض الاشتقاقات اللغوية المصرية، فإنه يعطي في ذلك مسحوبات أخرى من الإغريقية التي يبدو أنها مفضلة لديه. ولكنه في رسالته الموجهة إلى كاهنة مصرية، بدلاً من أن يستفسر منها، يعرض تخميناته الخاصة.

أما **بورفير** فإنه يكتفي بالتساؤل، ويثير شكوكاً حول مختلف المسائل الفلسفية التي تهمه، ويسأل الكاهن **آنيبو** عما يفكر به المصريون. ومايقلقه بصورة خاصة، هو أن المصريين، حسب الرواقي **شيريمون** لم يكونوا قد عرفوا سوى الآلهة المرئية، أي الكواكب والطبيعة. إذن ألم يكن لديهم أية فكرة، عن الميتافيزيقا، وعن الإبليسيات والشعوذة وكل الأشياء التي لم يدرك بورفير خارجها ديانة ممكنة؟ لقد قال: «أريد أن أعرف مايفكر به المصريون عن السبب الأول: إذا كان هو العقل أو فوق العقل، وعما إذا كان واحداً أو مشاركاً مع واحد غيره أو مع عدد غيره، وما إذا كان مجسداً أو غير مجسد، وما إذا كان مماثلاً للخالق أو فوق الخالق، وما إذا كان كل شيء يتفرع من واحد أو من عدة، وما إذا كان المصريون يعرفون الهيولى، وما هي الأجسام الأولى، وما إذا كانت الهيولى عندهم مخلوقة أو غير مخلوقة، ولأن **شيريمون** وغيره لم يقبلوا شيئاً فوق العوالم المرئية، وفي عرضهم للمبادئ لم يسندوا إلى المصريين آلهة أخرى غير تلك التي تسمى متنقلة (الكواكب)، تلك التي تملأ الفلك أو ترتفع معها وتفرعات الدرجات العشر من البروج وخرائط بروج السماء وأولئك الذين يسمون الرؤساء الأقوياء وتوجد أسماؤهم في التقويمات الفلكية مع مظاهرهم، وشروقهم

وغيابهم وعلامات الأشياء المستقبلة. وفي الواقع، يرى شيريمون أن المصريين يسمون الشمس الخالقة التي تدور دائماً حول ايزيس وأوزيريس وكل الخرافات الكهنوتية، وصور ظهورات الكواكب واختفاءاتها، فتناقص القمر واكتماله، ومسيرة الشمس في نصف الكرة النهارية والليلية، وأخيراً نهر /النيل/. وبكلمة واحدة، لم يتحدثوا إلا عن أشياء طبيعية ولم يوضحوا شيئاً عن الجواهر غير المجسدة والحية. وتُخْضِعُ الأغلبية حرية الاختيار لحركة النجوم ولما لا أعلمه من العلاقات السرمدية اللازمة التي أسموها المصير ويربطون كل شيء بهذه الآلهة، التي هي بالنسبة لهم المتحكمة الوحيدة بالمصير، والتي تمجد بمعابد وأنصاب وأشكال أخرى من العبادة».

ويرد **جامبليك** على رسالة بورفير هذه باسم كاهن مصري **أبامون**؛ إنها على الأقل ملاحظة موضوعة في رأس هذا الجواب تعزوها لجامبليك، تبعاً لشهادة **بروكلوز**. فلكي يثبت أن الديانة المصرية هي ديانة رائعة، أجرى عرضاً لأفكاره الخاصة وأسندها للمصريين. وهذه الرسالة المعنونة بأسرار المصريين ملأى بشروح غزيرة حول تسلسلية ووظائف الأرواح والشياطين، والآلهة؛ وحول التأليه والمصير والعمليات السحرية، وحول العلاقات التي يمكن الاعتراف بها بمختلف الطبقات من الشياطين في التجليات، وحول استعمال كلمات بربرية في الإيحاءات. وبعد كل هذه الشعوذة التي تدعو أحياناً للشك فيما إذا كان المؤلف مشعوذاً أو مجنوناً تكرس بالكاد بضعة سطور للديانة المصرية، وهذه السطور ملأى بعدم اليقين والغموض. إنه يتكلم عن المسلات أو عن النصب التذكارية حيث يدعي أن فيثاغورث وأفلاطون استخلصا فلسفتهما منها، لكنه يتحفظ تماماً على ترجمة تسجيل واحد، وهو يؤكد أن كتب هرمس، ولو أنه كتبها أشخاص ملقنون بالفلسفة الاغريقية، تحتوي على آراء هرمسية؛ لكن ماهي؟ لقد كان من السهل ذكرها.

من هذه المقارنة للوثائق الاغريقية حول الديانة المصرية هل ينبغي الاستنتاج ان مصر كانت دائماً بالنسبة للاغريق كتاباً مغلقاً، وأنه بسؤال أرض أبي الهول لم يحصلوا إلا على الألغاز جواباً، أو على صدى مسائلهم الخاصة؟ إن مثل هذه النتيجة ستكون غير عادلة بالنسبة للاغريق، فالمعلومات التي يقدمونها لنا كانت كاملة، لكنها بدراسة الهيروغليفيات ليست غير مناقضة. وفي هذه المعلومات ينبغي اتخاذ جانب الأعمال وجانب الشروحات. فالوقائع التي نقلها الاغريق إلينا هي بصورة عامة صحيحة ولاتتناقض أبداً: فقط الإيضاحات التي أعطوها عنها هي مختلفة. فالفوارق ذاتها تراعى عندما يتكلمون عن ديانتهم الخاصة. وهم يتمسكون بقانون عام للذهن البشري، قانون التحول في الزمان، الذي يطبق على المجتمعات كما يطبق على الأحياء.

إن لغة الرموز هي لغة طبيعية للمجتمعات المتولدة، وبمقدار ما تشيخ الشعوب، فإنها تتوقف عن أن تكون مفهومة. ففي اليونان، حتى قبل سقراط هاجم الفلاسفة ديانة الشعراء، لأنهم لم يدركوا المعنى فيها وفهموا بصورة أفضل قوانين الطبيعة والذهن تحت أشكال مجردة عما هو تحت أشكال شعرية. مع ذلك بقي الشعب متعلقاً برموزه الدينية؛ وعندئذ أراد الفلاسفة، بشرحهم لها، توفيقها مع أفكارهم، وقد حصلت هنالك ثلاثة أنظمة للتفسير: فالرواقيون يشرحون الميثولوجيا بوساطة الفيزياء؛ واعتقد غيرهم أنهم يرون فيها وقائع تاريخية مغلفة بخيال الشعراء وتلك هي النظرية التي تحمل اسم (المؤمن ببشرية الآلهة)؛ ويبحث فيها الأفلاطونيون عن استعارات صوفية. ومع أن تأويل الرواقيين كان الأكثر توافقاً مع عبقرية الديانة القديمة، فإن للأنظمة الثلاثة للتفسير أنصارها، لأن كل واحد منها كان يرد إلى حاجة من الشعور العام، وهكذا كان شأن الفسفة بعد أن زعزعت الدين، وحولته وامتزجت به[٢].

(٢) لويس مينار، تعدّد الآلهة الهلّيني (الأغريقي)، الكتاب الرابع، الفصل الثاني، الديانة اليونانية والفلسفة.

لم تتمكن الأمور من المرور بنفس الطريقة تماماً إلى مصر، حيث أنه بدلاً عن فلسفة تناقش الديانة، كانت توجد ثيوقراطية حافظت على مستودع التقاليد القديمة. لكن ما من شيء يمنع شيخوخة الأعراق. فإذا كان الكهنوت قد استطاع الحفاظ حرفياً على رسالة المذاهب والأشكال الخارجية للعبادة، فإن ما لم يُسْتَطَعْ الحفاظ عليه ذلك الفهم لرموز كانت الامتياز للعصور الإبداعية. فعندما بدأ الأغريق في دراسة الديانة المصرية، كانت رمزية هذه الديانة عندئذ حرفاً ميتاً بالنسبة للكهنة ذاتهم. فهيرودوت، الذي كان أول من سألهم لم يستطع أن يحصل منهم على أي توضيح، وبما أنه لم يكن لاهوتياً، فقد توقف على غلاف الرموز، وقد سعى أخلافه بكل حسن نية ليجدوا المفتاح، وطبقوا في ذلك أنظمة التأويل المختلفة التي كانت معروفة في اليونان. ولو أنه حوفظ لنا على مؤلف الرواقي شيرومون، لوجدنا فيه على الأرجح صلات مع الآثار الهيروغليفية، أكثر مما هو في آثار ديودور و جامبليك؛ ذلك لأنه بالنسبة للديانة المصرية كما هو بالنسبة للديانة الهيللينية، ينبغي أن تكون التفسيرات الرواقية أكثر قرباً من الحقيقة عما هي في نظرية بشرية الآلهة أو الميتافيزيقا الأفلاطونية. وغالباً ما يعطينا بلوتارك، بصورة عابرة، إيضاحات فيزيائية مرضية أكثر من الإبليسية التي يتوقف عندها. لكن، بدون أن نعطي القيمة نفسها لكل هذه الأنظمة، يمكن الاعتراف أن لها جميعها مسوّغاً لأن تنتج. فالديانة القديمة كانت، على الأخص فيزياء عامة، مع أن الأسماء والنعوت الإلهية المعطاة إلى الملوك في الكتابات، والعائلات الملكية الإلهية الموضوعة في بداية التاريخ يمكن أن تنظر إلى الآلهة كرجال مؤلهين. فتجسيد أوزيريس وأسطورته البشرية تتوافق مع نظريات إضفاء الصفة البشرية على الآلهة. ويمكن اعتبار الأبالسة كل هذه القوى المأمورة التي غالباً مايشار إليها في الطقوس الجنائزية. وأخيراً، وبمقدار ماكانت الذهنيات تتجه نحو تجريدات الأنطولوجيا، كان يبحث عن فصل مبادئ العالم عن مظاهرها المرئية،

والرموز التي كانت تتعرض بشكل سيء لهذه التحولات كانت توضع جانباً، فهي تحترم عادة ولكن لايتحدث عن ذلك. ومن هنا يأتي أنّ الميثولوجيا القديمة قليلاً ما تأخذ مكانها في مؤلف جامبليك الذي يستجيب لهذا المظهر الأخير من الديانة المصرية.

وكما أن الأشكال الخارجية لهذه الديانة لم تتغير، فقد اعتُقِدَ أنها جامدة، وبمقدار مايتم توفيق الذهنية أكثر مع أنظمة الإغريق الفلسفية، بمقدار ما يتم الاقتناع أكثر بأن هذه الأنظمة كانت قد خرجت منها. فالاغريق كانوا قد بدأوا ينسبون تربيتهم الدينية لمصر، وهو رأي لم يقره العلم الحديث، وأسندوا إليها كذلك تربيتهم الفلسفية، وهنا أيضاً تتفتح ملامح النفوذ المصري عندما يراد فهمها. فكل استعارات أفلاطون من مصر تقتصر على حكاية حول **توث** مخترع الكتابة وعلى ذلك التاريخ الشهير **للأطلنطيد**(*)، التي قيل أنها كانت قد رويت **لصولون** من قبل كاهن مصري، والتي تبدو وكأنها ليست سوى حكاية من اختراعه. أما فكرة التقمص أو التناسخ، فقد تلقاها من الفيثاغوريين. فهل كان فيثاغورث قد أخذها عن مصر؟ ليس ذلك مستحيلاً، لكن الفكرة نفسها موجودة عند الهنود، وعند السلت الذين لاينبغي أن يكونوا قد حصلوا عليها من المصريين. ويمكن أن تستنبط من ديانة الأسرار، وكما أن الفيثاغوريين لايتميزون بصورة واضحة عن الأورفيين، فإنه لايمكن معرفة ماإذا كان يوجد تأثير من الديانة على الفلسفة أو انعكاس الفلسفة على الديانة. وحسب **بروكلوس**، كان فيثاغورث قد تلقن عن طريق **أغلاوفاموس**، أسراراً نقلها أورفيه من مصر. ذلك هو التأثير المصري المنقول خارج الأزمنة التاريخية.

(*) الاطلنطيد: أو أطلنطس: يقال أنها جزيرة في المحيط الاطلنطي تقع خلف أعمدة هرقل ويعتقد أنها قد وُجدت في الماضي البعيد لما قبل التاريخ وقد غرِقت تحت سطح الأرض إثر زلزال هائل. (الناشر)

انَّ مايمكن إسناده إلى التأثير المصري على الفلسفة اليونانية، هو الاصطفاء من أغلبية الفلاسفة بالنسبة للمذاهب التوحيدية والحكومات التيوقراطية أو الملكية، ويفسر هذا الاصطفاء أيضاً بالميل الطبيعي للفلسفة لتعاود تأثيرها ضد هذا الوسط الذي تنمو فيه. ففي مجتمع متعدد الآلهة وجمهوري، يجب أن تصل هذه الردة إلى وحدة في الديانة وإلى السلطة في السياسة لأن هاتين الفكرتين متلازمتان. والذهن البشري تبهره العبارات البسيطة التي تسمح له بمعانقة الأشياء جميعها دون عناء، وبصعوبة يقنع حب الذات بفكرة المساواة، والفلاسفة كغيرهم من الرجال، ميالون لأن يفضلوا الهيمنة على جزء في حرية الجميع. فالذين كانوا يسافرون إلى آسيا أو إلى مصر، ويجدون فيهما أفكاراً وعادات موافقة لأذواقهم، كان ينبغي عليهم أن ينسبوا لهذه الشعوب حكمة عالية ويقترحوها كمثال على مواطنيهم. ويشبه الكهنوت المصري تلك الأرستقراطية ذات الفكر بحيث أن الفلاسفة كانوا يريدون رؤيتهم يحكمون في اليونان، شريطة أن يشكلوا جزءاً منها، وكان للكهنوت اليهودي أن يوحي بالاعجاب ذاته لو أنهم عرفوه، وماكان ليوجد لديهم أي مبرر لاخفائه.

إن الفلسفة الاغريقية، التي كانت ارتبطت منذ الأصل، بالبحث عن أول مبدأ للأشياء، فهمت الوحدة تحت شكل مجرد، ومثلها اليهود فالعالم بالنسبة لهم كان مملكة monarchie. وبالنسبة للمصريين لم تتميز الوحدة الإلهية عن وحدانية العالم. فالنهر الكبير الذي يخص مصر، والكوكب المضيء الذي يحيي كل الطبيعية قدّما لهم نموذجاً لقوة داخلية، وحيدة ومتعددة في آن واحد، بادية بصورة مشتتة بتتابعات منتظمة، وتعاود الولادة من ذاتها بصورة مستمرة. وقد لفت م. **دي روجيه** النظر إلى أن كل تفسيرات **غلوزس** لطقوس المصريين الجنائزية تنسب كل مايكوّن جوهر إله أعلى إلى رع، الذي هو، في

اللسان المصري، ليس شيئاً آخر غير الشمس. فهذا الكوكب، الذي يبدو ويعطى لنفسه كل يوم بذاته ولادة جديدة، كان الرمز للتولد الإلهي المستمر. ومع أن الأشكال الرمزية هي أيضاً متنوعة في مصر كما هي في الهند، إلاَّ أنه لايوجد جهد كبير مجرد ليقود كل هذه الرموز إلى وحدة الوجود.

وقد قال دي روجيه: «... بالمناسبة، ألفت النظر إلى أن الشرك (تعدد الآلهة) في مصر لم يُخْفِ كلية أبداً الاعتقاد بوحدة كائن أعلى. فهناك مسلة في برلين منذ الأسرة التاسعة عشرة تسميه الوحيد الحي في جوهره. وهنالك مسلة أخرى في نفس المتحف تعود للعصر نفسه وتدعوه الجوهر الوحيد الخالد، وفيما بعد المولِّد الوحيد في السماء وعلى الأرض الذي لم يولد. كذلك فإن مذهب إله واحد في شخصية مزدوجة من الأب والابن قد حوفظ عليه أيضاً في طيبة وممفيس. مسلة برلين نفسها التي أتت من ممفيس تسميه الإله الذي صنع نفسه إلهاً، الموجود بذاته الكائن المزدوج، المولد منذ البدء. وتوضح الأمثولة الطيبية (نسبة إلى طيبة) في عبارات متشابهة تقريباً عمّ يُنسب **لآمون**. في مخطوطة **م. هاريس**: كائن مزدوج، منذ البدء الإله الصانع نفسه إلهاً، المولد لذاته. فالعمل الخاص المسند لشخصية الابن لم يدمر الوحدة؛ وبكل وضوح سمي في هذا المعنى الواحد الأحد الذي ترجمه جامبليك فيما بعد بعبارة يونانية تنطبق على الاقنوم الإلهي»[٣].

وعندما التقت المذاهب الفلسفية الاغريقية والمذاهب الدينية المصرية واليهودية في الاسكندرية، كان لها فيما بينها الكثير من النقاط المشتركة لئلّا تصبح استعارات متبادلة. ومن تقاربها واحتكاكها اليومي

---

(٣) دوروجي، دراسة عن الطقس الجنائزي للمصريين. (مجلة آثار، ١٨٦٠، ص٣٥٧).

خرجت مدارس عديدة كانت خاصيتها العامة الانتقائية أو بالأحرى التوفيقية، أي خلط مختلف العناصر التي تآزرت في تكوينها. وتوجد هذه العناصر جميعها، ولو بنسب متغيرة، في كل واحدة من هذه المدارس. أولها المدرسة اليهودية التي يمثلها فيلون، الذي بقوة الاستعارات المجازية يستخلص الأفلاطونية من كل صفحة من التوراة. وينظر إلى فيلون بأنه المبشر الأساسي بالغنوصية. ويجمع تحت هذا الاسم مذاهب عديدة مسيحية تخلط التقاليد اليهودية بتقاليد شعوب أخرى، وبصورة خاصة الاغريق والمصريين. فكلمة غنوصي، التي طبقت أحياناً على المسيحيين بصورة عامة، مثلاً في كليمنت الاسكندري، تعني ببساطة أولئك الذين يملكون الغنوص، العلم الأعلى، حدس الأشياء الإلهية.

هناك بعد **فيلون** والغنوصيين المدرسة الكبرى **لآمونين ساكاس وأفلوطين**، اللذين مع استعارتهما لميولهما التوحيدية والصوفية من آسيا ومصر، يتعلقان مباشرة بالفلسفة الاغريقية، التي تبحث في صهر كل المذاهب المتباعدة. ففي الأزمنة الأخيرة للشرك، لم يعد المرء حصراً، رواقياً، أبيقورياً، مشائياً حتى ولا أفلاطونياً، فكل هذه المذاهب كانت قدمت قضيتها الجائزة إلى مجمل الأفكار، ومثلت جميعها، في أحد جوانب الفلسفة العامة. ولم تكن هذه المصالحات جديدة، فأفلاطون كان قد استعار كثيراً من المدرسة الإيلية ومن الفيثاغوريين، ولم يكن البحث بالأباليسية من اختراع أفلاطون ولاحتى من اختراع **امبيدوقلوس** أو **فيثاغورث**، بل كان له مكانة في الفلسفة الاسكندرية، وتوجد بذرته في أعمال ويوميات **هزيود**.

إلى جانب هذه المدارس، وكما من أجل استخدام رابط بينها، ينمو فيها اتجاه آخر لايرتبط بأي اسم تاريخي، وليس ممثلاً إلا بالكتب الهرمسية. هذه الكتب هي الآثار الوحيدة التي نعرفها مما يمكن تسميته

الفلسفة المصرية. صحيح أنها لم تصل إلينا إلا باليونانية، وليس حتى من المحتمل أن تكون قد كتبت أبداً بلغة مصرية. ولكن فيلون يكتب باليونانية أيضاً وهو ليس فيها يهودياً حقيقياً على الأقل. ويمكن قول الشيء ذاته بأن الكتب الهرمسية تنتمي إلى مصر، ولكن إلى مصر التي اصطبغت بقوة بالهيللينية وعشية المصير المسيحي. وقد لا توجد حقيقة في اغريقية هذه العبادة النشوية التي تملأ كتب هرمس؛ فورع الاغريق كان أكثر سكوناً... وماهو أيضاً أكثر غربة عن الخاصية الاغريقية ذلك التأليه للملك الذي يوجد في بعض الكتب الهرمسية، والذي يذكر بالألقاب الإلهية المطلقة على الفراعنة ومن بعدهم على البطالمة. فهذه المؤلفات المختلقة قد كتبت دائماً تحت شكل حوارات. فتارة تكون إيزيس هي التي تنقل إلى ابنها حورس التلقين الذي تلقته عن جدها الكبير كاميفيس ومن هرمس، أمين سر الآلهة؛ وتارة الشيطان الخيِّر، الذي هو على الأرجح الإله **كنيف**، يعلم أوزيرس. وعلى الأغلب أن هرمس هو الذي يلقن تلميذه اسكليبيوس أو ابنه **تات**. وأحياناً يلعب هرمس دور التلميذ، والملقن يكون العقل أو **بوامندريس**. ورسالة بورفير موجهة إلى النبي **آنيبو**، وهذا الاسم **انيبو** أو **انوبيس** هو اسم اله ماثَلَهُ الاغريق بهرمس.

لكن ماهو هذا الهرمس المثلث العظمة الذي تحت اسمه وصلت إلينا هذه الكتب؟؟ هل هو إله؟ هل هو إنسان؟ بالنسبة للشراح، يبدو أنه الأول والآخر. فالمظاهر المتعددة للهرمس الاغريقي كانت عملت على خلطه مع آلهة مصرية عديدة كان له من بينها ومعها كثير من العلاقات. وقد رأى بعضهم تحاشي الخلط بالأنساب، وقيل أنه يوجد العديد من الهرامسة. وحسب **مانيثون فإن ثوث** كان أول هرمس كتب على المسلات أو الأعمدة مبادئ العلوم في لغة وصفات هيروغليفية. وبعد الطوفان، فإن هرمس الثاني، ابن الشيطان الخيِّر ووالد تات كان ترجم هذه التسجيلات إلى اليونانية. وفي هذا المقطع قدم هؤلاء

الهرامسة كشخصيات تاريخية. ففي مصر، أخذ الكهنة كما أخذ الملوك تسميات معارة للآلهة، وكما في الكتب الهرمسية، فإن للملقن صفة كهنوتية بأكثر مما هي إلهية وقد أسندها الكتاب الأوائل إلى هذه العائلة من الأنبياء. وكلفهم كثيراً، أن يعتقدوا ان هذه الأعمال التي نظروا إليها بإعجاب كبير كانت لأحد الكتاب الغامضين والمجهولين واضعاً أفكاره تحت اسم إله. مع ذلك كان الغش بريئاً، فكاتب (التقليد) الذي يضع الخطابات على لسان المسيح لم ينظر إليه كمزور. وفي الكتب الهرمسية، افترضوا أن الفلسفة قد اكتشفت بالعقل أو من قبل الله الذي هو مشخص فيه.

ويقول جامبليك: «إن هرمس الذي يدير الكلام، هو حسب التقليد القديم، مشترك في كل الكهنة، وهو الذي يقود إلى العلم الحقيقي، وأنه واحد في الكل. ولهذا أسند إليه أسلافنا كل الاكتشافات ووضعوا أعمالهم تحت الاسم هرمس». من هنا هذه الكمية العجيبة من الكتب أو الخطابات المنسوبة لهرمس، ويتحدث جامبليك عن عشرين ألفاً منها، لكن دون أن يعطي عنواناً لأيٍّ منها، والاثنان والأربعون كتاباً التي تحدث عنها كليمنت الاسكندري كانت تشكل موسوعة حقيقية كهنوتية. وبرأي غاليان أن الكهنة قد كتبوا على الأعمدة، دون اسم المؤلف، الأمر الذي كان قد أوجده أحدهم وصدق الجميع عليه. وكانت أعمدة هرمس تلك المسلات والنصب، التي كانت الكتب الأولى قبل اختراع ورق البردي. وفي رأي جابلونسكي، إن اسم ثوث يعني عموداً في المصرية. ومن المؤسف بالنسبة للعلم، أنه بدلاً من الكتب التي أشار إليها **كليمنت الاسكندري** وتلك التي كانت حَسْبَ بلوتارك، قد شرحت أسماء الآلهة، ليس لدينا سوى أعمال فلسفية من فترة انحطاط. مع ذلك فإن للكتب الهرمسية التي نمتلكها قيمتها النسبية أيضاً. إنها تعرفنا بفكر القدماء الديني، ليس تحت الاسم الأكثر جمالاً، وإنما تحت شكلها الأخير.

لعرض مجمل الثيولوجيا الهرمسية، لايسعنا أن نفعل أكثر من أن نعيد استنساخ الخلاصة التي أعطاها لها السيد ڤاشيرو في تاريخه النقدي لمدرسة الاسكندرية وهو يقول: «إن الله قد فُهم كمبدأ أعلى من العقل والروح، ومن كل ماهو علة[٤] له. وليس الخير احد صفاته فهو طبيعته ذاتها؛ فالله هو الخير، كما أن الخير هو الله. إنه اللاكائن بصفة أنه أعلى من الكائن. الله يبدع كل ماهو كائن ويتضمن كل ماليس كائناً بعد، قطعاً إنه غير مرئي في ذاته، فهو مبدأ النور[٥]. العقل ليس الله، إنه فقط من الله وفي الله، كذا الإدراك هو في العقل، والروح في الإدراك، والحياة في الروح والجسد في الحياة[٦]. العقل متميز وغير منفصل عن الله مثل الضوء من بؤرته؛ إنه أيضاً مثل الروح عمل الإله، وجوهره، إذا كان له جوهر[٧]. الإنتاج والحياة هما بالنسبة لله واحد ونفس الشيء[٨]. وأخيراً، الصفة الخاصة للطبيعة الإلهية، هو أنه لاشيء مما يوافق الكائنات الأخرى يمكن أن يسند إليه؛ إنه جوهر كل الأشياء

---

(٤) «ليس الله هو الذكاء بل سبب الذكاء وليس الله هو الروح بل سبب الروح وليس الله هو النور بل سبب النور» (الكتاب الأول، خطاب عالمي) - «الله فوق كل شيء وحول كل شيء». (الفصل الأول من كتاب المفتاح).

(٥) «الله غير مرئي بحد ذاته ويُظْهِر كل الأشياء» (الفصل الأول من كتاب الله غير المرئي جلي للغاية) - «ماهو كائن يُظهره وماليس كائناً يمتلكه في ذاته». (الفصل الأول من كتاب المفتاح).

(٦) يوجد هنا التباس فالنص يفسّر «الذكاء بأنه في العقل والعقل في الروح والنفس في الروح والروح في الجسد». (الفصل الأول من كتاب المفتاح).

(٧) الذكاء هو جوهر الله بحدّ ذاته هذا اذا افترضنا أن اللّه يمتلك ماهية ما. ليس الذكاء مفصولاً عن جوهر الله، انه متحدّ معه كاتحاد الشمس مع نورها. (الفصل الأول، من كتاب الذكاء العام) - «الذكاء في الله والعقل في الذكاء». (الفقرة الرابعة).

(٨) كما أن الانسان لايستطيع العيش بمعزل عن الحياة فالله بدوره لايستطيع العيش دون فعل الخير. (الفصل الأول من كتاب الذكاء إلى هيرمس).

دون أن يكون أي شيء[٩]. ولهذه الإشارة يُعترف بأن الله أب لكل الأشياء. إنه روعة الخير الذي ينير العقل، ثم الإنسان كله والاقتناع في جوهر إلهي فعلاً[١٠]. الله هو الحياة الشاملة، وهو الكل الذي ليست الكائنات الفردية سوى أجزاء منه، إنه المبدأ أو النهاية، المركز والدائرة، الأساس لكل الأشياء، الينبوع الذي يفيض، الروح الذي يحيي الفضيلة التي تنتج العقل الذي يرى، النفس التي توحي[١١]. الله كل، كل ممتلئ به هو؛ إنه لاشيء في الكون الذي لايكونه الله[١٢]. كل الأسماء تناسبه كأبي الكون لكن بما أنه الأب لكل الأشياء، فأي اسم ليس اسمه الخاص[١٣]. الواحد هو الكل والكل هو الواحد؛ وحدة وكلية هي المصطلحات المترادفات في الله[١٤].

إن أول فكرة ترد إلى الذهن عندما ندرس هذه الفلسفة هو تقربها من فلسفة البراهمانا. فبمقارنة الكتب الهرمسية مع الباغافات ـ جيتا،

(٩) يستشهد السيد ڤاكرو بطبعة باتريزي رإليكم معنى المقطع عن طبعة بارتي الأكثر صحة: «الله هو الأب والخير ومااللہ إلا وجود مالم يُخْلَق بَعْد، ذاك الوجود الذي نراه عبر الكائنات. هاهو الله، هاهو الخير وليس الله شيئاً آخر غير ذلك». (الفصل الأول من كتاب المفتاح).

(١٠) «الجلال الذي يغمر فكره وروحه كليهما يحرره من روابط الجسد ويحوّله كلياً في جوهر الله» (الفصل الأول من كتاب المفتاح).

(١١) «كل الأشياء تشكّل أجزاء من الله وعلى هذا فالله هو كل شيء» (الفصل الرابع من كتاب تعريفات، الجزء الأول) ـ «لأنّه سيد وأب ومصدر وحياة وقدرة ونور وذكاء وعقل كل الأشياء» (الفصل الرابع، مقاطع عن سويداس).

(١٢) «كل ذلك هو الله والله في كل شيء» (الفصل الأول من كتاب من الذكاء العام» ـ «لأن كل شيء ممتلئ بالله» (الفصل الأول من كتاب من الذكاء الى هرمس).

(١٣) «لأنه وحده هو كل شيء لئلا يُسمى بكل الاسماء لأنه الأب الأوحد ولذلك الله ذاته لا اسم له لأنه أب الناس أجمعين» (الفصل الأول من كتاب الله غير المرئي جلي للغاية).

(١٤) «الكل الذي هو فرد والفرد الذي هو الكل» (الفصل الرابع من كتاب تعريفات، الجزء الأول).

غالباً ما نلحظ نفس الأفكار وهي تبدو بعبارات متماثلة تقريباً: «أنا الأصل وذوبان العالم، لا شيء أكبر مني؛ تترابط الأشياء، كاللآلئ المعلقة في خيط. أنا الرطوبة في المياه، والتألق في الشمس والقمر، والكلام المقدس في الفيدا، والقوة في الهواء والرجولة في الإنسان.. أنا عطر الأرض ووميض الشعلة وذكاء العقول وقوة الأقوياء. أعرف الكائنات الماضية، والحاضرة والمستقبلة، لكنني أنا، لا أحد يعرفني.. أخترق عوالم الحرارة، أحبس الأمطار وأهرقها، أنا الموت والخلود، أنا الكائن والعدم، يا أرجونا! ـ أنا مُولِّد كل الأشياء ومني ينمو الكون. أنا النفس التي تستقر في صدر كل الكائنات، أنا البدء، الوسط والنهاية»(١٥). وكما أنه لايوجد دلائل إيجابية على تواصل بين الهند ومصر، فانه لايمكن تفسير هذا التشابه باستعارات. إنه لمثير فقط، أن نجد لدى شعوب مختلفة، نفس المذاهب إلى جانب نفس الأشكال الاجتماعية، فوحدة الوجود أو الحلولية تستجيب لنظام الطبقات، كما تستجيب الوحدانية للملكية، وتعدد الآلهة (الشرك) للجمهورية.

ويتعرف **فاشيرو** في التيولوجيا الهرمسية على أفكار وعبارات أفلاطونية جديدة، واستعارات أخرى لفيلون وكتب يهودية أخرى؛ ومن السهل أيضاً التعرف فيها على وحدة الوجود المصرية مجردة من أشكالها الرمزية ومرتدية أشكالاً مجردة من الفلسفة اليونانية. وهكذا، في تسجيل من معبد **سايس** Sais نقله بلوتارك وبروكلوس، كان نيت يقول: «أنا كل ماهو كائن وماكان وماسوف يكون»(١٦). وحسب م. روجيه، فإن الإله الأعلى قد عُرِّف في العديد من صيغ الطقوس الجنائزية مثل «ذلك الذي يوجد بذاته» ـ «ذلك الذي يولد ذاته»... وتسميه بعض

(١٥) باغافات جيتا الجزء السابع والتاسع والعاشر.

(١٦) بلوتارك، أيزيس وأوريزيس، بروكل. ان يتم، الفصل الأول ص٣٠

النصوص الأخرى «سيد الكائنات واللاكائنات»[١٧]. ذلك هو هنا الإله لوحدة الوجود الهرمسية بواسطته وفيه يوجد كل شيء، هذا الأب الشامل الذي تقوم وظيفته على أن يبدع، ذلك تقول لنا عنه كتب هرمس: «إن الأزلي لم يتولد بواسطة آخر، لقد أنتج ذاته، أو بالأحرى يخلق نفسه بذاته أبدياً»[١٨] ـ «إذا لم يكن الخالق غير ذلك الذي يخلق، فإنه بالضرورة يخلق نفسه بذاته، لأنه في خلقه يصبح خالقاً»[١٩] ـ «إنه ماهو وماليس هو[٢٠]» فالفكرة التي تجعلها النصوص القديمة، الواحد الأحد، أو الإله المزدوج أو الكائن المزدوج أي الأب والابن حسب وجه السر الذي يراد اعتباره[٢١]، توجد أيضاً في كتب هرمس، حيث غالباً ماكان هنالك تساؤل عن ابن الله المتولد[٢٢].

هذا الإله الثاني هو العالم، مظهر مرئي لله غير المرئي[٢٣]. ويسند أحياناً هذا الدور إلى الشمس[٢٤]، التي تنشئ الكائنات الحية، كالأب ينشيء الجواهر المثالية. وتحت هذا الشكل يتقرب الفكر الهرمسي من التيولوجيا المصرية القديمة «مسلة في متحف برلين، تدعو الشمس المولود الأول، ابن الله الكلمة، ونقرأ على جدران معبد فيلاي... وعلى باب

---

(١٧) دوروجي، دراسة عن الطقس الجنائزي (مجلة عن الآثار، ١٨٦٠، ص٢٣٦، ٢٤٧، ٣٥٦ و٣٥٧).
(١٨) هرمس، الفصل الأول كتاب لاشيء يضيع، الخ.
(١٩) . المرجع السابق ذكره، الفصل الأول، من هيرمس الى اسكليبيوس.
(٢٠) المرجع السابق ذكره، الفصل الأول كتاب الله غير المرئي جلي للغاية.
(٢١) دوروجي، دراسة حول الطقس الجنائزي. (مجلة عن الآثار، ١٨٦٠، ص٣٣٧، ٣٥٦، ٣٥٧)
(٢٢) هرمس، الفصل الأول من كتاب المفتاح.
(٢٣) هرمس، الفصل الثاني، خطاب تدريبي الجزء الرابع والفصل الأول، من كتاب المفتاح.
(٢٤) المرجع السابق ذكره، الفصل الثاني والعاشر والرابع من كتاب تعريفات، الجزء الأول.

معبد مدينة أبو: «إنه هو، الشمس، الذي صنع كل ماهو موجود، مامن شيء صنع بدونه أبداً» وهذا ماسوف يقوله القديس يوحنا بدقة وبالعبارات نفسها بعد أربعة عشر قرناً عن الكلمة»[٢٥]. الإله الثالث في الكتب الهرمسية الإنسان[٢٦]، منظور إليه في جوهره المجرد، ليس دون مشابهة مع أوزيريس، الذي يؤخذ أحياناً كنموذج مثالي للبشرية، وفي الطقوس الجنائزية إن الروح التي تمثل الحكم تدعى دائماً «أوزيرس ما». وهذا التثليث الهرمسي، الله، العالم، الإنسان، ليس أكثر بعداً عن التثليثات المصرية القديمة لمفاهيم الأفلاطونيين المجردة.

ـ ٢ ـ

إن الوحدة العامة للمذاهب المعروضة في الكتب الهرمسية تسمح بنسبتها لمدرسة واحدة، بيد أن هذه الوحدة ليست بحيث لايمكن أن نميز فيها ثلاث مجموعات أساسية، والتي سوف نسميها، يهودية، يونانية، ومصرية، وبدون أن نسند لهذه الكلمات قيمة استثنائية مطلقة، وإنما فقط من أجل أن ندل على الأولوية النسبية لهذا العنصر أو ذاك والميول المختلفة التي تقرب طوراً فطوراً المدرسة الهرمسية من كل واحدة من الفئات الثلاثة التي كانت تتواجد في الإسكندرية. وينبغي تركيز الانتباه بدئياً على المجموعة اليهودية، التي ترتبط بصورة مباشرة أكثر بالتاريخ المهم بالنسبة لأصولنا المسيحية. فبين المذاهب الغنوصية الأولى واليهود الهيللينيين الذين يمثلهم فيلون، تنقص حلقة: يمكن إيجادها في بعض الكتب الهرمسية وبصورة خاصة في البوامندريس والموعظة على الجبل، وربما سوف يوجد فيها أيضاً سبب الإختلافات التي غالباً ماتلاحظ بين الأناجيل الثلاثة الأولى والرابع.

---

(٢٥) ماربيت، مذكّرة والدة ابيس.

(٢٦) هيرمس، الفصل الثاني، الجزء السادس.

بوامندريس، تعني راعي الإنسان، وقد يُوضّح اختيار هذه الكلمة من أجل تعيين العقل الأسمى بهذا المقطع من فيلون: «يجب لعقلنا أن يحكمنا كراع يحكم ماعزه، وأبقاره وخرافه، مفضلاً بالنسبة له وبالنسبة لقطيعه المفيد المستحب. وعلى الأخص، وحسب عناية الله ينبغي لأجزاء روحنا ألّا تكون بدون اتجاه، وأن يكون لها راع لاعيب فيه، وخيِّر بصورة تامة، يمنع فكرنا من أن يضل مصادفة، ويجب أن يقودنا اتجاه واحد لهدف واحد، فلا يوجد ماهو غير محتمل أكثر من الخضوع لقيادات متعددة. فتلك هي ميزة أعمال الراعي التي تسند بحق ليس إلى الملوك والحكماء أو الأرواح المطهرة بالتكريس فحسب، بل إلى الله ذاته. والذي يؤكده ليس أول قادم، إنه نبي من الخير الإيمان به، ذلك الذي كتب الترانيم وهاكم مايقول: «الرب هو من يرعاني وبذلك لن ينقصني شيء». وعلى كل واحد أن يقول هذا لنفسه، لأن هذه الترنيمة ينبغي أن يتأملها كل أحباب الله. لكن ذلك بصورة خاصة للعالم المناسب: كصنف من قطيع، والأرض، والماء، والهواء، والنار، وكل النباتات وكل الحيوانات، الأشياء الفانية والأشياء الإلهية، طبيعة السماء، دورات الشمس والقمر، ثورات الكواكب الأخرى ورقصاتها الإيقاعية تتبع الله كراعيها وملكها، والذي يقودها حسب العدالة والقاعدة، ويوجهها بحكمته المستقيمة (كلمته)، ابنه المولود الأول المكلف بالعناية بهذا القطيع المقدس وبوظائف وزير الملك الكبير، لأنه قيل أحياناً: «ها أنا الذي، سوف أرسل لك ملاكي أمام وجهك ليحرسك في طريقك». وليقل العالم كله، والقطيع الكبير جداً والكامل جداً للإله الحقيقي: الرب هو من يرعاني ولاشيء سوف ينقصني»[٢٧].

لقد قاربنا بوامندريس هرمس المثلث العظمة من راعي القديس **هرماس** أو هرمس المعاصر للرسل. وراعي القديس هذا هو مؤلف

(٢٧) فيلون، من كتاب الزراعة.

رؤيوي مكتوب بشكل سيء جداً، وقلما يقرأ، لكنه كان يتمتع بسلطة كبرى في الكنيسة البدائية وسأذكر مقطعاً منه يمكن استخدامه في توضيح عنوانه وتوجد فيه بذرة لمذهب (الأعراف) المطهر:

«أتيت أحد الحقول، وبدا شاب يرتدي ثياباً صفراء ويرعى حيوانات عديدة. وهذه الحيوانات كانت كما لو أنها في ملذاتها، تبطر بسرور وتقفز هنا وهناك. وكان الراعي ذاته مسروراً جداً في مرعاه ويعدو حول قطيعه. ورأيت في مكان آخر قطعاناً أخرى تبطر في الملذات ولكنها لاتتراقص. وقال لي: أترى هذا الراعي؟ وأجبته: أنني أراه يا سيدي ـ وقال: هذا هو ملاك الملذات والوهم، إنه يفسد أرواح عباد الله، يحرفهم عن الحقيقة، يخدعهم بالملذات السيئة حيث يضيعون، ناسين ارشادات الله الحي وسائرين في الملذات المجنونة وأوهام هذه الحياة. وقال لي: انتبه، (هكذا) قال: فالحيوانات التي تراها فرحة ومتراقصة، هي التي انفصلت عن الله حتى النهاية واستسلمت لرغبات هذا العصر. ليس لها فيها التوبة التي تُوصلُ إلى الحياة، لأنها قد جدَّفت باسم الله. فحياة هذه هي موت. وماتراه لم يقفز، وإنما يرعى في مكانه هي تلك التي أسلمت نفسها للملذات والوهم، ولكن بدون كفر بالله. إنها منفصلة عن الحقيقة، لكنه لها الأمل بالتوبة الذي يردُّ الحياة. فلفسادها إذن أمل أكيد في الشفاء لكن الموت (للأخرى) هو دمار أبدي.

«وتقدمنا قليلاً وأراني راعياً آخر، كبيراً وذا مظهر متوحش يتدثر بجلد ماعز أبيض، ولديه خرج على عاتقه، وعصا قاسية ذات عقد، وكانت له نظرة قاسية، بحيث أنني خفت منه. كان هذا الراعي قد تلقى البهائم من الراعي الشاب الأول، وتلك التي كانت تبطر في الملذات لكنها لاتتراقص، فأزجاها (أدخلها) في مكان وعر جداً، مليء بالأشواك والعليق بحيث لاتتمكن من الانعتاق بل تبقى متلبكة في

الأشواك والعليق. يكيلها ضرباته ويمشي هكذا حولها دون أن يترك لها راحة ولافسحة. وبرؤيتها هكذا تضرب وتُعذب، حزنت لمن كانوا يعذبون دون أن يُخلى سبيلهم. وقلت للملاك الذي حدثني: سيدي من هو هذا الراعي المر الخالي من الشعور؟ فقال لي: هذا ملاك القَصَاص؛ إنه أحد الملائكة العادلين، لكنه مخصص للعقاب. إنه يتلقى أولئك الذين ضلوا بعيداً عن الله، والذين ساروا حسب رغباتهم وهو يعاقبهم بما يستحقون بعقوبات مرعبة ومتنوعة(٢٨)».

في البوامندريس، تختلط المذاهب المصرية وربما حتى بعض بقايا من المعتقدات الكلدانية أو الفارسية مع **الطيماوس**(*) timee والفصل الأول من التكوين وبداية انجيل القديس يوحنا.

إن موضوع الكتاب هو نَشْكَوْنية(**) قدمت تحت شكل وحي حصل للكاتب بواسطة بوامندريس الذي هو العقل، والإله الأعلى في الفلسفة الإغريقية. وكما في **الطيماوس** فإن الله هو فوق المادة لكنه لا يجتذبها من العدم. فالعقل ينظم العالم تبعاً لنموذج مثالي الذي هو حكمته أو كلمته. وبهذه الكلمة، يُولِّد الله عقلاً آخر خلاقاً، إله النار والريح أو النفس. وهنا يمكن رؤية تذكر تأبُّه(***) مصري؛ وحسب **أوزيب**(٢٩)، أن **بتاح** كان قد ولد من بيضة خرجت من فم **كْنيف**. بيد أن نشكونية بوامندريس هذه يمكن أن تُربط أيضاً بالفلسفة اليونانية، خاصة في الطيماوس، وهذه الريح (النفثة) المبدعة تشبه كثيراً روح

---

(٢٨) س. هيرمي باستور، الكتاب الثالث، تشابه مع المقطع السادس.

(*) الطيماوس أو التيمة timee : أحد حوارات أفلاطون حول اسطورة أطلنطيد/ ترد في بعض الترجمات /تيمة/

(**) تشكونية: علم نشأة الكون، أي نظرية في نشأة الكون. (الناشر).

(***) التأبُّه: تنبُّه النفس بعد اتصالها بالبدن الى معارفها من حياة سابقة. انه تذكّر مبهم. (الناشر).

(٢٩) أوزيب، دراسة انجيل، الفصل الثالث، الجزء الثاني.

العالم. وثمة حاشية توجد في رأس مخطوطات تنسب لهرمس رؤية متقدمة للتثليث المسيحي وتسحب حتى من هنالك شرحاً لامعقولاً باسم المثلث العظمة. ويعيد **سويداس** استنساخ هذا الرأي ويذكر **قطعة** هرمسية مشابهة مقطع بوامندريس هذا. من المؤكد أن هذه الثيولوجيا تذكر بمذهب التثليث في الشكل الذي أعطته له الكنيسة اليونانية، التي اتبعت طريقة روح القدس للأب من قبل الابن. لكنه لاينبغي الاستخلاص أن البوامندريس متأخر عن العصر الذي كان فيه هذا المذهب قد حدد. فالأفكار توجد بذرة في الأذهان لفترة طويلة قبل أن تأخذ شكلها النهائي.

هذا الخالق الثاني، الذي يولده الإله بكلمته، ينتج سبعة وزراء تحكم أفلاك السماء وهي تذكر بالأمشاسباندات الفارسية. وفيما يخص الإنسان، فإن الله قد خلقه على صورته، وهذه على الأرجح ذكرى من التوراة، مع أن هذه الفكرة توجد أيضاً في الشرك (مذهب تعدد الآلهة).

وحسب فيلون، كان على الملائكة أن تشارك في خلق الإنسان؛ وهكذا يفسر استعمال الجمع في قصة موسى: «بعد أن قال إن الباقي خلقه الله وفي خلقه للإنسان يظهر تعاوناً غريباً. قال **الرب**: لنخلق الإنسان على صورتنا. وهذه الكلمة لنخلق تدل على الجمع. فالأب الشامل يتوجه إلى ملائكته ويكلفهم بتكوين الجزء الفاني من روحنا، مقلدين الفن الذي هو ذاته كوّن به جزءنا المعقول، لأنه حسب جيداً أن القدرة الموجهة للروح تكون من عمل الرئيس، وإن مايتوجب عليه الطاعة يكون عمل الرعية[٣٠]». وهذا الرأي يوجد في البوامندريس؛ فالإنسان النموذجي المخلوق بواسطة الله يجتاز الأفلاك السبعة، والذي يجعله حاكموها يساهم في طبيعتهم. وقد عرض **ماكروب** في شرحه

(٣٠) فيلون، من كتاب الاعماق.

حول **سبيون** نفس الفكرة. أما البدن، فإن الإنسان هو ذاته الذي يخلقه وهو يتأمل انعكاسه في الماء وظله على الأرض؛ يُصبح عاشقاً لصورته وترد له المادة حبها، ويتولد الشكل من اتحادهما. ربما توجد هنا إشارة إلى أسطورة نرسيس، هذه الأسطورة التي شرحها شارح أفلاطون وكانت ترتبط بديانة الأسرار؛ وكانت واحدة من عبارات عديدة من هذه العقيدة العامة في الديانات والفلسفات الصوفية: فحياة البدن هي موت الروح، التي باستجرار الرغبة لها تسقط في أمواج المادة.

يمكن لخاصة الخنثى للإنسان البدئي في البوامندريس أن تكون على علاقة بمأدبة أفلاطون، حيث مثلت هذه الفكرة بطريقة مضحكة، لكن من المرجح أكثر أن هذه ذكرى من كلمة التوراة: «لقد خلقهم ذكراً وأنثى»، وحسب فيلون الذي شرح مطولاً قصة الموزاييك تبعاً للنظريات الأفلاطونية، إن الله خلق بدئياً النوع البشري قبل أن يخلق أفراداً من الجنس المختلف. ويبدو أن البوامندريس يستوحي أيضاً بصورة مباشرة أكثر من التكوين، عندما يضيف أنه بعد فصل الأجناس قال الإله لهذه المخلوقات «تكاثري بتنامٍ وتضاعفي بعدد وافر». وفي الحقيقة أن هذا الشكل المطول، لايوجد في التوراة التي قالت ببساطة «تكاثروا وتضاعفوا». فيمكن الافتراض إذن أن المؤلف كان ينظر لِنَشْكوْنيات أخرى مفقودة اليوم. مع ذلك فإن هذا الفارق الخفيف لن يثير شكاً جدياً.

وعلاقات البوامندريس مع انجيل القديس يوحنا أكثر وضوحاً.

بوامندريس	القديس يوحنا
«هذا النور، هو أنا، العقل، إلهك، سابق للطبيعة الرطبة التي تخرج من الظلمات والكلمة المنيرة للعقل، هو ابن الله.	في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله. «هذا كان في البدء عند الله.

«إنهما غير منفصلين لأن الوحدة هي حياتهما.	«كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيئاً مما كان.
«كلام الله ينطلق لعناصر أدنى نحو الخليقة الخالصة، ويتحد بالعقل الخلاق، لأنه من نفس الجوهر.	«فيه كانت الحياة والحياة كانت نور البشر.
«في الحياة والنور يتكون أبو كل الأشياء.	«النور يُضيء في الظُّلمة، والظُّلمة لم تدركه.
«سريعاً ستهبط ظلمات.. تتغير في طبيعة رطبة ومضطربة، ويخرج منها صرخة غير مصاغة تبدو صوت النور؛ كلمة مقدسة ينزل من النور على الطبيعة.	«كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم.
«مايرى ويسمع فيك هو كلمة الرب؛ والعقل هو الله الأب. «بك أؤمن وأجعلك الشاهد؛ أمشي في الحياة والنور. أيها الأب لتكن مقدساً، فالإنسان الذي يعود إليك يريد مشاركتك في قداستك طالما سبق أن أعطيته القدرة على ذلك».	«وأما كلُّ الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنين باسمه».

من المحتمل جداً أن يكون البوامندريس وانجيل القديس يوحنا قد كتبا بتواريخ متباعدة قليلاً أحدهما عن الآخر، وفي أوساط كانت تتداول فيها ذات الأفكار وذات العبارات، أحدها بين يهود اليونان في الاسكندرية والآخر بين يهود ايفيز Ephese. وعلى كل حال يوجد بينهما فارق عميق يلخص في هذه الكلمة للقديس يوحنا: «والكلمة صارت لحماً وسكنت بيننا». فتجسد الكلمة هو المذهب الأساسي للمسيحية، وبما أنه لايوجد أي أثر لهذا المذهب في البوامندريس، فليس محتملاً أن الكاتب كان يعلم ذلك؛ وبصورة أخرى قد يكون تلميحاً، اما من أجل الاذعان له وإما لمحاربته.

ومايبدو مؤكداً، أن البوامندريس خرج من تلك المدرسة للزهاد اليهود الذين كانوا يعيشون في مصر والذين غالباً ماخلط بينهم وبين الاسينيين في سوريا وفلسطين. ويقيم فيلون بين هؤلاء وأولئك فوارق بارزة «فالأسينيون ـ كما يقول ينظرون إلى الجزء المعلل من الفلسفة كما لو أنه غير ضروري لاكتساب الفضيلة ويتركونه إلى محبي الكلام. ويبدو لهم أن المادي فوق الطبيعة البشرية؛ ويتركونه إلى أولئك الذين يضيعون في الغيوم، ما عدا المسائل المتعلقة بوجود الله وخلق العالم؛ ويهتمون فوق كل ذلك بالأخلاق». وبعد ذلك وصف فيلون عادات الإسينيين، ويمكن تطبيق وصفه هذا على الجماعات المسيحية الأولى حيث أن المطابقة مدهشة. ويمكن الاعتقاد إذن أن الرسل قد بحثوا بين هؤلاء عن تلامذتهم الأول. ويبدو من المرجح لدينا أن الراعي هرماس قد خرج من هذه الجماعة، وأن عنوان الكتاب والمؤلف قد أوحيا بذهنية من المعارضة، إلى أحد النساك اليهود المصريين بفكرة أن يؤلف بدوره نوعاً من الرؤيا، هي أقل أخلاقية وأكثر ميتافيزيقية وأن يسنده لا إلى هرماس أو هرمس معاصر، وإنما إلى هرمس المثلث العظمة، الشهير في كل مصر.

وفي الواقع، توجد في البوامندريس سمات عدة تتوافق تماماً مع ماقاله فيلون عن الزهاد، الذين عدّهم نموذجاً للحياة التأملية: «في دراستهم للكتب المقدسة يعاملون الفلسفة بالاستعارات، ويتنبأون بأسرار الطبيعة بشرح الرموز». هذه الجملة، التي تطبق تماماً على النظام المجازي لفيلون نفسه، تسترجع التفكير في الوقت نفسه بِنَشْكَوْنية بوامندريس، مع أن النصوص التوراتية لم تستدعَ فيها كسلطة. ويستشعر فيها فيما سبق بالأنظمة الغنوصية. ويقول فيلون أن الزهاد: «اكتشفوا بأحلامهم أثناء نومهم المذاهب المحترمة للفلسفة المقدسة». وعلى ذلك فإن مؤلف البوامندريس يبدأ كتابه بهذه الكلمات: «لقد فكرت في أحد الأيام بالكائنات، وجال فكري في الأعالي، وكانت كل إحساساتي الجسدية

مخدرة، كما في نوم عميق يتلو الشبع، والإجهادات أو التعب». ثم يقص رؤياه وبعد أن يكتبها ينام والفرح يغمره: «إن رقاد الجسد ينتج حذاقة العقل، وعيناي المغمضتان تريان الحقيقة». وحسب فيلون، كان للزهاد عادتهم في أن يُصَلّوا مرتين في اليوم، صباحاً ومساءً، ويدعو كاتب البوامندريس الناس إلى الصلاة في آخر بارقة من الشمس عند المغيب، بعد أن علمهم ذلك.

بعد أن انتشر بين يهود آسيا المبشرون المسيحيون، مضى هؤلاء لنقل مذاهبهم ليهود مصر. وبدلاً من عادات الأسينيين المضنية، الذين حسب فيلون، كانوا يمارسون مهناً يدوية، ويضعون حصيلة أعمالهم مشتركة فيما بينهم، وقد ردوا الفلسفة للأخلاق والأخلاق إلى الإحسان، قدمت أديرة الزهاد للدعاية المسيحية سكاناً مصطبغين بالهيللينية، ومتعودين على التعاليم المجردة والاستعارات الصوفية. ومن هذه الاتجاهات المختلطة مع عقيدة التجسيد، تخرج المذاهب الغنوصية، وينبغي أن يكون البوامندريس سابقاً على هذه المذاهب، ولم توجد فيها بعد الروعة الميثولوجية التي تميزها: فالقوى الإلهية، الحياة، النور الخ... لم تكن فيها بعد متميزة ولامشخصة، وفوق كل شيء لم تكن هنالك فيه بعد مسألة تجسيد الكلمة. لكن يوجد فيه دائماً فكرة الغنوص، أي العرفان الصوفي الذي يصل الإنسان بالله؛ ويجيز هذا، ليس لأن نفترض، مع جابلونسكي أن المؤلف كان غنوصياً بل لننظر إليه كمبشر بالغنوصية كما هو فيلون.

ويبدو أن الغنوصية قد تنامت في فترة واحدة تقريباً في مدينتي الاسكندرية وايفيز. ويقدم السيد **ماتر** في كتابه عن تاريخ الغنوصية بعض مقاطع من العهد الجديد كإشارات أولى للمذاهب الغنوصية؛ ومنها على سبيل المثال التوصية التي قدمها القديس بولس لتلميذه تيموسيه كي يبقى في إيفيز لمقاومة أولئك الذين يعلمون مذهباً آخر وينشغلون بالأساطير وأنساب الآلهة غير المفيدة، عارضين بالأحرى

نقاشات عن الاقتداء بالله، والذي يرتكز على الإيمان. وفي الواقع يمكن لكلمتي أساطير وأنساب أن تشير إلى الميثولوجيا الرمزية والتوليدات أو الفيوضات الإلهية التي تهبط في الأنظمة الغنوصية، من الله الأعلى حتى العالم المادي. وتستمر هذه الاتجاهات في الظهور منذ الفترة التي أخذت فيها المسيحية بالانتشار بين اليهود المتهلينين. ويمضي /ماتر/ إلى الاعتقاد بأن انجيل القديس يوحنا كان قد تم تأليفه أساساً لمحاربة الغنوصية المتولدة. ومن جانبي فأعتقد جازماً أن نيّة الدعاية في الفصل الأول من الانجيل تطغى على الجدل غير المباشر. فالمبشرون بالأناجيل الثلاثة الأولى يتوجهون إلى يهود فلسطين قائلين: «هذا المسيح الذي تنتظرونه قد جاء، إنه يسوع، الذي تظهر فيه لكم كل الصفات المنسوبة للمسيح من قبل الأنبياء». ويتوجه الإنجيل الرابع إلى المتهلينين ليقول لهم: «هذاه الكلمة التي تتحدثون عنها، والتي بها صنع كل شيء، التي هي النور والحياة، صارت لحماً وسكنت بيننا. أنسباؤه لم يستقبلوه، لكن استقبلوه أنتم، وليجعل منكم أبناء الله». تلك هي اللغة التي كان على القديس يوحنا أن يمسك بها، متوجهاً ليس إلى الغنوصيين، لأن الغنوصية لم تكن قد وجدت، وإنما إلى تلامذة فيلون، وإلى أشخاص يحيون في نسق مؤلف أفكار البوامندريس نفسها.

ليس فقط في بداية انجيل القديس يوحنا يمكن اكتشاف العلاقات بين المسيحية والمذاهب الهرمسية، ففكرة التجديد أو عودة الولادة «التقمص» تشكل موضوع الفصل الثالث من هذا الانجيل وموضوع حوار هرمس المعنون «كلام سري» أو وعظ سري على الجبل. هذا العنوان وهذا المقطع الذي يسند فيه هرمس التجديد إلى ابن الله، للإنسان الوحيد، يدلان على أن المؤلف عاش في فترة كانت المسيحية فيها قد دخلت الاسكندرية ووجدت نفسها في تماس مع بعض المسيحيين. مع ذلك فإن تفحصاً متمعناً قلما يسمح بافتراض أنه عرف كتبهم، حتى ولا أنه تلقن بمعتقداتهم.

حقيقةً كانت الجمعيات المسيحية الأولى سرية. وإذا كانت حماسة التبشير تستطيع أن تخنق الخوف من الاضطهادات، إلا أنه كان يبقى دائماً خطر تعريض المعتقدات الجديدة للشتيمة والسخرية من أولئك الذين لم يكونوا قد أُعِدُّوا لتلقيها. صحيح أن الآباء وتلامذتهم الأول، بكونهم من اليهود، توجهوا بدئياً إلى شركائهم في الدين، لكن التجربة علمتهم منذ البداية أن ارتباط اليهود بالتقليد يضعهم في ارتياب ضد كل محاولة إصلاح. كانت حرية العادات اليونانية تسمح بالتبشير بالإله المجهول وسط الساحة العامة في أثينا، لكن المرء قد يرجم، كما حصل للقديس اتيين، وهو يعلن التجسيد في أحد الكنس اليهودية. ومن جانب آخر كانت طريقة الأسرار قد وُجِدت؛ وكان سر التلقين وسيلة دعاية وجاذباً لحب الإطلاع، وكل الناس كانوا يريدون أن يكونوا ملقنين بشيء ما.

إن المسيحيين لم يخلقوا هذا الوقع، لكنهم قبلوا به، مهيئين الأرضية شيئاً فشيئاً، وملتجئين بالتتابع إلى كليهما دون أن يكشفوا عن كل مذهبهم دفعة واحدة. وكانت النقاط الرئيسية من هذا المذهب ملخصة في التبشير الانجيلي المعنون: خطبة على الجبل. وكان ينبغي أن تتكرر هذه الكلمات من وقت لآخر على مسامع اليهود الذين لم يتلقنوا بعد بالانجيل. وأن أحداً من هؤلاء كان قد تصور إنتاج وحي تحت العنوان نفسه، اذ لاشيء غير طبيعي؛ بيد أن المشابهة بين البوامندريس وراعي هرمس تتوقف هنا على العنوان. فموعظة الجبل المذكورة في إنجيل متى تتضمن تعليماً أخلاقياً خالصاً؛ وليس ثمة مسألة تجديد كما هي في إنجيل القديس يوحنا. فالكاتب الذي كتب باسم هرمس، والذي كانت فكرة التجديد هذه قد وصلت إليه بدون شك كاشاعة غامضة، يعرضها تحت شكل مفخم ودعيّ لا شيء له مشترك مع بساطة الأسلوب الانجيلي. بالنسبة له ابن الله، الإنسان الوحيد، ليس شخصية حقيقية وتاريخية، إنه بالأحرى نموذج إنساني مجرد، مشابه لإنسان

البوامندريس المثالي، ولآدم كادمون من القبالة، ولأوزوريس في طقوس المصريين الجنائزية. صحيح أن الغنوصيين أعطوا هذه الصفة للمسيح، المتميز عندهم عن الرجل يسوع؛ لكن الـمُجدِّد في الحوار الهرمسي لم يُشر إليه تحت اسم المسيح: اذن لا يمكن التعرُّف فيه على عمل مسيحي غنوصي.

وللقبول بأن الكاتب كان مسيحياً، يجب افتراض أنه يستر بقصد على جزء من معتقداته، وإن تعليمه المكتوب ليس سوى مدخل لتعليم شفاهي، وأنه يحتفظ للملقنين وحدهم بالسر الكبير للتجسد ولاسم المسيح نفسه. هذه الفرضية ليست قطعاً غير مقبولة، ولايبدو مع ذلك أنه يجب التوقف عليها. صحيح أن الكاتب، حسب عادة زمنه، يأخذ لهجة ناسك، لكن أية إشارة لاتدل على أنه يحافظ على شيء ما محفوظ خارج مايقول. بوامندريس هو السلطة الوحيدة التي تستدعي، وحتى أنه يضيف: «بوامندريس، العقل الأسمى لم يكشف لي شيئاً أكثر مما كتب، عارفاً إنني أستطيع بذاتي أن أفهم وأسمع ما أريد وأرى كل الأشياء». وبعد كثير من الكتمان والحكم الغامضة، ينتهي هرمس بأن يترك لنفسه اقتلاع سره، ورغم تعجب تلميذه والعناء الذي يبدو أنه عاناه لفهمه يرد هذا السر إلى فكرة بسيطة تماماً؛ هي أنه، لكي يرتفع في العالم المثالي، يجب أن يتخلص من الأحاسيس. وبهذا يصبح المرء إنساناً جديداً، ويجري التجديد الأخلاقي من ذاته. وليس لنا إلا أن نحارب كل عيب بفضيلة مناسبة وليس ثمة أصعب من هذا...

هذه القطعة يمكن وضعها، في مجال ترتيب الأفكار والأزمنة، بين البوامندريس والمذاهب الغنوصية الأولى؛ وينبغي أن تكون أسبق بقليل من مؤسِّسَيْ الغنوصية، **بازيليد وفالنتين**. ونعثر فيها على العشارية والاثني عشرية والثمانية عشر، وعلى هذا الميل للأعداد المقدسة الذي استعاره الغنوصيون من الفيثاغورية والقبالة. فقد قورن الجسد فيها

بخيمة، وهو مجاز يوجد في الأكزيوكوس Axiochos المنسوب لأفلاطون وفي الرسالة الثانية للكورنثيين. وقد استعملت فيه كلمة الشيطان كما في معناها المسيحي تقريباً، وأن اللهجة العامة للتعظيم التي تسود فيه، وذلك الغموض الذي يهدف إلى العمق يسكر بذاته ويعتبر هذا السكر من النشوة، ويجعله كل شيء يتبصر كل الأوهام الصوفية للغنوصية، التي سوف يحتج عليها كذلك آباء الكنيسة وفلاسفة الاسكندرية. إنها تتم الآن في كلمات كهذه: «غنوص مقدس، متنور بك، بك أنشد النور المثالي» ـ «يا ولدي، إن الحكمة المثالية هي في الصمت» ـ «عبر مخلوقاتك، وجدت التبريك في أزليتك». فمن المعلوم أن الصمت، الأزلية، أو القرون، كانت قد شُخِّصَت من قبل الغنوصيين ولعبت دوراً في ميثيولوجيتهم. هناك أيضاً إرشادات مثيرة حول المجتمع الذي تنامت المسيحية في وسطه. وهكذا فإن الفضيلة التي يقابلها هرمس بالشح هي التوحّد أو المشاركة. ونُدهش إذا تذكرنا أن الأسينيين، حسب جوزيف وفيلون، كانوا يضعون أجورهم في صورة مشتركة لكل يوم، ومثلهم المورمون كما يقال، إلا أن الدهشة أقل مما في حالة النزعات الشيوعية التي ظهرت في بعض المجتمعات المسيحية. فالنيقوليون الذين ناهضهم القديس يوحنا في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا) قد اتهموا بمد هذه المشاعية إلى النساء، حتى أن رئيسهم وضع زوجته قيد المشاركة.

ويمكن، في الكتب الهرمسية، متابعة مصائر هذه الغنوصية اليهودية ـ المصرية التي قاربت في القرن الأول، المسيحية دون أن تدع نفسها تُؤخذ في مرحلة انتقالها شيئاً فشيئاً من مدرسة فيلون اليهودية إلى مدرسة افلوطين الاغريقية. ففي مدرسة فيلون كانت اليهودية تقر جهاراً باستمرارية تلميحات التوراة. وفي البوامندريس والموعظة على الجبل يكشف ببعض التأبهات (التذكرات المبهمة) هنا وهنالك عن نفسه. ويمكن أيضاً إيجاد سمات من العنصر اليهودي في الخطاب ٧

المعنون: الشر الأكبر هو الجهل بالله، إنه تبشير له دلالته الكافية لمصلحة الحياة التأملية، وتطوير الخطبة الموجزة الموجهة للبشر في البوامندريس. وتوجد حوارات أخرى ذات خاصية مختلفة يمكن ردها بقدر من الاحتمال للتأثير الاغريقي أو التأثير اليهودي، مثل ذلك الذي يحمل عنوان الباطية(*) أو الجوهر الفرد. فهذا الكأس من العقل الذي تغوص فيه الروح أو تتعمد، ربما هو صورة مستعارة من المسارّات الأورفية ويمكن أن يوجد فيها أيضاً، كما أشار **فابريسيوس**، التعميد والقيامة بالمعنى المسيحي. إن الإشارات للحفلات الصوفية مألوفة جداً عند المؤلفين الإغريق. فأفلاطون يتحدث عن الباطية حيث يمزج الله عناصر العالم، واسطورة **أمبيدوقل** الغاطسة في فوهة بركان (إتينا)(**) كي تصبح إلهاً ربما خرجت من استعارة من ذات النوع. ويمكن إذن رؤية ذكر الأسرار في كلمات هرمس هذه: «إن الذين عُمِّدوا في العقل ملكوا الغنوص واصبحوا الملقنين بالعقل، انهم الاناس الكاملون: وذلك هو نفع الباطية الالهية». لكن يمكن أيضاً تقريب هذا المقطع من كلام انجيل القديس يوحنا «مَنْ يشرَبْ من الماء الذي سأعطيه إياه، لن يعطش أبداً، ولكن الماء الذي سوف أعطيه له سيصبح فيه نبع ماء حي ينسال في الحياة الأبدية».

بين كل المذاهب المتنازعة التي تتوازع الأذهان، لم تكن المسافة كبيرة كما كنا نعتقد. وكان من السهل أيضاً عبور المرء من ديانة لأخرى؛ وحتى أنه كان له ديانات عديدة في آن واحد من أجل مزيد من اليقينية. آنئذ كان يوجد تعطش شامل للعقائد وكان يُنهل من كل الينابيع. وفي وسط هذا العدد من المذاهب، والتفرعات والتلونات كان البعض يختار واحداً من بينها، لكن الأكثرية كانت تأخذ بكلتا يديها اليمين والشمال كل مايحضرها.

(*) باطية: إنا لمزج الخمر بالماء وهو ذو عروتين. كان يستعمله الاغريق والرومان

(**) إيتنا: بركان في ايطاليا (الناشر).

وهنالك رسالة من الإمبراطور **هادريان**، ذكرها **فوبيكوس** حسب ما يذكر **فايغون**، تجعلنا نفهم تماماً الحركة القلقة لسكان الاسكندرية، الحركة التي تنعكس في آن واحد على التجارة وعلى الدين.

«... عزيزي سرفيانون ان مصر التي كنت قلت عنها خيراً كثيراً، وجدتها طائشة متحركة تغير طريقتها في كل لحظة. فعبدة سارابيس Sarapis هم مسيحيون، وأولئك الذين يسمون أنفسهم أساقفة المسيح هم منذورون لسارابيس. لايوجد رئيس لكنيس يهودي، ولاسامري ولا كاهن مسيحي، إلاَّ وهو منجم، وعراف وصانع عقاقير. والبطريرك نفسه، عندما يأتي إلى مصر كان يُلْزِمُه بعضهم ليعبد سارابيس كما يُلْزِمه الآخرون ليعبد المسيح. يا له من عرق عاصٍ، مزهو وسفيه! المدينة غنية، واسعة الثراء مُنتجة لايعيش فيها أحد دون عمل. البعض يصنع الزجاج وآخرون يصنعون الورق، الجميع تجار نسيج ويبرعون فيه. المصابون بالنقرس لهم عمل والعرجان يعملون والعميان أيضاً، لايوجد أحد فارغ من الأشغال حتى المصابون بالنقرس في أيديهم... فلماذا لايكون لهذه المدينة عادات أفضل. إنها لتستحق لأهميتها، أن تكون على رأس مصر كلها. لقد منحتها كل شيء، وأعدت إليها كل امتيازاتها وأضفت إليها مزيداً من الامتيازات الجديدة التي كان عليها من أجل ذلك أن تشكرني. وماكدت أذهب حتى اتخذوا ألف خطة ضد ولدى ڤيرُس؛ أما هذا الذي قالوه عن **انطينوس**، فينبغي عليك الارتياب فيه. لا أتمنى لهم سوى شيء واحد، أكل مايعطونه لدجاجاتهم ليجعلوها تفرخ (تخرج من البيضة)، لا أجرؤ على ذكر ما يكون. إنني أرسل إليك أواني قزحية (ألوان قوس قزح) من مختلف الألوان التي قدمها إليَّ كاهن المعبد؛ إنها معينة لك بصورة خاصة ولأختي من أجل استعمال الوجبات، أيام العيد، فاحترس كي لايكسرها الأفريقاني عندنا».

هؤلاء المسيحيون عبدة سارابيس الذين تكلم عنهم هادريان، هم على الأرجح الغنوصيون الذين كانوا عديدين جداً في ذلك العهد. وتتضمن الكتب الهرمسية هنا وهنالك إشارات عن هؤلاء الغنوصيين المسيحيين. لكن مايصدم هرمس، ليس هو الخلط الذي يضعون به كل الرموز، فهو لم يتكلم عنه؛ انه يلومهم فقط على نظرتهم إلى العالم كعمل سيء وعلى تمييزهم الخالق عن الإله الأعلى: «فالأرض هي مقر الشر، ولكن ليس العالم كما يقول بعض المجدفين[٣١]». - «لنترك جانباً الثرثرة والكلمات الخالية من المعنى ولنتفهم عبارتي، المولد والخالق؛ فبينهما لايوجد مكان ثالث»[٣٢]. وعلى هذه الأرضية أيضاً يهاجم أفلوطين الغنوصيين؛ فهو لم يتحدث عن تجسيد الكلمة، وحاول مترجمه **مارسيل فيسين** أن يجعله مسيحياً.

لم تكن تطرح المسائل في ذلك العهد كما نطرحها اليوم؛ ومايبدو لنا أساسياً كان يعد من الدرجة الثانية، وكانوا يتناقشون بلانهاية حول النقاط التي تبدو لنا قليلة الأهمية. وغالباً مانتبين، في قراءتنا للمذاهب الفلسفية والدينية، أن الصراع الأكثر نشاطاً يقوم دائماً بصورة تقريبية بين المدارس الأكثر تجاوراً. فالأفلاطونيون المحدثون، المنفصلون عن الغنوصيين ببعض المبادئ الخاصة، وعلى الأخص الهرمسيين، يتقاربون بمجمل أفكارهم: «الطريق الوحيد الذي يوصل إلى الله هو الرحمة المتحدة بالغنوص[٣٣]»، «الغنوص هو التأمل، إنه الصمت والاستراحة من كل إحساس؛ ومن يتوصل إليه لايعود باستطاعته التفكير بشيء آخر، ولا أن ينظر شيئاً، حتى ولا أن يحرك جسده[٣٤]»، «فضيلة

(٣١) هرمس، الفصل الأول، المقطع التاسع، من كتاب الفكر والاحساس.

(٣٢) المرجع السابق ذكره، المقطع الرابع عشر، من هيرمس الى اسكليبيوس، كتاب الحكمة.

(٣٣) هرمس، الفصل الأول، من كتاب الخير في الله وحده.

(٣٤) المرجع السابق ذكره، الفصل الأول من كتاب المفتاح.

الروح، هي الغنوص، ومن يتوصل إليه فهو صالح تقي وإلهي في حينه[٣٥]».

بهذه الاتجاهات الصوفية التي تظهر في كل صفحة، توضع كتب هرمس بذاتها بين الغنوصيات والأفلاطونيات المحدثة. ومثل هذا التشابه للمذاهب قد يكفي تقريباً لردها إلى نفس العصر. ومن جانب آخر فاني أجد في الحوار المعنون بالعقل العامي مسلكاً يبدو لي أنها تُثبِّت هذا الاستنباط، و يمكن أن يساعد في تثبيت تاريخ أكثر دقة. فالكاتب يتحدث عن شيطان طيب لو أن تعليماته كُتِبت، لكانت مفيدة جداً للبشر؛ وهو يذكر بعد ذلك بعض آراء هذا الشيطان الطيب: إنها حِكَمْ الحلولية. ألا يمكن الافتراض هنا أنها تتعلق **بآمونيوس ساكاس** رئيس الأفلاطونيين المحدثين، والذي، كما هو معلوم، لم يضع تعاليمه أبداً بصورة مكتوبة. صحيح أن الشيطان الطيب سقط في الشرك بصورة عامة بالنسبة للشخصية المجردة التي تختلط مع العقل الأعلى: اذن قد تكون هذه الإشارة لأمونيوس ساكاس غامضة؛ لكنها لم تكن تستطيع أن تكون أكثر وضوحاً، لأن المؤلف كان يكتب تحت الاسم المنتحل لهرمس. فبين الخوف من افشاء حيلته في تسمية أحد المعاصرين والرغبة في أن يكون شاهداً عاماً على استاذه، توجب عليه أن يأخذ عبارة وسطى ويشير إليها تحت اسم الشيطان الطيب ذلك الذي كان لقنه الفلسفة. وهكذا قد يكون مؤلف هذا الحوار أحد زملاء أفلوطين المجهولين، وتلك فرضية يُؤيدها تشابه المذاهب، وهذا التشابه ليس خاصاً بالحوار الذي يمكن أن نرى فيه إشارة إلى أمونيوس ساكاس، انه يمتد إلى غالبية الأمور الأخرى.

في هذا الخليط من سكان الاسكندرية، كان يتوجب حصول

---

(٣٥) المرجع السابق ذكره، الفصل الأول من كتاب المفتاح.

الامتزاج بين الأفكار بسرعة، وربما حتى بين الأعراق. فأين هم الزهاد اليهود في نهاية القرن الثاني؟ بعضهم، اعتنق المسيحية وأصبحوا نساكاً أو غنوصيين بازيلديين وفالنتيين، وتقرب الآخرون أكثر فأكثر من الوثنية. وأقول الوثنية وليس الشرك لأنه في ذلك العهد قَبِلَ الجميع في النظام الإلهي تراتبية محددة جداً مع إله أعلى في القمة؛ وهذا الإله الأعلى هو بالنسبة لبعضهم في العالم فقط، وبالنسبة لغيرهم خارج العالم. وفي كل لحظة نقرأ في كتب هرمس خطبة حول الوحدة الإلهية؛ ويظن أن الأمر يتعلق بمسيحي أو يهودي، وفي بضعة سطور تالية، توجد جمل تُذَكِّر بأن الأمر يتعلق بإله الحلولية:

«ليس فقط أنه يحتوي الكل، لكن حقيقة هو الكل[٣٦]» ـ «إنه الكل ولاشيء لا يكونه[٣٧]» ـ «انه هذا الذي يكون وهذا الذي لايكون، ووجود هذا الذي لايكون بعد[٣٨]» ولتعيين هذه المذاهب، التي تتفرع من مذاهب مصر أكثر مما هي من مذاهب الاغريق، لايكون اسم الهيللينية صحيحاً؛ ومن الأفضل الحفاظ على العبارة أو اللفظة الغامضة والعامة للوثنية، التي تطبق بصورة عامة على كل المعتقدات التي حلت المسيحية محلها.

مع تأثير مدرسة الاسكندرية اليونانية، جاء نوع من الغنوصية الوثنية، في المدرسة الهرمسية، والغنوصية اليهودية لبوامندريس والموعظة السرية على الجبل. وبدلاً من بعض العبارات التي تذكر بالتوراة، نجد ذكريات من الميثولوجيا اليونانية. ذكريات غامضة جداً وممثلة تحت شكل تشخيص الآلهة: «فهؤلاء الذين يستطيعون الارتواء من هذا النور الإلهي يهجرون الجسد للدخول في المكاشفة السعيدة، مثل أجدادنا

---

(٣٦) من كتاب الفكر والاحساس.

(٣٧) من كتاب الذكاء العام.

(٣٨) من كتاب الله غير المرئي جلي للغاية ـ كتاب المفتاح.

أورانوس وكرونوس؛ ليتنا نستطيع أن نحاكيهم يا والدي[٣٩]!.»
ويلاحظ بواسطة كتب **سيبيلّين**، أن اليهود والمسيحيين قد تبنوا النظام التشخيصي ونظروا لآلهة الشرك كرجال تألهوا، لكنهم أدانوا هذا الإلحاد كضلالة. وعلى العكس فإن الوثنيين اعتقدوا بها وإذا كانوا قد قبلوا أن غالبية الآلهة كانوا رجالاً فإنهم أضافوا أن أعمالهم الخيرة قد ارتفعت بهم إلى الألوهة. فعندما يتحدث هرمس عن أجداده أورانوس وكرونوس، فإنه يعتقد بتأليههم؛ وهذا إذن هو تشخيص وثني وليس مسيحياً أو يهودياً مثل ماهو في كتب سيبللين. فأحياناً يدعو السماء الأوليمب ومن جانب آخر// فانه يستعير من الرواقية هذه الفكرة المتعالية: «الإنسان إله فان[٤٠]»! لكن بعد ملاحظة هذه العلامات المميزة للتأثير اليوناني، ينبغي أن نضيف أن المذهب بقي نفسه في مجمله، وبأكثر من ذلك، إن هذا المذهب هو بالأحرى مذهب عصر أكثر مما هو مذهب مدرسة. ونجده من جديد، فيما عدا بعض السمات الخاصة، في أفلوطين وأتباعه/ وفي **أبوليه**، وفي ماكروب وحتى في **أوريجين** وغيره من فقهاء الكنيسة. وهكذا يوجد في كل عصر كمية من الأفكار المشتركة في كل المذاهب حتى المتعادية والمتخاصمة فيما بينها، وكان هذا صحيحاً، على الأخص، في ذلك العصر حيث كانت الوحدة السياسية تشجع الميل الشمولي للأذهان نحو الوحدة الدينية.

ـ ٣ ـ

لن أتوقف حول كل واحدة من القطع الموجهة إلى **تات** وإلى **اسكليبيوس** وإلى **آمون**؛ إنها لاتضيف شيئاً مجدداً للمذاهب المتضمنة

---

(٣٩) من كتاب المفتاح.
(٤٠) من كتاب الذكاء العام ـ كتاب المفتاح.

في المؤلفات الأكثر اتساعاً والأكثر كمالاً المشار إليها. إنها تحليلات نفسية، ودراسات ميتافيزيقية غامضة، ونظريات حول الله وحول الروح، وحول العالم وحول الدرجات العشر. وقد جُمع عدة من بين هذه القطع تحت عنوان تعاريف، وهو عنوان لايسوّغه شيء، وقد حررت تحت اسم اسكليبيوس، تلميذ هرمس. فالكاتب يشكو من أن الاغريق قد ترجموا كتب معلمه إلى لغتهم؛ انه يسيء معاملة الفلسفة الاغريقية كثيراً، تلك التي أسماها ضجة كلام واهٍ. قد تكون تلك حيلة من منتحل ليجعل الناس يؤمنون بأن كتابه هو أثر مصري رسمي. فالشكل حديث، وتوجد إشارة للاستعمال الاغريقي لسباق العربات. وتقارن الشمس بحوذي وهي صورة مستعارة من الميثولوجيا الاغريقية، لأن الشمس في مصر كانت قد حملت على زورق. مع ذلك فإن الأهمية المسندة للشمس في عمل الخلق توحي بالتفكير أن الكاتب مصري. فالشمس حسب ما يقول م. روجيه، «هي أقدم موضوع عن العبادة المصرية الذي كنا نجده على الآثار... الأمر الذي لم يكن بدئياً، بدون شك، سوى رمز أصبح على الآثار المصرية بحيث نعرف أساس الديانة نفسه. إنها الشمس نفسها التي نجد أنه يُبتهل إليها عادة كالكائن الأعلى[٤١]».

لقد قُدِّم مذهب الوحدة الإلهية تحت شكل حلولي يستبعد فكرة التأثير اليهودي «سيد العالم، الخالق والأب، الذي هو الكل في واحد وواحد في الكل» وأبعد من ذلك. «كل شيء هو جزء من الله، وهكذا فإن الله كل شيء؛ وفي الخلق يخلق ذاته بذاته». ومع أن هذه الأفكار توجد تقريباً في طيماوس، فإنها تذكر أيضاً أكثر برب الديانة المصرية الذي يتولد ذاتياً. وماقيل عن الشياطين يمكن أن يرتبط بمصر كما يرتبط باليونان. وإحدى الوظائف المسندة إليها هي توزيع العقوبات. وعند

---

(٤١) دوروجي، موجز عن الآثار المصرية في متحف اللوفر.

الاغريق كان ذلك، هو دور **أومينيدس** وشيطان **ايرينوموس**، الذي رسمه **بولونيوت في معبد دلفي**، وكذلك دور الرجال ذوي الأجساد النارية، الذين، حسب أفلاطون يُعاقبون بالتارتار الطغاة والمجرمين الآخرين الكبار. بيد أن الشياطين توجد بالصفة ذاتها في الديانة المصرية: فالطقوس الجنائزية تتحدث عن «جلادين يعدون العقاب والقتل؛ ولايمكن التخلص من تيقظهم؛ إنهم يرافقون أوزيريس؛ فأرجو أن لايستولوا علي، وألاّ أقع في أحابيلهم[٤٢]!».

وتتضمن قطعة أخرى إشارة إلى فيدياس وحكاية عن الموسيقي اينوميوس من لوكروس. ويبذل **باتريزي**، الذي جعل من **هرمس** معاصراً **لموسى**، كثيراً من العناء لشرح هذه المقاطع. ومن جهة أخرى يعترف أن مجمل القطعة لامعنى له، ويتردد في اسنادها إلى تلميذ أحد الرجال الكبار، كهذا. ولانعلم لماذا لا يمد شكوكه إلى القطعة التالية، اذ أن إحداها تعادل الأخرى. إنها اسهابات باردة من خطيب متصنع، يتصنع الحماس ويخلط مدائح الملوك مع مدائح الله. ففي هذا التأليه المنبسط للملكية، إلى جانب بعض العبارات التي تذكر بتلك التي تقرأ على الآثار المصرية القديمة، يوجد إيضاح اشتقاقي للكلمة الاغريقية Baathevs المعبرة عن ذلك، وحتى بعض الجمل التي تشير إلى **فالنس**: «إنها فضيلة الملك، إنه اسمه الذي يضمن السلام. فاسم الملك لوحده غالباً مايكفي لدفع الأعداء. تماثيله هي منارات سلام في العاصفة. صورة الملك لوحدها تأتي بالنصر، وتعطي للجميع الأمن وتجعله منيعاً». إنه تحت أشكال أكثر حداثة، نفس الخنوع للملكية كما في التسجيلات المصرية: «ملك مصر، حاكم الصحاري، صاحب السيادة الأعلى، سيد كل البرابرة[٤٣]، الخ». ويتكلم المؤلف تارة عن الملك وتارة عن الملوك، وربما يتعلق الأمر بأخوين فالنس وفالنتينيان.

---

(٤٢) دوروجي، دراسة حول الطقس الجنائزي (مجلة آثار، ١٨٦٠، ص٣٤٢).
(٤٣) دوروجي، دراسة عن مِسلّة مصرية ص١٧٥ .

في مقاطع أخرى، ووسط الحجج الفلسفية الدقيقة، توجد هنا وهنالك بعض ملامح الأفكار المصرية. وقد أثبت **سويداس** مقطعا ذا صفة غنوصية ينتهي بابتهال يمكن أن يلاحظ فيه، تحت شكل مفسد أبيات شعر أورفيه. والمقاطع التي حافظ عليها سيريل، قصيرة جداً، ويوجد واحد منها مستخلص من استطرادات يشرح فيها الشيطان الطيب لأوزيريس خلق العالم. بيد أننا من كل الكتب الهرمسية التي وصلت إلينا، نرى أن أكثرها إلفاتاً للنظر، هو ذلك الذي يكون العنصر المصري فيه أكثر وضوحاً، إنه الكتاب المقدس الذي يحمل ايضاً عنوان عذراء العالم أو إنسان (حدقة) عين العالم، لأن للكلمة الاغريقية معنيين ولم يُشْرح أياً منهما في المؤلف الذي لايوجد لدينا منه سوى مقاطع. ويخطئ فابرسيوس عندما يقول أن باتريزي قد أكمل هذه المقاطع لمخطوط وجد في دير اينكليسترا في جزيرة قبرص، فباتريزي قال فقط أن مخطوط اينكليسترا، زيادة على البوامندريس والمقاطع التابعة، تضمن هذا الكتاب الذي كان ستوبيه أورده في مجموعاته الطبيعية، لكن طبعة باتريزي تتضمن شيئاً أكثر مما هو في ستوبيه. لا أعرف لماذا ذكر باتريزي **منيرفا موندي**، فليس موضوع هذا الكتاب عن منيرفا. إنها محادثة **ايزيس** مع ابنها **حوروس** حول خلق العالم، وتجسيد الأرواح والتقمص. وقد عرضت الأفكار المستعار بعضها من طيماوس والبعض الآخر من التقاليد الدينية، تحت شكل رؤى تتعلق بنهاية العالم، مع ذلك التفخيم الخطابي الذي تأخذ به آداب الانحطاط بالنسبة لعظمة الأسلوب الكهنوتي: «كان مشهداً جديراً بالاعجاب والرغبة حيث هذه الروائع السماوية، كشوف من الله ماتزال مجهولة، وتلك العظمة الفاخرة لليل، المضاءة بنور خارق، مع أنه أدنى من نور الشمس، وكل تلك الأسرار الأخرى التي تتحرك في السماء في فترات إيقاعية، منظمة وساحبة الأشياء من هذه الدنيا بتأثيرات خفية».

إن قصة الخلق بعيدة عن أن تكون واضحة، فالكاتب يقول لنا، صحيح أن هرمس «العقل الشمولي» كان قد شرح كل شيء في كتبه؛ لكنه يضيف أن هذه الوثائق الثمينة كانت قد حُنِّطت ولفت بشرائط عقب تحريرها، وأنها دفنت «قرب أسرار أوزيريس». ومن الصعب الشروع بحفريات تبعاً لهذه الدلالة. فيجب الاقتصار على معرفة أن الجمود العام سيدوم لفترة حيث يقرر الخالق لنفسه بناء على صلاة الآلهة الدنيا، تنظيم الكون. «عندئذ يبتسم الرب ويقول للطبيعة أن توجد، وبخروجها من صوته تتقدم الأنوثة في أبهى جمالها. وبافتتان تتأمل الآلهة هذه الروعة، ويريق الجد الأكبر الشراب على الطبيعة، ويأمرها بالاخصاب، ثم، خارقاً كل شيء بنظراته، يقول: «لتكن السماء كمال كل الأشياء، والهواء والأثير» وبقوله «يحصل هذا».

هذه الجملة الأخيرة تبدو ذكرى مبهمة من التوراة؛ ومع ذلك يصعب أن نجد في مجمل الكتاب تأثيراً يهودياً. ويتعرض المؤلف إلى مسائل عديدة تأخذ مكاناً هاماً في التيولوجيا المسيحية، والحلول التي يعطيها مختلفة جداً عن الحلول المسيحية؛ إنه يصف خلق الأرواح، التي لاتقول التوراة عنها شيئاً وقد وصفها بدقة، كعملية كيميائية، فالخطاب الذي يوجهه الإله لها بعد أن خلقها يُذَكِّر بكلمة الإله الأعلى إلى الآلهة الأدنى في **طيماوس أفلاطون**: «أيتها الأرواح، أطفال نفختي وعنايتي الجميله، أنتم الذين صنعتكم بيديَّ لِأَخَصُّكم بعالمي، أصغوا إلى كلماتي كقوانين، ولاتبتعدوا عن المكان الذي حددت لكم بإرادتي. إن الإرادة التي تنتظركم هي في السماء مع موكبها من النجوم وعروشها، الملأى بالفضيلة. فإذا حاولتم ابتكاراً ما ضد أوامري، فاني أقسم بِنَفَثي المقدس، بهذا المزيج الذي تكونت فيه الأرواح، وبيدي المبدعتين، بألاّ أتأخر عن خلق القيود لكم والعقاب».

وبالتالي فإن الله يشرك الأرواح في عمل الخليقة؛ ويدعوها لأن

تشكل الحيوانات معطياً لها نموذجاً هو إشارات فلك البروج والحيوانات السماوية الأخرى. وتحيد الأرواح المتباهية بعملها عن الحدود المقررة، وكعقاب على عصيانها تدان بأن تسكن في البدن. هنا لايوجد مثيل في مذهب الخطيئة الأصلية، فسقوط الأرواح نتيجة لغلط خاص بها، وليس إرثاً عن جد مشترك. وسيكون هذا بالأحرى مشابهاً بعض الشيء لمذهب سقوط الأرواح كما عرضت في مؤلفات الأفلاطونيين وبخاصة في كهف الحوريات لبورفير، مع هذا الفارق، وهو أنه بالنسبة للاغريق يكون التجسيد عملاً متكاملاً بحرية: فالروح، منجذبة بالرغبة، تنزل بإرادتها في محيط الحياة. وهذا المذهب لم يكن خاصاً بالأفلاطونيين؛ فقد وجد في قصيدة **امبدوكل**، وفي كتابات أخرى للمدرسة الفيثاغورية. وغالباً مايردها المؤلفون الذين تحدثوا بذلك إلى التلقينات الصوفية: فمن الصعب إذن قول هذا إن توجب تكريم الفلسفة أو الديانة؛ وكذلك قلّما أُمكن التعرف من أي نبع امتاح مؤلف الكتاب المقدس.

في تعليق ماكروب على حلم سيبيون، يُظْهِر لنا الأرواح هابطة من السماء بدرجات متتالية وهي تتلقى في كل واحدة من الأفلاك السبعة قدرة خاصة. كذلك يعرض مؤلف الكتاب المقدس، تأثير الآلهة الكوكبية على الحياة البشرية، إنما بطريقة أكثر غموضاً. وهو يصف بالتالي قنوط الأرواح بعد إدانتها: «كانت الأرواح تمضي لتسجن في الأجساد؛ بعضها كان يتأوه ويندب: هكذا شأن الحيوانات المتوحشة والحرة حين تُقيد، في فترة تحمُّل العبودية القاسية ومغادرة عادات الصحراء الأثيرة، إنها تقاوم وتتمرد وترفض اتباع الذين أخضعوها، وتقتلهم إذا تيسرت لها الفرصة، وغالبيتها تصفر كالأفاعي؛ وبعضها الآخر يطلق صراخات حادة وكلمات من الألم، وتنظر بلا تبصُّرٍ من فوق ومن تحت قائلة:

«أيتها السماء الكبيرة، مبدأ ولادتنا، أيها الأثير، أيها الهواء النقي، ويا أيدي ونفحة الله العلي، وأنت أيتها النجوم المتلألئة، ويا نظرات الآلهة ونور الشمس والقمر الذي لايتعب، أسرتنا الأولى، أي تمزق وأي ألم... على مغادرة هذه الأنوار الكبرى، وهذا الفلك المقدس، وكل روائع القطب وجمهورية الآلهة السعيدة، لنكون مطروحين في هذه الأماكن الخسيسة والتعسة لإقامتنا». وهي تتضرع للخالق «الذي سرعان ماأصبح لا مبالياً عن أعماله» ليوجه إليها بعض الكلمات الأخيرة طالما لاتزال تستطيع فيه رؤية مجمل العالم المنير.

فيستجيب الله لهذه الصلاة الأخيرة ويريهم طريق العودة بسلسلة من التطهير عبر وجودات متتالية. وفي نظرية التقمص هذه، تختلط الروحانية الإغريقية بطريقة شاذة بالمذهب الطبيعي المصري. ويبدو أن المؤلف يضع الناس والحيوانات على خط واحد؛ اذ في كلا الجهتين توجد أرواح مستقيمة عادلة ومن طبيعة إلهية، تحيا، بين البشر الملوك والكهنة والفلاسفة والأطباء؛ وبين الطيور، العقبان، وبين ذوات الأرجل الأربعة، الأسود، وبين الزواحف التنانين، وبين الأسماك الحيتان. وترجع **ايزيس**، في مقطع آخر، إلى انتقال الأرواح وتتحدث عن أناس وحيوانات تتجاوز القوانين بطبعها، دون أن تقيم بين النوعين تمييزاً قاطعاً. وهنا يعترف بأعراف ذهنية ليست من اليونان في شيء، ومع أن المؤلف لايتحدث عن عبادة الحيوانات، يلاحظ أن وجوب وجودها طبيعي جداً.

— لقد صنع هرمس الأبدان مع بقايا الخليطة التي كان استخدمها لاعداد الأرواح، وقد وُصِفَتْ هذه العملية الكيميائية الجديدة كالأولى. وبينما هرمس يُتِمّ عمله، عرض **مومس** الذي وجه إليه اعتراضات وناقشه في أن يضع مقدماً حدوداً لتهورات البشر مستقبلاً بخلط الحياة ببعض عناصر الاضطراب والألم: «أيها المولّد هل تظن من الخير أن يكون متحرراً من الهموم، ذلك المكتشف لجماليات أسرار الطبيعة؟

أتريد أن تتركه معفي من الآلام، وهو الذي سوف يدرك فكره أقطار الأرض؟؟ إن البشر سوف ينتزعون جذور النباتات، وسوف يدرسون خصائص الانساغ الطبيعية وسوف يراقبون طبيعة الحجارة، وسوف يشرّحون ليس الحيوانات فحسب، وإنما ذاتهم يريدون بذلك معرفة كيف كانوا قد تشكلوا. سوف يتطاولون بأيديهم الجسورة حتى على البحر، ويقطعون أخشاب الغابات الطبيعية، وسوف يعبرون من شاطئ إلى شاطيء مقابل كي يبحث بعضهم عن البعض الآخر. سوف يتابعون الأسرار الصحيحة للطبيعة حتى في الأعالي، وسوف يودون دراسة حركات السماء. ولن يكتفوا بهذا؛ فلن يبقى لِيُعْرف بعد سوى النقطة القصوى للأرض: فلسوف يودون البحث فيها عن النهاية الأخيرة لليل. فإذا لم يلاقوا صعوبة، وإذا عاشوا خالين من الألم، وبمنجاة عن كل قلق وخوف، فإن السماء نفسها لن توقف جرأتهم وسوف يودون مد سلطتهم على العناصر».

ويستخدم مومـوس هرمس ليعطي إلى البشر الرغبة والأمل العابث، والقلق واللدغة المؤلمة للانتظار المخدوع، وليحثهم على المحبات المتبادلة والرغبات المتحقّقة تارة والمحبطة تارة أخرى «بهدف أن تكون حلاوة النجاح ذاته طعماً يجذبهم أكثر إلى الآلام الكبرى». تقاطع إيزيس وتضيف: «أتتألم يا حورس، وأنت تصغي إلى قصة والدتك؟ أيأخذ العجب والخدر تجاه الآلام التي تعتصر البشرية الفقيرة؟ ماسوف تسمعه هو أيضاً أكثر تعاسة. لقد سر هرمس من كلمات موموس؛ ووجد أن الرأي كان حكيماً واتبعه». ويصف المؤلف بطريقة لغزية كل ما تخيله هرمس ليفرض على الحياة البشرية قانون الضرورة القاسي.

ليست شخصية موموس هذه بدون تشابه مع شيطان سفر **أيوب**، لكن هذه المشابهة لايمكن أن تُعّد تقليداً. فلهجة المرارة التي يتحدث بها المؤلف عن الحضارة البشرية تعيد التفكير بكتاب **اينوش**، الذي يقدم

الفنون والعلوم كأعمال شريرة علمتها الملائكة إلى العمالقة المتولدين من قرانهم ببنات البشر. هذه العلوم اللعينة التي يخلطها اينوش مع السحر، تؤدي إلى إدانة الملائكة ودمار العمالقة بالطوفان» كانت كراهية الحضارة عند اليهود تستوجب حصولها بمزيد من العنف، وذلك بسبب الرعب الذي أوحت لهم به الشعوب الكبرى المتحضرة التي هددت وجودهم. ومع ذلك نجدها، ولو تحت أشكال مخفضة، وفي تقاليد دينية أخرى، مثلاً، في أسطورة باندورا وفي عذاب بروميثيوس. فالحضارة هي صراع الإنسان ضد الآلهة، أي ضد قوى الطبيعة، وكما أن خيراتها مصحوبة بآلام لا محيص عنها وبعيوب مجهولة للقبائل الرعوية، يكون طبيعياً النظر إلى اختراع الفنون كجسارة كافرة.

وفي كل الميثولوجيات يوجد سقوط الإنسان وسقوط الملائكة أو التيتان وصراع العمالقة الآلهة؛ بيد أن هذه الرموز تارة ماتمثل تحت مظهر فيزيائي، الذي هو بدون شك شكلها البدائي، وتارة تأخذ صفة أخلاقية وإنسانية حصراً. ففي الكتاب المقدس، تستسلم الأرواح الساخطة من تجسدها، لكل أنواع التجاوزات. والبشر الذين لايستطيعون شيئاً ضد الآلهة يمزق بعضهم البعض الآخر، كأبناء الأرض المتولدين من أسنان التنين والبشر من عرق البرونز في الميثولوجيا اليونانية. فالعناصر، الملطخة بالدم المنتشر وبرائحة القتل تشكو إلى الله جرائم البشر. والنار مدانة بإحراق اللحوم، وكفر البشر يلطخ طهارتهم؛ والهواء مفسد بفوحان الجثث ويصبح وبائياً وملوثاً: «يقول الماء: أيها الأب الخالق العجيب لكل الأشياء، إن شيطاناً غير مخلوق، أمر أن تكون مياه الأنهر نقية دائماً، لأنني اليوم أغسل الموتى وأتلقى الضحايا».

وتقول الأرض: «أيها الملك، رئيس الجوقات السماوية وسيد الأفلاك، معلم وأبو العناصر التي تصنع كل مايكبر وكل مايتناقص، والذي يعود إليه من جديد كل شيء؛ إن الجمهور الكافر وعديم

الإحساس من البشر يغطيني، أيها الجليل! بما أنني، بناء على أوامرك مقر كل الكائنات، فاني أحملها كلها، وبسبب خجلي فاني أتلقى في ذاتي كل ماقتل». وتتضرَّع العناصر إلى الله ليرسل على الأرض فوحاناً من ذاته كي يصلح الشر ويجدد الإنسانية.

كذلك يظهر لنا كتاب **اينوش** صخب الأرض، المغرقة بالدم، صاعداً حتى باب السماء مع أنين الموتى. بيد أنه في الكتاب المقدس، بدلاً من تدمير العنصر البشري، يرسل الله منقذاً، أوزيريس الذي يأتي بالسلام على الأرض معلماً البشرية مبادئ الديانة وقوانين الأخلاق. هذا التجديد الذي يقوم به أوزيريس ليس خلاصاً حقيقياً، طالما لايوجد، كما في المسيحية، فكرة تضحية الإله من أجل خلاص البشر، وبالأحرى يمكن مقارنته بالعمل المكتمل في الهند من قبل بوذا، وفي اليونان من قبل هيراقليس وديونيزوس.

تلك هي في جوهرها أول قطعة من هذا الكتاب الغريب، وكل هذا مزروع بأسماء ميثولوجية أفسد النُسَّاخ كثيراً منها. وقد قمنا بمحاولة اصلاحها وشرحها، لكنني أخشى من أني لم أعط في هذه المحاولات الاصلاحية كثيراً من المجال للفرضية. وعلى ذمة أحد النصوص المشبوهة وذات إصلاح تحكمي، قُبِلَت في مجمع الآلهة المصري الربة **هيفيستوبولية** المجهولة تماماً سابقاً. ولايبدو لنا هرمس سلطة من ميثولوجيا مصرية فعلاً؛ وبعبارة أخرى سوف ينبغي قبول أن **ارنيباسكينز** إلهة الفلسفة، والاستعارة الباردة للاختراع، ابنة الطبيعة والعمل. إني أشك في أن يكون المصريون القدامى قد عرفوا مطلقاً هذه الآلهة. أما فيما يخص تاريخ الكتاب المقدس، فلا أجد أية علاقة تسمح باعتماده. إنه يعود إلى تلك الفترة من التجديد الديني الناجم عن الفلسفة الاغريقية والمذاهب الشرقية والمصرية؛ ولكن هذه الحركة دامت عدة قرون، وقليل جداً عدد ما وصلنا من المؤلفات التي بموجبها ميزت

خطها. ولتصنيف الكتاب المقدس، تتوجب مصطلحات ومقارنة غير موجودة لدينا.

مع ذلك، فإن الكتاب المقدس بما هو عليه يمثل الفلسفة الاغريقية المصرية كما يمثل فيلون الفلسفة الاغريقية ـ اليهودية. فرغم اللغة المفخمة المنمقة للمؤلف، نتيجة تربيته الاغريقية، هنالك علامات مؤكدة تجعله معترفاً به بالنسبة للمصريين. اذن يسأل حورس والدته، عن سبب عُلُو المصريين فوق البشر الآخرين وترد عليه ايزيس مقارنة الأرض المسكونة برجل نائم، رأسه إلى الجنوب وأرجله إلى الشمال: فمصر تمثل الصدر والقلب مقر الروح. وماقالته ايزيس من جهة أخرى عن الأرواح الملكية يشير كذلك إلى مصر. صحيح أنه يوجد هنا وهنالك، عند الفلاسفة الاغريق ميول ملكية: فأفلاطون يرسم كذلك في كتابه السياسة صورة وهمية للملكية؛ لكن مع أن الفلاسفة سعوا ضد مبادئ المساواة التي تشكل أساس الأخلاق الاجتماعية للاغريق، فقد خضعوا لتأثيرها أيضاً؛ فحلموا بملك على شاكلتهم، لكن ثقافتهم الجمهورية تقيهم من عبادة الملكية كتلك التي عند البرابرة، حيث ليس ثمة شعور بالكرامة الإنسانية. فلا يوجد مواطن **لديموستين** لم يكن قد تمرد على الأشكال التي مارسها التملق في مصر نحو الملوك. وقد أعطت مصر مثالاً لهذه التأليهات الوضيعة للأمراء الذين أساؤوا لغاية العالم القديم. ويمكن إذن رؤية سمة بخاصية مصرية في مقطع من الكتاب المقدس حيث يمثل الملوك كآلهة حقيقيين على الأرض وأرواحهم، حسب المؤلف، هي من نوع آخر غير نوع أرواح الناس الآخرين.

توجد نَشْكَوْنية هرمسية أخرى، لكنها أقصر بكثير، تحمل عنوان الخطاب المقدس. ويجعلنا عنوان هذا الخطاب نعتقد، أنه مرتبط بالكتاب المقدس، لكن أسلوبه شيء آخر كلياً، فلا يوجد شيء اغريقي في الخطاب المقدس، وحتى أنه غير صحيح، وقد يكون هذا ترجمة له.

ونقرأ فيه هذه الجملة التي توجد بالشكل ذاته التي هي عليه في البوامندريس: «ينمو في التنامي ويتعدد في التعدد». وتذكرنا اللهجة العامة بالأشكال العبرانية. لكن مجمل أفكار هذه القطعة هي بالأحرى مصرية أكثر مما هي يهودية. فآلهة الكواكب تتدخل في الخلق؛ وحتى أن عملها أكثر مباشرة من عمل الله الأعلى، الذي ليس له سوى صفة مجردة وغير مشخصة. ويقول لنا كلٌّ من **بلوتارك وآلين** أن الظلمات تسبق النور في النشكونية المصرية؛ وهنا نجد من جديد الفكرة نفسها: «كان ثمة ظلمات لا حد لها على اليم، والماء ونفخة حاذقة وذكية متضمنة في السديم بالقوة الإلهية. وعندئذ انبثق النور المقدس جداً، وتحت رمل العناصر خرج الجوهر الرطب، وقامت جميع الآلهة بتنظيم خصب الطبيعة». هذا المقطع يجعلنا نفكر ببداية التكوين وبالظلمات المغطية لوجه اليم (الهاوية)، وبنفخة الرب المحوِّمة فوق المياه؛ لكن نجد فيه أيضاً أكثر مشابهة مع النَّشْكَوْنِيّة المصرية؛ التي بحسب داماكيوس، كانت تقبل الظلمات كمبادئ أولية، والماء والرمل. وأخيراً، فإن تأثير الكواكب على المصير البشري قد دل عليه بوضوح بموجب هذه الكلمات: «حياتهم وحكمتهم نظمت في الأصل بسير الآلهة الدائري وانحلَّت فيه إثر ذلك».

يمكن أيضاً إيجاد سمات الأفكار المصرية في خطاب التلقين المعين بصورة عامة تحت اسم اسكليبيوس. هذا الكتاب، الذي لم تعد توجد له سوى ترجمة لاتينية منسوبة خطأ إلى أبوليه، ويتصل، بالأفكار كما بالشكل، بفلسفة الاسكندرية، وليس لها شيء من اللهجة الكهنوتية للكتاب المقدس والخطاب المقدس. ففي مقطع مثير جداً، يعلن هرمس تحت شكل نبوءة عن انتصار المسيحية وكفر مصر والاضطهاد الممارس ضد آخر المؤمنين بالديانة القومية. هذه القطعة التي يرتفع فيها المؤلف إلى فصاحة حقيقية، هي احتجاج رسمي ومؤلم للوثنية التي تلفظ أنفاسها ضد المصير المحتوم:

«في غضون ذلك، وكما يتوجب على الحكماء أن يتبصروا تماماً، هنالك شيء يجب أن تعلموه: سوف يأتي زمن حيث سيظهر أن المصريين قد راعوا عبثاً عبادة الآلهة بقدر من التقوى وأن كل صلواتهم المقدسة كانت عقيمة وغير مستجابة، وسوف تترك الألوهة الأرض وتعاود صعودها إلى السماء متخلية عن مصر، مقرها القديم وتتركها محرومة من الديانة، وبخاصة من وجود الآلهة. وأن غرباء يملؤون البلاد والأرض، ولن تهمل الأشياء المقدسة فحسب، بل ماهو أقسى أيضاً، الديانة، والتقوى، وستكون عبادة الآلهة محرمة ومعاقباً عليها بموجب القوانين. وعندئذ ستكون هذه الأرض المقدسة بالعديد من الكنائس والمعابد، مغطاة بقبور الموتى. آه يامصر، يا مصر! لن يبقى من ديانتك سوى قصص غامضة، لن تؤمن بها ذريتك، كلمات منقوشة على الحجر تحكي عن ورعك. سوف يسكن مصر، السيخ والهنود، أو بعض الجوار البرابرة. وسيعاود الإلهي صعوده إلى السماء، وسوف تموت البشرية المتروكة برمتها، وستكون مصر مقفرة وأرملة من الرجال والآلهة.

«أتوجه إليك أيها النهر المقدس جداً، وأعلمك بالمصير، إن فيضانات من الدم، المنجسة لضفافك الإلهية سوف تطفو على شطآنك، وسوف يتجاوز عدد الأموات عدد الأحياء، وإذا بقي بعض السكان، مصريون بلسانهم فقط، فسوف يصبحون غرباء بعاداتهم. أتبكي يا اسكليبوس؟ ستكون هنالك أشياء أكثر أسى أيضاً: فمصر ذاتها سوف تسقط في الكفر، أسوأ الشرور. كانت، في وقت آخر الأرض المقدسة، المحبوبة من الآلهة لتفانيها في عبادتها، وستكون مفسدة القديسين، وسوف تصبح مدرسة التدين هذه نموذجاً لكل أنواع العنف.

«عندئذ لن يكون للإنسان المفعم بالقرف من الأشياء، لن يكون له بالنسبة للعالم لا إعجاب ولا حب. وسوف يتحول عن هذا العمل الكامل، الأفضل مايكون في الحاضر كما في الماضي والمستقبل ففي

سأم الأرواح وتعبها لايعود يوجد إلا الازدراء بالنسبة إلى هذا العالم الواسع، وهذا العمل الثابت للإله، وهذا الإنشاء الفخم والكامل طاقم متعدد الأشكال والصور، حيث الإرادة الإلهية، تغدق العجائب، وقد ضمت الجميع في مشهد وحيد، وفي تركيب منسق جدير دائماً بالتبجيل وبالإطراء والحب. فبتفضيل الظلمات على النور، سوف يكون الموت أفضل من الحياة، ولن يرى السماء أحد. وسوف يعتبر الإنسان المتدين مجنوناً، والكافر عاقلاً، والخانقون شجعاناً، والأسوأ هو الأفضل. الروح وكل المسائل التي ترتبط بها ـ هل ولدت قابلة للفناء أو اكتساب الخلود، ـ كل ماعرضته هنا لايستدعي سوى الضحك ولايرى فيه سوى الغرور.

«صدقوني، إنه سيكون خطر الموت حتى على من سيحافظ على ديانة العقل. سوف تعتمد قوانين جديدة، شريعة جديدة؛ فلا كلمة ولا اعتقاد مقدس **وتَديُّن** خليق بالسماء والأشياء السماوية. طلاق للآلهة والبشر يرثى له!. لم يعد يبقى سوى الملائكة الشريرة؛ إنها تختلط بالإنسانية التعيسة ويدهم عليها؛ ويدفعونها إلى كل التهورات السيئة، وللحروب ولا عمال النهب، وللكذب ولكل ماهو نقيض طبيعة الأرواح. فلن يعود للأرض توازن، والبحر لايعود صالحاً للملاحة، وسوف يضطرب سريان الكواكب المنتظم في السماء. وسيكون كل صوت إلهي محكوماً عليه بالصمت، وسوف تفسد ثمار الأرض وتتوقف عن أن تكون خصبة، حتى الهواء نفسه سوف يتخدر في خمود مفجع. تلك ماسوف تكونه شيخوخة العالم، لاتدين وفوضى، واختلاط كل قاعدة وكل خير».

إن لهذا المقطع مدلوله؛ وهذا الكتاب، الذي يرسم تحت ألوان فاقعة غم النفوس المثقفة أمام السقوط المحتوم للحضارة القديمة، ينبغي أن يكون قد أُلِّف في عهد امبراطور مسيحي، وبما أن لاكتانس، الذي كان

يعيش في عهد قسطنطين، يذكر مراراً خطاب التلقين، فإنه ينبغي الاستنتاج أن هذا العمل قد كتب أثناء حكم هذا الإمبراطور. ويمكن التساؤل كيف استطاع لاكتانس أن يأخذ مأخذ الجد القول بأصولية كتاب يتضمن إشارات واضحة إلى وقائع معاصرة، بيد أنه من المعلوم أن المؤلفين الكنسيين لهذا العصر لم يتمتعوا قط بالحس النقدي. فلاكتانس يذكر في كل لحظة عن عرافات سيبيلين المزعومات حيث تفضح نفسها في كل الصفحات يد مزور، ويتصور لنفسه أنه يحارب الوثنية بأسلحتها الخاصة. فكتب الهرمسية هي في نظره سلطة قديمة محترمة جداً. والكتاب الذي غالباً مايثيره هو بدقة خطاب التلقين، دون التبصر بأنه كان قد أُلِّف في زمنه.

وإذا كان يمكن النظر للمقطع الذي أتينا على ذكره كعمل مدسوس تال، فلا شيء يحدد تاريخ المُؤلَّف. غير أنه من السهل اثبات أن لاكتانس كان لديه فعلاً هذا المقطع تحت نظره، وهو فقط لم يفهمه. فهرمس كان في نظره نبياً حقيقياً اكتشف، دون أن نعرف كيف، كل الحقيقة تقريباً. وفي إشارات المؤلف الواضحة إلى سقوط الوثنية، لم ير سوى لوحة عن نهاية العالم، وقد استعار منها الخيوط الأساسية، وذكر[٤٤] السطور التي ترد مباشرة بعدها والتي يعلن فيها هرمس عن تجديد عام متوقع من الوثنيين كما هو متوقع من المسيحيين. ويرجع لاكتانس في آخر مؤلفه إلى تلك الكارثة الكبرى مستعملاً صوراً مأخوذة حرفياً في خطاب التلقين، ويقول «سوف يكون زمن حقير وملعون لايكون العيش فيه حسناً. سوف تتردّى الأشياء فيه لدرجة أنه سوف ينتحب على الأحياء وسوف يبتهج على الموتى. سوف تتلف المدن والحواضر إما بالحديد أو بالنار وإما بزلازل مألوفة للأرض

(٤٤) لاكتانس، إلهي، الفصل السابع، الجزء الثامن عشر.

وبالطوفان، وإما بالطاعون أو المجاعة، وستصبح الأرض جدباء بازدياد البرد أو الحرارة، وسوف تتوقف عن الإنتاج؛ وسوف تتحول المياه إلى دماء... السنة، والشهر واليوم كلها سوف تختصر، وسيكون هنالك، الهرم ونهاية العالم[٤٥]، ذلك مايقوله مثلث العظمة».

بدون عناء تُعرف عبارات هرمس، عندما تحرف أحياناً عن معناها الحقيقي: «سيبدو الموت أفضل من الحياة» - «النهر المقدس جداً سوف يصبح سيلاً من الدم!» - «الأرض ستتوقف عن الإنتاج» - «هكذا ستكون شيخوخة العالم» الخ... من جانب آخر فإن لاكتانس، في مقارنته نهاية العالم بمصائب مصر في عهد موسى، يقول إن مصر سوف تعاقب أولاً لأضاليلها الطائشة وسوف يغرقها الدم كنهر[٤٦]. وهذا هو النقيض للمقطع الذي يتحدث فيه هرمس عن الآلام التي سوف تعاقب مصر لأنها تخلت عن ديانتها. وأخيراً، يقول لاكتانس في قسم آخر من كتابه[٤٧]، وهو يتحدث عن الشياطين: «أسماها المثلث العظمة، الملائكة السيئة» وعلى ذلك، لاتوجد هذه العبارة إلّا مرة واحدة، في الكتابات التي بقيت لنا من هرمس، وذلك بدقة في المقطع المشار إليه. وتثبت كل هذه الحجج بوضوح أن هذا المقطع لم يدرس. وإن خطاب التلقين وصل إلينا كما كان عليه في زمن لاكتانس، وأنه لايمكن أن يكون قد كتب إلا في عهد حكم قسطنطين.

لم يحصل اضطهاد الوثنية الكبير إلا في عهد خلفاء قسطنطين، وفي الواقع تجب الملاحظة أن هرمس لم يتحدث بدقة عن اضطهاد دموي. إنه يشكو فقط من فعالية الالحاد ومن الإهمال الذي سقط فيه

---

(٤٥) لاكتانس، موجز، س.

(٤٦) لاكتانس، إلهي، الفصل السابع الجزء الخامس عشر.

(٤٧) المرجع السابق ذكره، الفصل الثاني الجزء الخامس عشر.

الدين، ومن القبور التي تحل محل المعابد إشارة إلى عبادة القديسين(٤٨). ويضيف، بما أنه كان يُعبر عن مخاوفه من تعاسة محتملة وعاجلة، فإن الوفاء للآلهة سيصبح خطر الموت. ولو أنه كان قد كتب في عهد **تيودوس** أو حتى عهد قسطنطين، فإن عباراته كان ينبغي أن تكون أكثر دقة، وعلى الأرجح ماكان الكتاب سيصل إلينا. وفي عهد أول امبراطور مسيحي، استطاع، على النقيض، بالحفاظ على لهجة النبوءة، أن يعلن عن مصائب وشيكة في مواعيد غامضة وعامة اعتقد فقهاء الكنيسة ومن بعدهم المثقفون من عصر النهضة، أن المقصود بها الكارثة النهائية المعلن عنها في الإنجيل.

إن فكرة الدمار وتجديد العالم، التي غالباً ماتعاود ظهورها في كتب سيبيلّين وفي مؤلفات المسيحيين وبخاصة المسيحيين الألفيين(*) (ألف سنة) مثل لاكتانس، توجد أيضاً في الفلسفة الرواقية وفي الديانة المصرية. ولم يكن يتوجب على مصري متعلق بديانته القومية أن يجد صعوبة في تزامن المجيء الرسمي للمسيحية مع نهاية حقبة ميثولوجية كبرى أو نجومية ـ فكاتب خطاب التلقين، الذين يعتقد بهذه الكارثة، يجب أن يكون مصرياً. إنه يتأوه من إلحاد مصر، ولايتكلم عن شعوب أخرى. فمصر هي الأرض المقدسة «معبد العالم، صورة السماء،

---

(٤٨) كانت اتهامات الملحدين تطال حتى المسيحيين لعبادتهم رجل ميت والمسيحيون بدورهم، استناداً الى نظام ايفيمير كانوا يوجهون إليهم التهم ذاتها. بهذه المناسبة يمكننا أن نقارن جوليان وفيسيوس فيليكس. وفي أزمنة الصراع يتبادل الفريقان الاتهامات ذاتها.

(*) المسيحيون الألفيّون: عدد من الشيع المسيحية تعتقد أن عودة السيد المسيح القريبة ستكون بداية عهد من السعادة يستمر ألف عام. وقبل تحقيق هذه العودة يتوقعون حصول كوارث كونية هائلة كعلامات على دنو نهاية العالم. وهو اعتقاد ناجم عن تفسير خاطئ لرؤيا يوحنا، لاسيما لجهة فهم الأعداد التي تقوم بدور كبير في هذه المذاهب. ويستغل اليهود هذه الطوائف لأغراضهم الخاصة ولهذا تصدت الكنائس الأساسية لهذه المزاعم والأضاليل.

الانعكاس الأرضي لكل انتظام الأشياء السماوية». فعندما سوف يتجدد العالم، سوف يقيم في مصر أولئك الذين يجب أن يحكموها. وفي موضع آخر يعيد تذكير اسكليبيوس بأن جده، مخترع الطب، كان يتعبد قرب شاطئ التماسيح، في المكان الذي دفن فيه جسده، ويضيف: «جدي هرمس أعطى اسمه لوطنه». صحيح أن هذه الأسماء اغريقية، وأن ذكراها المثيولوجية ماثلة تحت شكل تجسيد الآلهة لكن ينبغي التذكير أن الاختلاط في ذلك العصر كان مقبولاً بصورة شاملة بين الآلهة اليونانية والآلهة المصرية. ومن جانب آخر هنالك مسألة ايزيس وأوزيريس، الآلهة المصرية الخالصة، وما هو أكثر أهمية من ذلك أيضاً، العبادة التي كان يقدمها المصريون للحيوانات. وقد أشرنا في مكان آخر إلى إله تسميه الترجمة اللاتينية جوبيتر بلوتونيوس، والذي هو على الأرجح سارابيس، إله الاسكندرية الأكبر// ويمكن الإشارة أيضاً إلى معتقدات مصرية تتحدث عن ستة وثلاثين برجاً وعن Pantomorphe. انها بدون شك بقايا ديانة عفى عليها الزمن، سبق أن كان لها مكانها في العالم!! لكن قلما نجد أثراً للميثولوجيا الهيللينية في هذه الفلسفة الاغريقية أو تلك، أرسطو مثلاً.

لعلّ خطاب التلقين الكتاب الوحيد من العصور القديمة الذي يحتوي ليس فقط حجة، وإنما نظرية شكلية ومعلنة عن عبادة الصور. وحتى هنا كان الفلاسفة قد عدّوا العبادة الوثنية نتيجة خطرة لسوء استعمال اللغة. ويقول بلوتارك «إن الذين لايعرفون المعنى الحقيقي للكلمات، يصلون إلى الخطأ حول الأشياء، وهكذا فإن الاغريق، بدلاً من أن يسموا التماثيل من البرونز أو الحجارة، أو الصور تماثيل لتكريم الآلهة، اعتادوا على تسميتها آلهة، وبالتالي لم يخشوا من القول إن لاشاريس قد سلخ أثينا، وإن دينيس قد نزع شعر **أبولون** الذهبي، وأن **جوبيتر كاتبولين** كان أحرق في الحرب الأهلية. تلك هي الأخطاء التي

تجر على أثرها عبارات شائنة[٤٩]». ويسوّغ مكسيم الصوري عبادة الصور ويفسرها بضعف طبيعتنا، التي هي بحاجة لربط الفكر بعلامة مادية. «فأولئك الذين ذاكرتهم قوية صلبة والذين ليس لهم إلا أن يرفعوا بصرهم للسماء ليشعروا بحضور الآلهة ليسوا بحاجة إلى الأصنام؛ لكن هؤلاء نادرون جداً، ولايكاد يوجد رجل في جماعة عديدة يستطيع تذكر الفكرة الالهية لنفسه دون أن يكون بحاجة لمثل هذا العون[٥٠]».

إن عبادة الصور كانت النص الأكثر اعتياداً للانتقادات الموجهة إلى الأغريق من جانب اليهود والمسيحيين؛ وفيما بعد حمل البروتستانت نفس الاتهامات لعبادة الأصنام ضد الكاثوليك. وفي صراع الطرفين، يكون البحث عن إقناع خصومهم أقل مما هو لإفحامهم، وفي إرادة إفحامهم يثارون. وعندئذ يستخفون بالإجابة عن الاتهامات، ويقبلونها ويزدهون بالشتائم التي تطلق عليهم. وهكذا فإن صعاليك هولندا واللامتسرولين [لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣] قد افتخروا بالألقاب التي أعطاها لهم خصومهم بازدراء. والشيء نفسه حصل للوثنيين المتهمين بعبادة الأصنام فقد قبلوا التهمة، واعتبروا من المشرف لهم أن يستحقوها، وشيدوا عبادة الصور في نظام مدروس. ويعلن هرمس لتلميذه أن أجمل مزيّة للإنسان هي في قدرته على ابتكار آلهته: «فكما أن الأب والملك صنع الآلهة الأزلية مشابهة له بذاته، كذلك صنعت البشرية آلهتها على شاكلتها الخاصة وسأله: أتريد قول هذا عن التماثيل أيها المثلث العظمة؟ ـ أجاب: نعم التماثيل يا اسكليبيوس؛ انظر كم ينقصك من الإيمان! إن التماثيل الحية ملأى بالعاطفة والإلهام، التي تصنع الكثير وأشياء كبيرة ملأى بالتماثيل

(٤٩) بلوتارك، ايزيس وأوزيريس.

(٥٠) من كتاب حكمة من صور، الفصل الثامن والثلاثون.

النبوية، التي تتنبأ بالمصير عن طريق الرؤى والطرق الأخرى من كل الأنواع، التي تصيبنا بالأمراض أو تشفي آلامنا حسبما نستحق[٥١]».

إنه أيضاً ليس سوى اعلان مبادئ: إذ أنه يعود حالاً إلى الفكرة نفسها ليشرحها بوضوح ويطرح نظرية عبادة الصور: «إن أجدادنا وجدوا الفن من صنع الآلهة، وبعد أن وجدوه، خلطوه بفضيلة مناسبة، مستخلصة من طبيعة العالم. وبما أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يخلقوا أرواحاً، استدعوا أرواح الشياطين أو الملائكة، وثبتوها في الصور المقدسة والأسرار الإلهية، معطين بذلك الأصنام القوة في فعل الخير أو الشر[٥٢]». هذه المعتقدات كانت شائعة لدى الوثنيين والمسيحيين؛ لكن الأولين كانوا يقرون ويثبتون ما كان يدينه الآخرون، عبادة الشياطين التي كانت تسكن التماثيل. كان المسيحيون يصرون على أن هذه الشياطين كانت قوى شريرة؛ وكان الوثنيون يقرون أن عملها كان سيئاً أحياناً وأنها كانت بواعث للأهواء والخطأ.//وكان هذا الامتياز يجعل انتصار خصومهم سهلاً جداً؛ فلما لايحتفظ الإنسان بعبادته وصلواته من أجل هذا الإله الأعلى الذي يعترف به الجميع كذلك؟//كانت ماتزال هناك بعض الحسرات التقية من أجل هذا الماضي الجميل الذي كانت ذكراه توشك على المغيب؛ فبعض الوفاء المستمر كان يستدير نحو الشمس الغاربة لكن البشرية لاتملك هذه الأحزان. إنها تمشي أمامها، دون أن تعرف ما إذا كان ذلك نحو الليل أم نحو النهار، ساحقة بدون رحمة المدافعين المتخلفين عن الأسباب المغلوبة وتاركة الأموات يدفنون موتاهم.

إن الكتب الهرمسية هي آخر آثار الوثنية. إنها تنتمي في آن واحد إلى الفلسفة الاغريقية وإلى الديانة المصرية، وبالتصعيد الصوفي تلامس

---

(٥١) هرمس، الفصل الثاني من كتاب خطاب تدريبي، الجزء التاسع.
(٥٢) هرمس، الفصل الثاني من كتاب خطاب تدريبي، الجزء الحادي عشر.

القرون الوسطى. إنها تمثل جيداً الرأي العام لسكان الاسكندرية المختلطين، مجرورة بدون انقطاع في اتجاهات نقيضة بديانات من كل نوع، ومشكلة خليطاً مشوشاً من المذاهب المتنافرة. فبين عالم ينتهي وعالم يبدأ، تشبه تلك الكائنات ذي الطبيعة الملتبسة التي تستخدم معبراً بين طبقات الحياة المنظمة: فالمريجات - نوع من الحيوانات - النباتية والضفدعيات، نصف زواحف - نصف أسماك والخفاشيات ليست بالطيور ولا الثديات. هذه المخلوقات المختلطة هي دائماً فوق كل واحدة من المجموعات التي تربط إحداها بالأخرى. وفي تاريخ الأفكار كما في التاريخ الطبيعي، يوجد ليس أصناف خطية وإنما سلالم متباعدة تتجمع بوساطة درجاتها الدنيا.

إن كتب هرمس المثلث العظمة لايمكن أن تدعم المقارنة لا مع ديانة هوميروس ولا مع الديانة المسيحية، ولكنها تجعلنا نفهم كيف أن العالم، قد استطاع أن يمر من واحدة لأخرى، ففيها تتلاقى وتتوافق المعتقدات التي تتولد والمعتقدات التي تموت. لقد كان صحيحاً أنها وضعت تحت رئاسة إله المبادلات والتحولات، الذي يفسر، ويهدئ ويوفق، الهادي للأرواح الذي يفتح أبواب الولادة والموت، ومن إله غسقي تشع عصاه الذهبية مساء عند الغروب كي تنام في رقاد أبدي الأجناس المتتابعة، وعند الشروق في الصباح كي تعمل على إدخال الأجيال الجديدة في الكرة التي تضج بالحياة.

الكتاب الأول

هرمس المثلث العظمة

ـ ١ ـ

بوامندريس

فكرت يوماً في الكائنات؛ وحلق فكري في الأعالي، وكانت كل حواسي الجسدية في حالة استرخاء كما لو أنها في رقاد ثقيل يتلو الشبع، والافراطات أو التعب. وبدا لي أن كائناً كبيراً جداً بلا حدود واضحة، كان يناديني باسمي ويقول: ماذا تريد أن تسمع وأن ترى، ماذا تريد أن تتعلم وأن تعرف؟.. وأجبته:

ـ من تكون؟ فقال لي:

ـ أنا بوامندريس (راعي الإنسان) العقل الأسمى[1]. أعرف ذاك الذي ترغبه.

ـ أريد أن أتعرف على الكائنات وأفهم طبيعتها وأعرف الله.

ـ قال لي:

ـ حدِّد في ذهنك كل ماتريد أن تعرف، وسوف أعلمك.

بهذه الكلمات، غيَّر تجلّيه، وسرعان ماكشف لي كل شيء في لحظة، ورأيت مشهداً يجل عن الوصف. كل شيء كان يتحول إلى

---

(١) الكلمة αὐθέντης، التي كانت فيما مضى وفقاً لتعليق توسيد كانت مرادفاً للكلمة αὐτόχειρ، أخذت فيما بعد فعل ἐξουσιαστής، واحتفظت بهذا المعنى في اللغة اليونانية الحديثة.

عزوبة والنور اللطيف كان يسحر بصري. بعد ذلك سرعان ماهبطت ظلمات مخيفة ومرعبة، ذات شكل متعرج؛ وبدا لي أنني أرى هذه الظلمات تتغير دون أن أعرف طبيعة رطوبتها المضطربة، وتصعد دخاناً كالنار ونوعاً من الضجة الحزينة. ثم خرجت منها صرخة مجمجمة بدت صوت النور. إنه كلام مقدس هبط من النور على الطبيعة، ونار خالصة انطلقت من الطبيعة الرطبة نحو الأعالي؛ وقد كانت باهرة، خارقة وفاعلة في الوقت نفسه؛ وكان الهواء بخفته ينساح في الفضاء؛ كان يرتفع من الماء ومن الأرض ومن حيث كان يبدو متوقفاً. التراب والماء استمرا مختلطين، دون التمكن من رؤية أحدهما عبر الآخر وكانا يتلقيان الاندفاع من الكلمة التي كانت تُسمع خارجة من جوٍ أعلى.

وقال لي بوامندريس: هل فهمت ماتعنيه هذه الرؤيا؟ وأجبت:

ـ سوف أتعلمها حالاً. قال: هذا النور، هو أنا، العقل، إلهك، الذي يتقدم الطبيعة الرطبة الخارجة من الظلمات. والكلام المنير «الكلمة» التي تصدر عن العقل، إنها ابن الله. وأجبت:

ـ ماذا تود أن تقول؟

قال لي: تعلَّمْهُ: مايسمع ويرى فيك هو الكلمة، كلمة الله، والعقل هو الله الأب. إنهما غير منفصلين أحدهما عن الآخر، لأن الاتحاد هو حياتهما. وأجبت:

ـ إنني أشكرك، وقال لي:

ـ افهم النور إذن، واعرفه.

مع هذه الكلمات، نظر إليَّ طويلاً مواجهة، واضطربت من مظهره، وبناء على إشارة منه، رأيت النور في فكري وقواه التي لاعد لها، والعالم اللامحدود عرَّف نفسه، والنار، المسندة بقوة كبرى، بلغت توازنها. ذلك هو مافهمته من كلام بوامندريس.

وكما لو كنت مصاباً بغيبوبة، قال لي أيضاً: لقد رأيتَ في فكرك الشكل الأولي السابق للبدء اللامحدود. ذلك ماقاله لي بوامندريس:

ـ ورددتُ: من أين جاءت عناصر الطبيعة؟

وقال لي: من إرادة الله، الذي، بعد أن أخذ العقل (الكلمة)، وتأمل فيه النظام والجمال[٢]، كوَّن العالم وفق هذا النموذج، ومع عناصر مستخلصة منها ذاتها ومع بذور الأرواح. فالعقل، الإله الذكر والأنثى الذي هو الحياة والنور، يولِّد بواسطة الكلمة عقلاً خلاقاً آخر، إله النار والرطوبة[٣]، الذي كون بدوره سبعة وزراء، ومغلفاً باجتماعها العالم المحسوس ويحكمه بهذا الذي يُسمى المقدَّر.

إن كلمة الله أو عقله وثَبَتْ بسرعة إلى العناصر الدنيا في خلق الطبيعة الصرف واتَّحدت بالفكر الخلَّاق لأنها من الجوهر نفسه[٤]. وكانت العناصر الدنيا وبدون عقل قد تركت في حالة الهيولى البسيطة. فالفكر الخلاق، متحداً بالإدراك، ومُغلِّفاً الدوائر وطابعاً اياها بدورة سريعة، أعاد مخلوقاته إلى ذاتها وجعلها تدور من مبدئها إلى نهايتها كما بين حدين لايمكن إدراكهما، لأنه هنالك حيث ينتهي كل شيء

---

(٢) كلمة λόγος تعني العقل والكلام وكلمة κόσμος تعني النظام والعالم. غالباً ما كان اليونان يتلاعبون بالكلمات التي تحتمل معنيين لذلك لايمكن للترجمة أن تفي المعنى حقّه. في جانب آخر يسهل علينا أن نتعرف في هذا المقطع على نظرية أفلاطون في الخلّق.

(٣) كلمة الروح تعني نفخة وكلمة نفس لايمكن أن تستخدم إلا في معناها الحسي الموجود في كل من الكلمات: «روح النبيذ وروح الخشب والأرواح الحيوانية» كما استخدمها ديكارت).

(٤) كلمة ὁμοούσιος التي شهرها مجمع نيقيا الديني ترجمت غالباً بكلمة (جوهر) إلا أن الكلمة اليونانية التي تتناسب بدقة مع كلمة جوهر هي كلمة اينوستايز أي اقنوم.

يبدأ كل شيء بصورة أزلية. وبإرادة العقل تتجاوز هذه الدورة عناصر أدنى الحيوانات الصامتة إلى من لم يعط لها الإدراك. لقد حمل الهواء تلك التي تطير، والماء تلك التي تسبح. وقد فُصِلَ الماء والتراب عن بعضهما وفق إرادة العقل (المحرك). وعملت الأرض على أن تخرج من أحشائها الحيوانات التي تضمها، رباعية الأرجل، والزواحف، والحيوانات المتوحشة والمدجنة.

لكن المحرّك[٥]، أبو الأشياء كلها، الذي هو الحياة والنور، خلق الإنسان على شاكلته وأحبه كابنه الخاص. بجماله يعيد نسخ صورة الأب؛ اذن في واقع الأمر أحبَّ الله صورته الخاصة، وسلم إليها كل مخلوقاته. لكن الإنسان، وقد فكر ملياً حول عمل الخلق، أراد أن يخلق بدوره، وانفصل عن الأب بدخوله في فلك الخلق. أما وقد امتلأ بالقوة، فكر ملياً حول الخلائق من اخوانه، وقد كَلِفَ هؤلاء به، وشاركه كل واحد بصفة. وعندئذ، وبمعرفته لجوهرهم ولمشاركته في طبيعتهم، أراد اجتياز حد الدوائر والتغلب على القوة التي تكمن في النار.

إنَّ سيد العالم والكائنات الفانية المحرومة من العقل، أظهر، عبر التناسق[٦] حاجز الدوائر القوي، الطبيعة الدنيا لصورة الرب الجميلة. وأمام هذا الجمال الرائع، حيث كانت كل طاقات الحكام السبع تُجمع على شكل الإله، عجِبَتْ الطبيعة من الحب، لأنها رأت جمال الإنسان في الماء وظله على الأرض. وهو، برؤيته لانعكاس شكله الخاص في الماء، شغفه حبه وأراد امتلاكه. فرافقت الرغبة الطاقة وفهم الشكل الخاص للإدراك. وفهمت الطبيعة حبيبها وغطته كله، واقترنا بحب متبادل. ولهذا كان الإنسان وحده من بين كل الكائنات التي تعيش

(٥) كلمة «عقل» التي تقترن هنا بكلمة «أب» لايمكنني أن أترجمها من الآن فصاعداً بكلمات كالفكر أو الذكاء. من جهة أخرى اعتقد أنها تترجم كذلك بـ «محرّك» وأن نظرية أناكساغور تقوم على هذا المعنى المزدوج.

(٦) كلمة ἁρμονία التي تفسّر العلاقة العامة للأشياء تعني هنا العالم المادي.

على الأرض، مزدوجاً، فانٍ بجسده، خالد بجوهره الخاص. فانٍ وسيد كل الأشياء، وهو خاضع للقدر الذي يحكم كل ماهو فان؛ إنه مَثَلٌ أعلى لتناسق الكون، وهو أسير في علاقاته؛ مذكر ومؤنث كوالده وأعلى من الرقاد، وهو محكوم بالرقاد[٧].

وقال فكري آنئذ: هذا الخطاب يسحرني. وقال بوامندريس:

- «هُوَذا السر الذي أخفيَ حتى هذا اليوم. فالطبيعة المتحدة مع الإنسان أنتجت أعجب الروائع. وكما قلت لك، كانت مؤلفة من نار وهواء، كأمراء التناسق السبعة؛ والطبيعة لاتتوقف وقد أنتجت سبعة من البشر، ذكوراً وإناثاً، وبنظام مرتفع، مستجيبة للحكام السبعة». وهتفتُ: «آه يابوامندريس، أكمل فإن فضولي يتضاعف». وقال بوامندريس: «اسكت إذن، لأنني لم أكمل خطابي الأول.» وأجبته: إنني أسكت.

إن جيل هؤلاء السبعة، كان له، كما قلت إذن محلاً بهذه الطريقة. فالأرض كانت مؤنثة[٨] والماء مولد؛ فالنار تقدم الحرارة، والهواء يقدم النفَس، والطبيعة تنتج الأبدان للشكل البشري. وقد تلقى الإنسان روحه وعقله من الحياة والنور، فالروح أتت إليه من الحياة والعقل جاء من النور، وكل أعضاء العالم المحسوس تبقى هكذا حتى اكتمال تطور المبادئ والأنواع. والآن، إصغ لبقية الخطاب الذي ترغب بالاستماع إليه. الدورة قد اكتملت، والرابط الشمولي فكت عقدته بإرادة الله؛ اذ أن جميع الحيوانات، التي كانت بدئياً خنثى، قد انقسمت في نفس الوقت كالإنسان، وتكونت من ذكور من جانب وإناث من الجانب الآخر. وفي الحال قال الله كلامه المقدس: تناموا في التكاثر وتعددوا في العدد[٩]، فكلكم مصنوعاتي ومخلوقاتي، ومن فيه

---

(٧) أقرأ هنا ὕπνου بدلاً من ἀύπνου التي وردت في النص واعتقد انه يوجد في هذا المقطع ثغرة أو تحريف ما.

(٨) أُفَضِّلُ θηλυκὸν γὰρ ὁ ἀήρ, على θηλυκὴ γῆ ἦν التي أخذها بارتي عن باتريزي.

(٩) يوجد هنا في احدى مخطوطات هرمس التعليق التالي الذي نشره بوسوناد ←

عقل منكم يعلم أنه خالد وأن سبب الموت هو حب الجسد، ويعرف كل الكائنات.

بهذه الكلمات، وحدت عنايته الأزواج حسب القوانين الضرورية والمتناسقة، وأقامت الأجيال. وأخذت الكائنات تتكاثر بأجناسها، والذي عرف نفسه بذاته وصل إلى الخير الكامل؛ لكن من أحب الجسد، بخطأ من الحب، فإنه يبقى تائهاً في الظلمات، وخاضعاً بالحواس إلى شروط الموت. وصرختُ:

ـ ماهي إذن الخطيئة الكبرى للجهلة، كي يحرموا من الخلود.

← في كتاب (ميخائيل بسولوس، دو أوبيراسيون دومونوم) وأعيد نشره في كتاب البوماندير لبارتي.

«دو بسولوس: يبدو أن هذا الساحر ضليع في الكتاب المقدّس واستناداً إليه بدأ بشرح الخلق حتى أنه لم يخشَ في بعض الأحيان من نسخ تعابير موسى ذاتها كما في هذه الجملة: «الله يقول: تزاوجوا وتكاثروا» التي استعارها بوضوح من سردموس، لكن بدلاً من أن يحتفظ بالبساطة والوضوح الإلهيين للكتاب المقدّس عمد الى الأسلوب التفخيمي المعروف عن حكماء الهلينية من استعارات وهذر وتحريفات مبتعداً بذلك عن الطريق الصحيح أو أنّ بواماندريس أحاده عنه. في الواقع لم يكن من الصعب معرفة من كان بواماندريس اليونان، انه الذي نسميه بيننا أمير العالم أو أحد أتباعه. لأن الشيطان، يقول بازيل، سارق، انه ينتهك تقاليدنا ليس من أجل أن يحيد اتباعه عن الالحاد إنما من أجل تزيين وتجميل إيمانهم الكاذب بكلمات وأفكار صحيحة مما يجعلها قريبة من الحقيقة بحيث تقبل بها الأكثرية. لم يكن أفلاطون محقاً بقوله أن اليونانيين الذين تعلّموا من وحي ديلف يُجمّلون ماتعلموه للبرابرة. الأصوب هو أن اليونانيين لا يجهدون أنفسهم في البحث عن الحقيقة وأن أفكارهم تضللهم فيما يتعلق بالاله وليس اجدادنا هم من يقول ذلك بل أكثر الناس وقاراً بين اليونانيين ويمكننا أن نُقّر بذلك عندما نقرأ الرسالة التي طالب فيها بورفير من المصري انيبو بأن يعلمه الحقيقة بما أنه لايعرف إلا آراء اليونانيين. لا أستطيع أن أجزم بوجود عرق بربري آخر مِمّن عبد الخالق وملك الكون بشكل تقليدي واتبع طقوساً عامة لكن دين العبرانيين كان مشهوراً في المعمورة كلها وتشريعهم سبق هرمس وأي حكيم يوناني آخر هذا ماتدلّ عليه براهين عديدة».

وأجاب: يبدو أنك لم تفهم ماسمعت؛ ألم أقل لك بأن تفكر؟

قلت: إنني أفكر، وأتذكر، وأشكرك.

قال لي: إذا كنت قد فكرت، فقل لي لماذا استحق هؤلاء الموت.

أجبت: ذلك أن جسدنا ينبثق من هذه الظلمة الصاخبة التي خرجت منها الطبيعة الرطبة، وأن الجسد بذلك قد تكون في العالم المحسوس، ويرتوي من الموت.

قال: لقد فهمتَ؛ ولكن لماذا هذا الذي يفكر في ذاته يتجه نحو الإله، كما يقول الكلام الالهي؟

أجبت: لأنه من الحياة والنور التي تكّون منها أبو الأشياء جميعاً، ولد الإنسان.

قال: من الكلم الطيب، ومن الإله والأب الذي ولد منه الإنسان ولد النور والحياة. فإذا علمت إذن أنك خرجت من الحياة والنور وأنك تكونت منهما، فسوف تسير نحو الحياة. تلك هي كانت كلمات بوامندريس.

وقلت له ـ علمني إذن أيضاً، أيها العقل، كيف يمكن أن أدخل في الحياة. أجاب إلهي:

ـ فليعرف الإنسان الذي فيه العقل، ذاته.

فقلت:

ـ أليس لكل البشر عقل إذن؟

قال: كلمات طيبة، فكّرْ بما قلت. أنا، العقل، أرافق القديسين، والأخيار والطاهرين والمحسنين وأولئك الذين يعيشون في ورع. قوتي عون لهم، وحالما يعرفون كل الأشياء، ويدعون الأب بحب ويتوجهون إليه بأعمال الخير، والتبريكات والمدائح التي يستحقها، وحتى قبل أن

تستسلم أجسادهم للموت، يمقتون الحواس التي يعرفون أفعالها؛ أو على الأصح، فأنا، العقل، لن أدع أعمال الجسد تكتمل؛ وكالبواب سوف أغلق الطريق على الأعمال السيئة والمخجلة بإبعاد الرغبات. أما بالنسبة لمن لا عقل لهم، الأشرار والآثمون، الحسودون والشرهون، والقتلة والكفرة، فإنني بعيد عنهم وأسلمهم للشيطان المنتقم الذي يريق في حواسهم ناراً خارقة، ويدفعهم أكثر فأكثر للشر كي يبالغ في عقابهم، وبدون هدنة يهيج عواطفهم برغبات لاتشبع، ويعذبهم، عدو خفي، وفيهم يعيد إحياء اللهب الذي لاينطفئ.

ـ قلت: لقد علمتني عن كل شيء، كما رغبتُ، أيها العقل؛ ولكن أوضح لي أيضاً عن الطريقة التي يتم فيها الارتقاء.

ـ قال بوامندريس: بدئياً انحلال الجسد المادي يُخْضِع عناصره للتحولات؛ فيزول الشكل المرئي، وبفقدان خاصية الجسد لقوتها يخضع للشيطان وتعود الحواس الى مصادرها الخاصة وتمتزج في الطاقات الكونية. تعاود الاهواء والرغبات دخولها في الطبيعة اللامعقولة، ومايتبقى يرتفع هكذا عبر الايقاع تاركا لَلمنطقة الأولى قوة النمو والضمير وللثانية صناعة الشر والحيلة التي (أصبحت) عاجزة وللمنطقة الثالثة وهم الرغبات العاجز منذئذ وللمنطقة الرابعة غُرور القيادة التي لم تعد تستطيع ان تكون مرضية وللخامسة الكبرياء الكافرة والجرأة المتهورة أن وللسادسة التعلق بالثروات التي هي (الآن) بلا أثر، وللسابعة الكذب المخاتل.وبانسلاخه هكذا عن كل أعمال الايقاع (للعالم) يصل إلى المنطقة الثامنة، محتفظاً فقط بقوته الخاصة، وينشد مع الكائنات الأناشيد على شرف الأب. فالذين يكونون هنالك يفرحون بحضوره، وبصيرورته مشابهاً لهم، يسمع الصوت الرخيم للقوى القابعة فوق الطبيعة الثامنة والتي تترَّنم بمدائح الإله. وعندئذ يصعدون بانتظام نحو الأب ويستسلمون للقوى، ويصبحون قوى، تُخلق في الإله. ذلك هو

الخير النهائي لأولئك الذين يملكون الغنوص، صيرورة الله. فماذا تنتظر الآن؟ لقد تعلمت كل شيء، ولم يعد لك إلا أن تظهر الطريق للناس، كي ينقذ الله بك الجنس البشري.

بكلامه هكذا، اختلط بوامندريس بالقوى. وأنا، الممجد لِأَبِ الأشياء كلها وشاكراً له، نهضت بقوته تعالى، عارفاً طبيعة الكون والكشف الكبير. فبدأت أبشر الناس بجمال الدين والغنوص قائلاً: أيتها الشعوب، ويا أيها الناس المولودون من الأرض، الغارقون في السكر، والنوم وجهلكم للرب، تحرروا من غفلاتكم الشهوانية، وتيقظوا من بلاهتكم!.

لقد سمعوني وتجمعوا حولي. وعندئذ أضفت: أيها الناس المتولدون من الأرض، لماذا تركتم أنفسكم للموت، عندما سمح لكم بأن تحصلوا على الخلود؟ ارجعوا إلى ذواتكم، أنتم يا من تسيرون في الخطيئة، ويا من تذوون في الجهالة؛ ابتعدوا بأنفسكم عن الضوء الباهت، وشاركوا في الخلود متراجعين عن الفساد.

بعضهم تهكم، وألقى بنفسه في طريق الموت، والبعض الآخر خَرَّ على رجلي متضرعاً كي أعلمه. وأنا، أصبحت بنهوضي هادي الجنس البشري، أعلمه بخطاباتي طريق السلامة؛ وقد غرست فيهم كلمات الحكمة وتغذوا من الماء الرحيق (الخلود). وجاء المساء. وبدأت آخر أشعة الشمس تتوارى، ودعوتهم إلى الصلاة. وبإكمال أعمال الخير، أخذ كل واحد سبيله إلى النوم. وأنا كتبت في ذاتي قصة حسن صنيع بوامندريس، وبامتلاكي لموضوع نذوري، ارتحت وأنا ممتلئ حبوراً. إن نوم الجسد ينتج طراوة الروح، وعيناي مغلقتان تريان الحقيقة، وقد حمل هذا السكون في داخله الخير الأسمى، وكانت الكلمات المنطوقة بذور خير. ذلك هو حسن الصنيع الذي تلقيته من عقلي أي من بوامندريس،

اسكليبيوس: نعم.

هرمس: هل هو متحرك؟

اسكليبيوس: بدون شك.

هرمس: ماذا يجب أن يكون إذن مكان حركته. ومن أية طبيعة؟ أفلا يجب أن يكون أكبر بكثير من العالم، كي يستطيع هذا التحرك فيه دون أن يحتجز ولا أن يتوقف في سيره؟

اسكليبيوس: إنه شيء أكبر بكثير أيها المثلث العظمة.

هرمس: ومن أية طبيعة؟ أليس صحيحاً أنه من طبيعة مخالفة؟ والنقيض للجسم أليس هو اللاجسم؟

اسكليبيوس: أوافق.

هرمس: المكان إذن غير مُجَسَّم (لاجسم). لكن اللاجسم هو إلهي أو إله. أسَمِّي إِلهيّ ليس مايولد وإنما غير المخلوق (صفة كائن لا علة لوجوده، بل وجد بذاته)، فإذا كان إلهياً فهو جوهري. وإذا كان إلهاً فإنه فوق الجوهر. من جانب آخر، هو مدرك بالعقل، وإليك البيان: الإله الأول مدرك بالعقل بالنسبة لنا، ليس بالنسبة لذاته، لأن المعقول (المدرك بالعقل) يسقط تحت إحساس اللبيب. فالله ليس إذن مدركاً بالعقل لذاته، لأن الفاعل المفكر ليس شيئاً آخر سوى الموضوع المتصور. وبالنسبة لنا فهو مختلف، ولهذا نتصوره. فإذا كان المكان مدركاً بالعقل، فهو ليس إلهاً، إنه المكان. وإذا كان إلهاً، فذلك ليس كمكان ولكن كمبدأ للامتداد. بيد أن كل ماهو متحرك يتحرك ليس في المتحرك وإنما في الثابت. فالمحرِّك ثابت، لأنه لايمكن أن يقسم حركة التحرك.

اسكليبيوس: كيف إذن، أيها المثلث العظمة، نرى هنا حركة المتحركات موزعة بواسطة محركها؟ اذ أنك كنت تقول أن الكواكب السيارة كانت تحركت بواسطة الفلك الثابت.

هرمس: ليست هنا حركة مقسمة يا اسكليبيوس، وإنما نقيض - حركة. فهذه الكواكب لاتتحرك في نفس الاتجاه، وإنما في اتجاه معاكس. ويقدم هذا التعارض إلى الحركة مقاومة ثابتة؛ لأن ارتكاس الحركات هو الثبات؛ فالكواكب السيارة بكونها متحركة في اتجاه مناقض للفلك الثابت، وحصلت حركتها المناقضة بالمقاومة التي تتعارض فيما بينها، ولايمكن أن تكون غير ذلك. ألا ترى بنات نعش هذه المجموعة التي لاتغيب ولاتشرق؟ فهل تدور حول نقطة أم أنها غير متحركة؟

اسكليبيوس: إنها تتحرك أيها المثلث العظمة.

هرمس: ماهي حركتها يا اسكليبيوس.

اسكليبيوس: إنها تدور بدون توقف حول نقطة بعينها.

هرمس: إن دوراناً حول نقطة هو حركة مستمرة بالثبات. لأن الدوران يعوق الاستبعاد، والاستبعاد المعاق يثبت في الدوران. وإن تعارض هاتين الحركتين ينتج حالة ثابتة مسنودة دائماً بالمقاومات المتبادلة. وسوف أعطيك مثالاً على ذلك مأخوذاً من الأشياء الأرضية: انظر على سبيل المثال فن سباحة الإنسان والحيوانات: فردة فعل الأرجل والأيدي تجعل الإنسان غير متحرك، وتمنعه من أن يُحْمَل في حركة الماء ويغرق.

اسكليبيوس: هذه المقارنة واضحة جداً أيها المثلث العظمة.

هرمس: كل حركة هي إذن متحصلة في الراحة وبواسطة الراحة. وهكذا، لاتأتي حركة العالم وكل حيوان مادي من الخارج، وإنما تحصل من داخل إلى خارج بواسطة الروح أو بواسطة النفس أو بأي مبدأ آخر لامادي. لأن جسداً مالايمكن أن يحرك ماهو حي: حتى أنه لايستطيع أن يحرك جسماً غير حي.

العقل صاحب السيادة؛ كذلك باستلهامي الإلهي، تملكت الحقيقة. ولهذا فإنني من كل روحي وبكل قواي أمجد الأب الإلهي:

مقدس هو الرب أبو كل الأشياء. مقدس هو الرب الذي تكتمل الإرادة بقدراته الخاصة. مقدس هو الرب الذي أراد أن يكون والذي عُرف ممن هم له. مقدس أنت يا من كوّن الكائنات بكلمته؛ مقدس أنت يا من كل الطبيعة صورته؛ مقدس أنت يا من لم تصنعه الطبيعة. أنت مقدس وأقوى من كل قوة، إنك مقدس وأكبر من كل عظمة، أنت مقدس وفوق كل ثناء. تقبل الأضحية الكلامية من الروح والقلب التي تصعد نحوك، يا من لايمكن التعبير عنه، ولايوصف، ومن يمكن للصمت وحده أن يسميه. لاتدعني أضل، أعطني المعرفة عن جوهرنا، أعطني القوة، أنر بعفوك أولئك الذين يعمهون في الجهالة، إخوتي في العرق، أبناءك. إنني آمن بك وأشهد وأمشي في الحياة والنور. أيها الأب، لِتُقدَّس؛ فالإنسان الذي ينتمي إليك يود أن يشارك في قداستك، كما أعطيته تمام القوة.

ـ ٢ ـ

خطاب شامل من هرمس لأسكليبيوس

هرمس: كل شيء يتحرك، يا اسكليبيوس، أفلا يتحرك في شيء ما وبواسطة شيء ما؟

اسكليبيوس: بدون شك.

هرمس: أليس المتحرك بالضرورة أصغر من مكان التحرك؟

اسكليبيوس: حتماً.

هرمس: أليس المحرك هو أقوى من المتحرك؟

اسكليبيوس: بالتأكيد!

هرمس: أليس لمكان التحرك بالضرورة طبيعة مخالفة للمتحرك؟

اسكليبيوس: نعم بالتأكيد.

هرمس: إن هذا العالم لكبير بحيث لايوجد جسم أكبر منه.

اسكليبيوس: إنني أوافق.

هرمس: وإنه صلب، لأنه مليء بعدد من الأجسام، أو بالأحرى بكل الأجسام التي توجد.

اسكليبيوس: هذا صحيح.

هرمس: هل العالم جسم؟

اسكليبيوس: ماذا تود أن تقول أيها المثلث العظمة؟ أليس الخشب والحجر وكل الأجسام غير الحية محركات.

هرمس: أبداً يا اسكليبيوس. إن ماهو في داخل الجسد ومايحرك الشيء غير الحي، هو المحرك العام لجسد يحمل ولشيء محمول. لايمكن أبداً لشيء غير حي أن يحرك شيئاً آخر غير حي. فكل محرك هو حي لأنه ينتج الحركة. ويلاحظ أيضاً أن الروح تكون مثقلة عندما يكون لها أن تحمل شيئين. وبذلك يكون واضحاً أن كل حركة قد حصلت بواسطة شيء ما وفي شيء ما.

اسكليبيوس: لكن ينبغي للحركة أن تحصل في الفراغ أيها المثلث العظمة.

هرمس: لاتقل هذا يا اسكليبيوس. لايوجد في الكون فراغ. فاللاكائن وحده خواء وغريب عن الوجود. أما الكائن فلا يمكن أن يكون كائناً إذا لم يكن مليئاً بالوجود. الأمر الذي لايستطيع أن يكون به فارغاً أبداً.

اسكليبيوس: ألا توجد إذن أشياء فارغة أيها المثلث العظمة، على سبيل المثال، إناء فارغ، برميل فارغ، بئر فارغ، صندوق وأشياء أخرى مماثلة فارغة.

هرمس: إنه لخطأ يا اسكليبيوس أن تعتبر فارغة أشياء ملأى وملأى تماماً.

اسكليبيوس: ما الذي تريد قوله أيها المثلث العظمة.

هرمس: أليس الهواء جسماً.

اسكليبيوس: نعم إنه جسم.

هرمس: أَلَا يخترق هذا الجسم كل الأشياء وألا يملأ مايخترقه؟ أليس كل جسم مؤلفاً من أربعة عناصر؟ فكل ماتعتقده خالياً هو مليء

بالهواء، وبالنتيجة بعناصر أربعة. وبمعنى نقيض، يمكن القول أن ماتظنه مليئاً هو خال من الهواء، لأن وجود أجسام أخرى لايسمح للهواء أن يشغل نفس المكان. وهكذا، فإن الأشياء التي تسميها فارغة هي مجوفة وليست فارغة لأنها توجد وهي ملأى بالهواء والسائل.

اسكليبيوس: لايوجد مايرد به على هذا أيها المثلث العظمة، فالهواء جسم وهذا الجسم يخترق كل شيء، ويملأ كل مايخترق. ولكن ماذا تقول عن المكان الذي يتحرك فيه الكون؟

هرمس: إنه غير مجسم يا اسكليبيوس.

اسكليبيوس: إذن ماهو غير المجسم؟

هرمس: العقل والإدراك يتعانقان بذاتهما، ومتحرران من كل جسد، ومجردان عن الخطأ، ممتنعان عن الألم، ولايمكن مسهما، ويبقيان ثابتين في ذاتهما، محتويين على كل شيء حافظين لكل الكائنات، أشعتهما هي الخير والحقيقة، ومبدأ النور، ومبدأ الروح.

اسكليبيوس: ماهو الله إذن؟

هرمس: إن الله ليس شيئاً من كل هذا، لكنه علة كل شيء بصورة عامة، وكل كائن بصورة خاصة. لم يترك شيئاً لما ليس بكائن؛ فكل كائن يأتي مما هو، وليس مما ليس هو. فالعدم لايمكن أن يصبح شيئاً ما؛ إنه في طبيعته لايمكن أن يكون. وعلى النقيض فإن طبيعة الكائن هي عدم إمكانية التوقف عن الكينونة.

اسكليبيوس: كيف تعرف الله إذن؟

هرمس: الله ليس العقل، ولكنه علة العقل، إنه ليس النفس ولكنه علة النفس إنه ليس النور ولكنه علة النور. فالأسمان اللذان يجب تمجيد الله بهما لايناسبان إلا هو وحده، ولا أي واحد آخر. فأي واحد ممن يسمون آلهة، وأي واحد من الناس أو الشياطين لايمكن دعوته بأية

طريقة حسناً: فهذا اللقب لايناسب إلا الله وحده؛ وإنه الخير وليس شيء آخر. فكل الكائنات الأخرى هي خارج طبيعة الله؛ إنها جسد وروح، ولايوجد فيهما مكان للخير. فالخير يساوي في عظمته وجود كل الكائنات مجسدة أم غير مجسدة، محسوسة ومعقولة. هذا هو الخير هذا هو الله. فلا تقل إذن عن كائن آخر إنه حسن، فذلك كفر؛ ولاتقل عن الله إنه شيء آخر غير الخير فذلك كفر أيضاً. الجميع يستعمل كلمة الخير ولكن أحداً لم يعرف معناها؛ وهكذا لايفقه الجميع الله، ومن هذه الجهالة بالتالي، نقول عن بعض الآلهة والبشر إنها حسنة، مع أنها لايمكن أن تكون حسنة ولا أن تصبح حسنة، كل الآلهة الأخرى تدعى خالدة وتعطى اسم الآلهة كتكريم. لكن بالنسبة لله ليس الخير تكريماً، إنه طبيعة. فالله والخير هما واحد وشيء واحد والمبدأ لكل الأشياء الأخرى؛ ولأن خاصية الطيبة هي أن تعطي كل شيء دون أن تتلقى شيئاً. وعلى ذلك، فإن الله يعطي كل شيء ولايتلقى شيئاً. الله اذن هو الخير، والخير هو الله. واسمه الآخر هو اسم الأب بسبب دوره الخالق؛ ولأن خاصة الأب هو أن يخلق. ولهذا فإن أعلى وظيفة للحياة والأكثر قداسة هو التوالد، وأكبر تعاسة وأكبر كفر هو ترك الحياة الإنسانية دون أن يكون للإنسان ولد. فالذين يتخلون عن هذا الواجب تعاقبهم الشياطين بعد الموت. وهاكم عقابهم: تدان روحهم لتدخل في جسم لا هو امرأة ولا هو رجل، شرط ملعون تحت الشمس. وهكذا يا اسكليبيوس لاتحسد مصير ذلك الذي لا ولد له. ولكن أرثِ لتعاسته مفكراً بالكفارة التي تنتظره تلك هي يا اسكليبيوس، العناصر الأولى لمعرفة الطبيعة.

ـ ٣ ـ

خطاب هرمس مثلث العظمة المقدس

مجد كل الأشياء، الله، الإلهي والطبيعة الإلهية. مبدأ الكائنات، الله، العقل، الطبيعة والمادة. الحكمة تظهر الكون، الذي[١٠] مبدؤه الإلهي، الطبيعة، الطاقة، الضرورة، الغاية والتجديد.

كانت توجد ظلمات لاحدود لها على الهاوية، والماء، ونفس حاذقة وذكية. محتواة في العماء بواسطة القوة الإلهية. عندئذ انساب النور المقدس، وتحت الرمل خرجت العناصر من الجوهر الرطب، وجميع الأرباب نظمت الطبيعة المخصبة. الكون مكوناً في الاختلاط والفوضى، والعناصر الخفيفة ترتفع، والأكثر ثقلاً أقيمت كأساس تحت الرمل الرطب، وكل الأشياء بكونها منفصلة بالنار، ومعلقة لتكون مرتفعة بالنفس. وقد بدت السماء في دوائر سبع، وظهرت الآلهة على شكل النجوم بكل خصائصها، وحُسِبَتْ النجوم مع الآلهة التي هي فيها. يغلف الهواء الدائرة الخارجية، وهي تحمَل في مسيرها الدائري النفس الإلهية. قام كل إله، حسب قوته بإكمال العمل الذي كان قد كتب عليه. والحيوانات الرباعية الأرجل تتولد، وكذلك الزواحف والحيوانات المائية والحيوانات المجنحة، وكل حبة مخصبة، والعشب والخضرة لكل زهرة لها في ذاتها بذرة لاعادة التوالد.

---

(١٠) أقرأ [illegible] بدلاً من ,[illegible] التي يمكن أن تكون غير صحيحة وغير مفهومة أما بقية الفصل فهي غامضة وتعج بالأخطاء.

كذلك نيسلون الأجيال البشرية كي تعرف الأعمال الإلهية وتشهد لطاقة الطبيعة، وتَعَدُّد البشر من أجل الحكم على كل ماهو تحت السماء ومعرفة الخير، لكي يتنامى بعظمة ويتكاثر في التعدد وكل روح مغلفة بلحم بمسيرة الآلهة الدائرية، ومن أجل تأمل السماء، ومسيرة الآلهة السماوية، والأعمال الإلهية وطاقات الطبيعة، ولْتُميِّزَ الخيرات، ولتتعرف على القدرة الإلهية، ولتتعلم بأن تميز الخير عن الشر، وأن تكتشف كل الفنون المفيدة. لقد نُظِّمتْ حياتهم وحكمتهم منذ البدء بمسيرة الآلهة الدائرية وقد فرغوا من حلها.

وستوجد أعمال كبيرة يمكن تذكرها على الأرض، تاركة التدمير في إعادة تجديد الأزمنة. وكل جيل من لحم حي وبذرة الثمار، وكل الأعمال القابلة للتلف ستكون متجددة بالضرورة وتجدد الآلهة، والمسيرة الدورية والمنتظمة للطبيعة. لأن الإلهي هو تنظيم العالم، وتجديده الطبيعي وقد أقيمت الطبيعة في الإلهي.

ـ ٤ ـ

الباطية أو جوهر هرمس المثلث العظمة في ابنه تات

هرمس : الصانع صنع العالم، ليس بيده، وإنما بكلمته. فينبغي أن تتمثله كحاضر وموجود دائماً، وكخالق لكل شيء، الواحد الأحد، الذي أبدع الكائنات بإرادته. جسمه غير محسوس ولامرئي، غير قابل للقياس ولامبسوط، لاشبيه بأي جسم آخر. فهو ليس لا النار، ولا الماء، ولا الهواء ولا النفس، ولكن كل شيء يأتي منه. وبكونه الحسن، أراد أن ينشئ العالم لذاته وأن يزيِّن الأرض. وكزينة للجسم الإلهي وظَّف الإنسان، الحيوان الخالد والفاني. والإنسان الذي يَرْجَح على الحيوانات بالإدراك والذكاء، ولد كي يتأمل في أعمال الله، ليستحسنها وليعرف

خالقها. ووزع الله الإدراك على كل الناس، ولكن ليس الذكاء؛ ليس أنه رغب بها لبعضهم، فالرغبة غريبة عنه، إنها ولدت في أرواح الناس الذين لاذكاء عندهم.

تات: لماذا إذن يا أبتي، لم يوزع الذكاء على الجميع؟

هرمس: يا ولدي، لقد أراد اقامته وسط الأرواح كثمن ليكتسب.

تات: وأين أقامه؟

هرمس: ملأ به **باطية** (جرة) كبيرة وجعل رسولاً يحملها آمراً إياه بأن يصرخ هذا في قلوب البشر: «تعمدوا، إذا استطعتم، في **الباطية**، أنتم يا من تظنون أنكم ستعودون إلى من ارسلها، أنتم يامن تعلمون لماذا ولدتم». فالذين يستجيبون لهذه الدعوة ويتعمدون في العقل هم الذين يمتلكون الغنوص ويصبحون الملقنين بالعقل، الرجال الكاملين. والذين لايفهمونه يملكون الإدراك لكن ليس العقل، ويجهلون لماذا وبماذا كانوا قد تكوَّنوا. إحساساتهم تشابه إحساسات الحيوانات التي ليس لها إدراك. إنهم مركبون من العواطف والرغبات فقط، لايستحسنون ماهو جدير بالتأمل، وينساقون إلى الملذات وغرائز الجسد ويعتقدون أن ذلك هو غاية الإنسان. لكن الذين تلقوا هبة من الله، فهؤلاء هم الخالدون بالنظر إلى أعمالهم يا تات ولن يفنوا. إنهم يحتوون بالعقل ما على الأرض وفي السماء، ومايمكن أن يوجد فوق السماء. ومن العليين التي وصلوا إليها، يتأملون الخير، وجعلهم هذا المشهد يعدّون أن إقامتهم على هذه الأرض شقاء. وبازدرائهم بكل الأشياء البدنية وغير المجسدة، يتطلعون للواحد الأحد. ذلك هو ياتات علم العقل: تأمل الأشياء الإلهية وإدراك الله. ذلك هو حسن صنيع الجرّة الإلهية.

تات: إنني أريد التعميد فيها أيضاً يا والدي.

هرمس: يا بني،إذا لم تكن قد بدأت بكراهية بدنك، لايمكن أن

تحب نفسك بذاتك. وبحبك لذاتك، سيكون لك العقل، وعندئذ سوف تحصل على العلم.

تات: ماالذي تريد قوله يا والدي؟

هرمس: من المستحيل يا بني، أن تتعلق في آن واحد بالأشياء الفانية وبالأشياء الإلهية. فالكائنات مجسدة أو غير مجسدة، وبهذا تميز الفاني عن الإلهي، وينبغي أن تختار الأول أو الآخر، إذ لايمكن التعلق بالاثنين في آن واحد وعندما نقوم بالاختيار، فالذي نتخلى عنه يظهر طاقة الآخر، وباختيارنا للأفضل، نحصل بدئياً على مكافأة رائعة، تأليه الإنسان ونظهر تقواه أكثر تجاه الله. إنه لخيار سيء ضياع الإنسان، ولكن بدون خطيئة مع الله؛ ونمر عبر العالم تجبرنا لذة الجسد مثل أولئك المتنزهين العاطلين عن العمل والذين تضمهم الطرقات.

لأن الأمر هكذا ياتات، يكون الخير الذي يأتي من الله تحت تصرفنا، وليس لنا بعد إلا أن نأخذه بدون تأخير. إن الشر لايأتي من الله، إنه يأتي منا بذاتنا نحن الذين نفضله على الخير. أنت ترى يا ولدي، كم يجب أن نجتاز من الأبدان، وكم من جوقات الشياطين وثورات النجوم كي نصل حتى الله الواحد الأحد. لايمكن الإمساك بالخير اللانهائي وغير المحدود؛ فليس له بذاته بداية، لكنه يبدو بالنسبة لنا أن له واحدة هي الغنوص. فالغنوص بدقة ليس مبدأ الخير ولكننا بواسطته نصل إليه. فلنأخذ هذا إذن كدليل وسوف نتقدم عبر كل المصاعب. من الصعب ترك الأشياء الحاضرة والمعتادة كي نعود إلى الطرق القديمة، إن الظواهر تسحرنا، ونرفض الإيمان بغير المرئي؛ وعلى ذلك فإن الأشياء السيئة ظاهرة، والخير غير مرئي للعيون لأنه لاشكل له ولاصورة إنه شبيه بذاته ومختلف عن كل ماتبقى. فاللامجسد لايمكن أن يبدو للجسد. ولهذا يتميز المشابه عن المغاير، وفي ذلك يكون المغاير أدنى من المشابه.

إن الوحدة، مبدأ وجذر لكل الأشياء وتوجد في الكل كمبدأ وجذر. لاشيء بدون مبدأ؛ والمبدأ لايتفرع من شيء إلا من ذاته، لأن كل شيء يتفرع منه. إنه مبدأ ذاته، لأنه ليس له آخر. الوحدة التي هي مبدأ، تتضمن جميع الأعداد، وليست محتواة بأي واحد منها؛ إنها تولدها جميعاً، وغير متولدة بأي واحد آخر. كل ماهو متولد ناقص. قابل للقسمة، قابل للزيادة أو النقصان وليس للكامل أية صفة من هذه الصفات. كل مايمكن أن ينمو، ينمو بالوحدة، ويخضع إلى ضعفه الخاص عندما لن يستطيع تلقي الوحدة.

تلك هي، يا تات، صورة الإله، بمقدار مايمكن تمثلها. وإذا تأملتها ملياً، وإذا فهمتها بعين القلب، فصدقني يا ولدي، إنك سوف تجد طريق التصاعد، أو بالأحرى أن هذه الصورة ذاتها سوف توصلك؛ لأنها تلك هي فضيلة التأمل، إنها تحرر من القيود وتجذب كما يجذب المغناطيس الحديد.

ـ ٥ ـ

الإله غير المرئي واضح جداً
خطاب هرمس لإبنه تات

أوجه هذا الخطاب إليك ياتات، كي تكون ملقناً باسم الله العلي. فإذا عرفته، فإن مايبدو غير مرئي لكثيرين سيكون ظاهراً لك تماماً. وإذا كان ظاهراً، فإنه لن يكون؛ فكل ظهور مخلوق، طالما أنه قد بدا؛ لكن اللامرئي هو دائماً، ليس بحاجة للظهور. إنه دائم ويجعل كل الأشياء مرئية. لامرئي، لأنه أزلي، يبدي كل شيء دون أن يبدو. لامخلوق، يظهر كل الأشياء في الظاهر؛ والظاهر لايعود إلا للأشياء المتولدة؛ وليس

شيئاً آخر سوى الولادة. فالذي هو وحده لامخلوق هو إذن بذلك نفسه غير متكشف وغير مرئي، ولكن، بإظهاره كل الأشياء، يتكشف فيها، وبها، لأولئك الذين يريد أن يتكشف لهم بصورة خاصة.

هكذا يا ولدي تات، تضرع بدئياً إلى الرب والأب، الواحد الأحد، الذي منه خرج الأحد، كي تكون مناسباً وكي تستطيع أن تفهم هذا الإله. لذا يجب أن ينير أحد أشِعَّتِهِ فكرك. فالفكر وحده هو الذي يرى اللامرئي، لأنه بذاته لامرئي. وإذا استطعت فسوف تراه بعين العقل يا تات، لأن الرب ليس بخيلاً، إنه يتكشف في الكون برمته. يمكنك أن تفهمه، أن تراه، أن تلمسه بيديك وأن تتأمل صورة الله. لكن كيف يمكن أن يبدو لناظريك، إذا ماكان الذي فيك هو غير مرئي لذاتك؟ إذا أردت رؤيته، فكر بالشمس، فكر بسريان القمر، فكر بانتظام النجوم. من الذي يسند هذا النظام؟ لأن كل نظام محدد بالعدد والمكان. فالشمس أكبر آلهة السماء، وكل الآلهة السماوية تعرفها كملك لها ورئيس عليها؛ وهذا الكوكب الأكبر من الأرض والبحر، يدع كواكب أصغر منه تدور تحته. فأي احترام، وأي خوف يجبرها يا ولدي؟. مسيرات كل واحدة من هذه النجوم في السماء مختلفة وغير متساوية؛ فمن الذي ثبَّت لكل واحدة منها الاتجاه وطول المسير؟ بنات نعش الكبرى تدور حول ذاتها وتجر الكون معها؛ فمن الذي يستخدمها كأداة في ذلك؟ من الذي حدد للبحر حدوده؟ من الذي وضع أسس الأرض؟ إذن ثمَّةَ يا تات، خالق وسيد لكل هذا الكون. فلا يمكن للمكان والعدد والمقايس أن تحافظ على نفسها دون خالق. ولايمكن للنظام أن يقوم دون مكان ومقياس، فيجب أن يكون له معلم يا ولدي. وأن الفوضى بحاجة له كي تصل إلى النظام، إنها تخضع لمن ينظمها بعد. لو أنك تستطيع الحصول على أجنحة، وتطير في الهواء، فهنالك بين الأرض والسماء ترى صلابة الأرض، وسيولة البحر، ومجاري الأنهار، وخفة الهواء، ورهافة النار، وسريان الكواكب، وحركة السماء التي تغلفها، يا ولدي، فيا للمشهد العجيب!! كما سوف ترى في لحظة واحدة تحرك الثابت، وظهور اللامرئي في نظام وجمال العالم.

إذا أردت تأمل الخالق، حتى في الأشياء الفانية، في كل ماهو على الأرض أو في الأعماق، فكر يا ولدي، بخلق الإنسان في أحشاء أمه، وتفحص بدقة فن الصانع، وتعلم لتعرفه حسب جمال عمله الإلهي من الذي حرك كرويات العيون؟ من الذي ثقب الأنوف والاذان؟ من الذي فتح الفم؟ من الذي مد وبسط الأعصاب؟ من الذي رسم أقنية العروق؟ من الذي صلب العظام؟ من الذي غطى اللحم بالجلد؟ من الذي فصل الأصابع والأعضاء؟ من الذي وسع قاعدة الأرجل؟ من الذي ثقب المسام؟ من الذي مد الطحال؟ من الذي صنع مخروط القلب؟ من الذي وسع الخواصر؟ من الذي بسط الكبد؟ من الذي كون ثقوب الرئتين. وتجويف البطن؟ من الذي أبدى الأعضاء الشريفة وأخفى غيرها؟ انظر كم يوجد من الفن حول مادة واحدة، أي شغل لعمل واحد؛ وفي كل مكانِ الجمال، وفي كل مكانِ التناسق، وفي كل مكان التنوع. من الذي صنع كل هذه الأشياء؟ من هي الأم ومن هو الأب، إن لم يكن هو الرب الأحد اللامرئي الذي خلق كل شيء بإرادته.

لايمكن لأحد أن يدعي أن تمثالاً أو لوحة يمكن أن توجد بدون نحات أو رسام، وهذه الخليقة ألم يكن لها خالق؟ يا للعماء، ويا للكفر والجهالة! احترس يا بُنَيَّ تات، من تجريد العمل من العامل؛ أعطِ بالأحرى لله الاسم الذي يناسبه بصورة افضل، ادعه أب كل الأشياء، لأنه الوحيد، ووظيفته الخاصة أن يكون أباً؛ وإذا أردت استعمال عبارة قاسية، إن جوهره هو في أن يولِّد وأن يخلق. وكما أنه لايمكن لشيء أن يوجد دون خالق، كذلك هو بذاته لن يوجد إذا لم يخلق بدون انقطاع، في الهواء، على الأرض، في الأعماق، في العالم، في كل جزء من سكون، في مايوجد وفي مالايوجد. لأنه لايوجد شيء في العالم جميعه ليس هو، إنه ماهو كائن وماليس هو، لأن ماهو قد أظهره وماليس هو يرتبط به لذاته.

ذلك هو الله الأعلى في اسمه، الظاهر والباطن، الذي يتكشف للنفس، الذي يتكشف للعيون، الذي لاجسد له والذي له كثير من الأجساد، أو بالأحرى كل الأجساد، اذ ليس شيئاً الذي لايكونه وهو وحده كل شيء. ولهذا فإن له كل الأسماء، لأنه الأب الوحيد ولهذا لا اسم له لأنه أب الجميع. ماذا يمكن أن يقال عنك، ماذا يمكن أن يقال لك؟ أين سأحمل ناظري لأقدسك، في الأعلى، وفي الأدنى، في الداخل وفي الخارج؟ لاطريق ولامكان يكون خارجك، لاتوجد كائنات أخرى، كل شيء فيك، كل شيء يأتي منك، أنت الذي تعطي كل شيء لاتأخذ شيئاً لأنك تملك كل شيء ولايوجد شيء لايعود إليك.

متى سأمجدك، أيها الأب؟ اذ لايمكن فهمُ، لا زمنك ولا ساعتك. لماذا سأمدحك؟ أمن أجل ماخلقت أو من أجل مالم تخلق؟ من أجل ماتُظْهِر أو من أجل ماتُبْطِن؟ كيف سأمدحك؟ مثل شيء ما يعود لي ويخصني؟ أو كائن آخر؟ اذ أنَّك كل ماأستطيع أن أكونه، وكل ما أستطيع أن أفعله، إنك كل ما أستطيع قوله، فأنت كل شيء ولايوجد شيء لم تكنه؟ إنك كل ماولد وكل مالم يولد، الفكر العاقل، والأب الخالق، والله الفاعل، والخير صانع الأشياء كلها. مايوجد أكثر نعومة في المادة هو الهواء، وفي الهواء الروح، وفي الروح العقل، وفي العقل الله(١١).

---

(١١) يمكن أن نجد تشابهاً بين هذه الفقرة وبعض مقاطع من «باغاڤات ـ جيتا»: «أنت الذي لا يتجزأ، المادة الاسمى للعلم، ركيزة هذا الكون، الخالد، حارس السلطة الأبدي، أنت الأبدي، اراك لا بداية لك ولا وسط ولانهاية... أنت الاله الأول، المعرفة ومادة المعرفة، مكان العالم ومن خلالك أيها اللّامتناهي تطوّر الكون. أنت الأب وجد الأجيال. كلّ العبادات لك آلاف المرات، فلتعبد! من الأمام ومن الخلف، فلتعبد من كل الجهات، أيها الشامل! قدرتك وقوتك لامتناهيتان، تضمّ كل شيء وأنت كل شيء». (الفصل الحادي عشر، ص١٨ ، ٣٨ ، ٤٠).

ـ ٦ ـ

الخير في الله وحده وليس في مكان آخر

الخير، يا اسكليبيوس، ليس في جانب آخر سوى الله وحده، أو بالأحرى، إن الخير هو دائماً الله ذاته. فهو إذن جوهر ثابت، لامخلوق، حاضر في كل مكان، وله في ذاته فاعلية ثابتة، وكاملة تامة لاتستنفذ. الوحدة هي مبدأ الكل والخير هو مصدر الكل، وعندما أقول الخير، أقصد ماهو بكماله حسن دائماً[١٢]، وعلى ذلك، فإن هذا الخير الكامل لايوجد إلا في الله وحده، لأنه لاينقصه شيء مما يمكن للرغبة أن تجعله سيئاً، ولايمكن لشيء أن يضيع بما يمكن أن يصيبه الخسران؛ والحزن هو شكل من الألم. لاشيء أكثر قوة منه ولاغالب له، ولامثيل له ولا يوجد مايمكن أن يؤذيه أو يوحي له برغبة. ولايوجد شيء يستطيع بمعصيته له أن يثير غضبه، ولاشيء أكثر حكمة مما يستطيع أن يثير حسده.

ولأن كل هذا غريب عن جوهره، لايبقى له سوى الخير، وكما أنه لايوجد في هذا الجوهر شيء من السوء، فإن الخير لايمكن أن يوجد في أي واحد آخر. ويوجد التنوع في كل الكائنات الخاصة صغيرة كانت أم كبيرة، وحتى في الأكثر عظمة والأكثر قوة من كل الكائنات الحية. كل كائن مخلوق هو أهل، للولادة رديفة الهوى. وعلى ذلك، حيث يوجد هوى، لايوجد الخير؛ وحيث يكون هنالك خير لايوجد هوى. وكما أن النهار ليس هو الليل، كذلك الليل ليس هو النهار.

---

(١٢) أُفضِّل العودة الى ترجمة فيسين في ترجمة هذه الجملة التي تبدو لي أكثر وضوحاً منها في النص.

فالخير إذن لايمكن أن يوجد في الخلق وإنما فقط في اللامخلوق. فمادة الأشياء كلها تساهم بالخير كما في الموجود، وفي هذا المعنى يكون العالم جيداً، لأنه ينتج الأشياء كلها؛ فهو حسن بصفته يخلق، وفي كل ماتبقى ليس حسناً، لأنه قابل للتاثير، ومتحرك وينتج كائنات قابلة للتأثير.

وعندما يتعلق الأمر بالخير، في الإنسان، فذلك بمقارنته بالشر، فهنا على هذه الأرض كل ماليس بسيء جداً فهو حسن، والخير ليس سوى الأقل شراً. لكن الخير لايمكن أن يكون برمته طاهراً من الشر هنا على هذه الأرض؛ إنه يشاب بخلطه بالشر، وعندئذ يتوقف عن أن يكون الخير ويصبح الشر.

الخير لايوجد إذن إلا في الله وحده. أو أن الله هو الخير. وبين البشر لايوجد الخير يااسكليبيوس إلا باسمه وقطعاً ليس في الواقع. فالخير غير متلائم مع جسد مادي، مغلف من كل جوانبه بالشرور، وبالآلام، وبالرغبات، وبالغضب، وبالأخطار والآراء الفاسدة، لكن، أسوأ من كل ذلك يا اسكليبيوس، هو أنه ينظر هنا على هذه الأرض كخيرات لكل واحد من الآلام التي يتوجب تحاشيها، الاسراف في ملذات البطن والخطأ الذي يجر كل الآلام ويبعدنا عن الخير.

وبالنسبة لي، فإنني أشكر الله، الذي وضع في عقلي معرفة الخير، لأن الخير ذاته لايمكن أن يوجد في العالم؛ لأن العالم هو كمال الشر، والله هو كمال الخير، أو الخير كمال الله. فالشعاع الجميل حول الجوهر، إنه ربما الذي يبدو تحت شكله الأكثر شفافية والأكثر طهارة. لانخاف من قوله، يا اسكليبيوس، فجوهر الله، إذا كان مع ذلك لله جوهر، هو الجمال. الجمال والخير لايمكن وجودهما في العالم؛ وكل الأشياء المرئية ليست سوى صور وتخيلات. فخارج مايقع تحت الحس يجب البحث عن الجمال والخير، ولايمكن للعين أن تراهما لأنها

لاتستطيع رؤية الله؛ إنهما الجزءان اللذان لايتجزءان، والصفتان الخاصتان، لاتنفصلان ومرغوبتان جداً، يحبهما أو أنه المحبوب منهما.

إذا استطعت فهم الله، سوف تفهم الجمال والخير، الاشعاع النقي لله، الجمال الذي لانظير له والخير الذي لامثيل له، كالله نفسه. وبمقدار ما تفهم الله، بمقدار ماتفهم الجمال والخير؛ لايمكنهما الاتصال بالكائنات الأخرى،إذ لايمكن أن يكونا منفصلين عن الله. فعندما تبحث عن الله تبحث عن الجمال. الطريق الوحيد الذي يقود إليه هو التقوى المتصلة بالغنوص. فالجهلة، أولئك الذين لايسيرون على طريق التقوى، يجرؤون على دعوة الإنسان جميلاً وحسناً، ذلك الذي لم يَرَ، حتى ولا في الحلم، ماهو الخير، ذلك الذي يلفه الشر من كل الجوانب، الذي ينظر للشر كخير، سوف يتغذى دون أن يشبع.يخاف الخسارة ويجهد نفسه ليس للحفاظ عليه فحسب وإنما لزيادته. هذه الأشياء التي يجدها الناس جيدة وجميلة، يا اسكليبيوس، لانستطيع، لا أن نتجنبها، ولا أن نبغضها، لأن ماهو أكثر قسوة، هو أن لدينا بها حاجة وأننا لانستطيع العيش بدونها.

ـ ٧ ـ

أكبر شر بالنسبة للبشر هو الجهل بالله

أين تركضون أيها الناس السكارى؟ لقد شربتم خمر الجهالة، ولاتستطيعون تحملها، لقد ألقيتم بها فيما سبق. كونوا قنوعين وافتحوا عيون قلوبكم، إن لم يكن كلها فعلى الأقل تلك التي تستطيعونها. لأن مصيبة الجهالة تغرق الأرض كلها، وتفسد الروح المنطوية في البدن وتمنعها من الدخول إلى شاطئ السلامة. لاتدعوا أنفسكم تنقاد بالتيار؛

ارجعوا إذا استطعتم، إلى شاطئ السلامة! ابحثوا عن قائد يقودكم نحو أبواب الغنوص، حيث يتلألأ الضوء المنير، الصافي من الظلمات، وحيث لايسكر أحد، وحيث الجميع قانعون يديرون عيون قلوبهم نحو الذي يودون أن يكون مُتَأَمَّلاً، الخارق، الفائق الوصف، اللامرئي من العيون، المرئي للعقل وللقلب.

قبل كل شيء، يجب أن تمزق ذلك الرداء الذي ترتديه، هذا الثوب من الجهالة، مبدأ الشقاوة، سلسلة الفساد، غلاف مظلم، موت حي، جثة حساسة، قبر تحمله معك، لص خادم، عدو في الحب، حسود في الحقد. ذلك هو الثوب العدو الذي لبسته؛ إنه يجذبك نحوه للدرك الأسفل، وخوفاً من أن يجعلك مشهداً للحقيقة والخير تكره شقاوته، وتكتشف الأحابيل التي ينصبها لك مظلماً بالنسبة لك مايبدو لنا واضحاً خانقاً إياك تحت المادة، ويسكرك بالملذات الكريهة، كي لاتستطيع أن تسمع مايجب أن تسمعه بل مايجب عليك أن تراه[١٣].

ـ ٨ ـ

لاشيء يضيع ومن الخطأ أن يسمى التغيير موتاً وفناء

لنتحدث الآن يا ولدي، عن الروح والجسد، وعن خلود الروح، وعن تكوين الجسد وانحلاله. لأن الموت لايوجد؛ فكلمة فانٍ خالية من

(١٣) يمكن أن نجد تشابهاً بين هذه الفقرة مع رسالة القديس بول رومان، الفصل السابع، ص٢٣ و٢٤ :» أرى قانوناً آخر يسيطر على أعضاء جسمي وصراعاً يحتدم مع قانون ذكائي يجعلني اقع أسيراً لقانون الخطيئة الموجودة في أعضاء جسمي، تعيس من سيحررني من هذا الجسد الفاني!!

المعنى أو ليست شيئاً آخر سوى كلمة الخالد وقد فقدت أول مقطع منها. الموت سيكون التدمير ولاشيء يدمر في العالم. فإذا كان العالم هو الإله الثاني، حيواناً خالداً، فإن أي جزء من كائن حي وغير فان لايمكن أن يموت. وعلى ذلك، فإن كل شيء يشكل جزءاً من عالم، وبخاصة الإنسان الذي هو الحيوان المدرك. أول الكائنات هو الأزلي، اللامخلوق، الله خالق كل الأشياء. والثاني قد صنع على صورته؛ فالعالم هو الذي ولده، والذي يحفظه ويغذيه: لقد تلقى الخلود من أبيه إنه إذن حي دائماً. الخلود يختلف عن الأزلية. فالأزلي: لم يتولد من آخر، إنه أنتج ذاته، أو بالأحرى أبدع نفسه بصورة أزلية. ومن يقول أزلياً يقول شاملاً فالأب أزلي بذاته، والعالم تلقى من الأب الحياة المستمرة والخلود.

من كل المادة التي كانت له تحت قدرته، يصنع الأب جسم العالم، ويعطيه شكلاً كروياً وحدد فيه الخصائص وجعله خالداً ومادياً للأبد. بامتلاك الأب لكمال الأشكال ينشر الخصائص في الكرة ويحتويها في كهف[١٤] ويريد تزيين خليقته بكل الصفات. يحيط بالخلود جسم الكون، وخوفاً من أن تريد المادة التحلل، لاتدخل الفوضى التي هي طبيعية لها. إذ أن المادة كانت غير منتظمة حين كانت غير مجسّدة. وهنا حتى على هذه الأرض تحافظ على خيط رفيع في قدرة التزايد وفي قدرة التناقص التي يسميها البشر الموت. هذه الفوضى لاتحصل إلا في الحيوانات الأرضية، فالأجرام السماوية تحافظ على النظام الوحيد الذي تلقته من الأب منذ البدء والتي تحافظ على نفسها غير قابلة للذوبان بإعادة كل واحد من بينها. فالاعادة تحافظ على الأجساد الأرضية وانحلالها يعيدها للأجساد غير القابلة للانحلال أي الأبدية وهكذا يوجد حرمان من الإحساس وليس انحلال للأجساد.

والحيوان الثالث هو الإنسان، صُنِعَ على صورة الكون بإرادة

---

(١٤) فصّل بورفير مطولاً (فكرة تشبيه العالم بمغارة) في كتابه: مغارة الحوريات.

الأب، يمتلك زيادة عن الحيوانات الأرضية الأخرى، العقل؛ إنه على علاقة بالإحساس مع الإله الثاني، وبالفكر مع الأول، فيتبصر أحدهما كجسد، والآخر ككائن غير مجسد، العقل والخير.

تات: هذا الحيوان لايموت إذن؟

هرمس: تكلم جيداً يا بني، وافهم ماهو الله، والعالم، والحيوان الخاضع للانحلال. افهم أن العالم يأتي من الله وفي الله وأن الإنسان يأتي من العالم وفي العالم. مبدأ الكمال والدوام لكل الأشياء هو الله.

ـ ٩ ـ

عن الفكر والإحساس، الحسن والخير هما في الله وليس في مكان آخر

بالأمس، يا اسكليبيوس، تحدثتُ عن التلقين. واليوم أعتقد أنه من الضروري أن أفعل غير ذلك وأن أتحدث عن الإحساس. ويبدو أنه بين الإحساس والفكر هذا الفارق وهو أن أحدهما مادي والآخر أساسي. عند الحيوانات الأخرى، الإحساس، وعند الإنسان الفكر مرتبط بالطبيعة. الفكر يختلف عن العقل كما أن الألوهة تختلف عن الله؛ فالألوهة تتولد من الله والفكر يتولد من العقل؛ إنه أخت الكلمة وأحدهما يستخدم الآخر أداة. فكل كلمة تعبر عن فكر وكل فكر يبدو بالكلمة. فللإحساس والفكر تأثير إذن في الإنسان متبادل وهما مترابطان بما لاانفصام فيه. فلا يوجد فكر ممكن دون الإحساس ولا احساس من دون الفكر. ومع ذلك يمكن افتراض فكر دون إحساس، مثل الصور الخيالية التي ترى في الحلم؛ لكن يظهر أن العملين يحصلان في الحلم وأن الإحساس المثار يمر من حالة النوم إلى حالة اليقظة.

الإنسان يتألف من جسد وروح. وعندما يتوافق جزءا الإحساس، عندئذ يعبر الفكر المعقول بالعقل عن نفسه. فالعقل عندما يخصبه الله يدرك كل الأفكار، الحسنة، والأخرى الخاضعة لبعض التأثير الشيطاني. لامكان في العالم خال من الشياطين، وأتحدث عن الشياطين المنفصلة عن الله؛ فالذي يدخل فينا يزرع بذرة طاقته الخاصة، والعقل، بتلقيه هذه البذرة، يدرك الزناة، القتلة، قتلة الآباء، المجدفين الكفرة، الإرهابيين، المتقلبين في المصائب، وكل أعمال الشياطين الأخرى الشريرة.

بذور الله قليلة العدد، لكنها كبيرة، جميلة وحسنة، إنها الفضيلة، والتقوى والاعتدال. الورع هو معرفة الله(١٥)، ومن يمتلكه يكون ممتلئاً بالخيرات كلها؛ إنه يدرك أفكاراً إلهية ومختلفة عن أفكار عامة الناس. ولهذا فإن الذين هم في الغنوص لايسرهم أن يكونوا في العامة والعامة لاترضيهم. يظن بهم أنهم مجانين ويسخر الناس منهم، إنهم مكروهون ومحتقرون، ويمكن أن يتعرضوا حتى إلى الموت؛ لأننا كنا قلنا، ينبغي للخبث أن يسكن هنا في هذا الحضيض، فهو مكانه، والأرض مقره، وليس العالم كما يقول بعض المجدفين. لكن الإنسان الورع فوق الكل بتملكه للغنوص. كل شيء حسن بالنسبة له، حتى ماسوف يكون سيئاً بالنسبة للآخرين. تأملاته تعيد كل شيء للغنوص، وشيء رائع ذلك الذي يبدل الشرور بالخير.

أعود إلى خطابي عن الإحساس. الاتحاد الصميمي للاحساس والفكر هو خاصية الإنسان. كل الناس كما قلت، لايتمتعون بالعقل، بعضهم مادي، وبعضهم أساسي والخبثاء هم ماديون ويتلقون من الشياطين بذرة أفكارهم؛ وأولئك المتحدون في الجوهر مع الخير هم ممن ينجيهم الله. لقد خلق الله كل الأشياء وصنعها مماثلة له، لكن الخلائق

---

(١٥) يستشهد لاكتانس بهذه الجملة، الفصل الثاني، ص١٥ .

الجيدة هذه عقيمة في العمل[١٦]. حركة العالم ولدت نتاجات مختلفة، بعضها ملطخ بالشر، وبعضها مطهر بالخير. إن العالم يا اسكليبيوس، يملك إحساساً وفكراً غير مشابه لفكر الإنسان، ولكنه أعلى وأكثر بساطة. ليس للعالم سوى إحساس وفكر: خلق كل الأشياء وجعلها تعاود الدخول في ذاته. إنه الأداة لإرادة الله، ودوره أن يتلقى البذور الالهية، ليحافظ عليها، ولينتج كل الأشياء، وليذيبها، وليجددها. وكفلاح جيد للحياة، يجدد منتجاته بتحويلها، ويولّد كل حياة، يحمل كل الكائنات الحية، إنه في آن المكان والصانع للحياة.

تختلف الأبدان في مادتها؛ بعضها مكون من الأرض وبعضها الآخر من الماء، وثمة آخرون من الهواء، أو من النار. كلها مركبة لكن بعضها متقدم، والآخر أكثر بساطة؛ الأولون أكثر ثقلاً، والآخرون أكثر خفة. سرعة الحركة تنتج تنوع الأنواع: تنفسه المألوف يمد على الأبدان صفات متعددة مع الكمال الوحيد لشكل الحياة. الله هو أبو العالم، والعالم هو أبٌ لمافيه. والعالم ابن الله، وماهو في العالم خاضع له. العالم مزين، لأنه يزين الكل وينظم الكل بتنوع الأنواع، والحياة لاتستنفذ والنشاط ثابت وضرورة الحركة، واختلاط العناصر ونظام الخلائق.

عند جميع الحيوانات، يأتي الإحساس والفكر من الخارج، من الوسط المحيط؛ وتلقاه العالم مرة فقط في ولادته، وأخذه من الله. فالله غير محروم من عاطفة وفكر، كما يعتقد بعضهم، أن هذا لَتجديف وأضاليل. فكل مايوجد يا اسكليبيوس هو في الله، الله خلقه وهو يرتبط به، فالذي يعمل بواسطة الأبدان والذي يتحرك بالجوهر الحي؛ وكل مايحيا بالنفس، وكل مايستخدم وعاء للخلائق الفانية، كل هذا في الله. لا أقول فقط أنه يتضمن كل شيء، وإنما هو فعلاً كل شيء.

---

(١٦) عندما قرأت διαφορα بدلاً من ἀφορα, ترجمتها: «انهما تختلفان بالعمل»، يبدو لي ذلك أكثر وضوحاً.

لايستجر شيئاً من الخارج؛ يجعل كل شيء يخرج منه، الشعور والفكر الإلهي، هو الحركة الأبدية للعالم؛ أبداً في أي زمان لن يتلقى كائن ما، أي جزء من الله، لأن الله يتضمن كل الكائنات فلا شيء خارج عنه وليس خارجاً عن شيء.

هذه الأشياء يا اسكليبيوس، هي حقيقة عند من يفهمها؛ والجاهل يؤمن بها، لأن العقل هو الإيمان، فمن لايؤمن لايفهم، كلمته تدرك الحقيقة، والعقل كبير، يمكن عندما نظهر له الطريق، أن يصل إلى الحقيقة فعندما تتأمل حول كل الأشياء تجدها متفقة مع شروح الكلمة، إنها تؤمن وترتاح في هذا الإيمان السعيد. فالذين يعرفون الكلمات لديهم إيمان، والذين لايفهمون لايصدقون. هوذا مالديَّ من قول حول الإحساس والفكر.

ـ ١٠ ـ

المفتاح

هرمس مثلث العظمة لولده تات

بالأمس وجهت موعظتي إليك يا أسكليبيوس، ومن العدل أن أوجه اليوم موعظتي إلى تات، وبمقدار أكثر تلك هي خلاصة العموميات التي عرضتها له. إن لله وللأب والخير الطبيعة نفسها يا تات، أو بالأحرى الطاقة نفسها ، لأن كلمة تغيير التي تعني أيضاً التكاثر، تطلق على المخلوقات من إرادة الله، وهي يجب أن تفهم هنا سواء أكانت متغيرة أو دائمة، متحركة أو ثابتة، أي إلهية أو بشرية.

طاقة الله هي الإرادة، جوهره أن يريد مايكونه الكون؛ ذلك أن الله والأب والخير ليسوا سوى وجود ماليس بموجود بعد. وجود

الكائنات هذا، هوذا الله، هوذا الأب، هوذا الخير وليس شيئاً آخر. العالم أو الشمس، أبُ هذا الذي يشارك في الكينونة، مع ذلك ليس بالنسبة للأحياء سبب الخير والحياة؛ عمله هو الأثر الضروري لإرادة الخير ولايمكن لشيء بدونه أن يوجد ولا أن يصير. الأب هو سبب لأولاده، لولادتهم ولغذائهم؛ والخير يعمل بواسطة الشمس؛ فالخير هو المبدأ الخالق. ولايمكن لغيره أن يحصل على هذه الصفة، ولا أن يتلقى شيئاً، وأن يريد وجود كل الأشياء. لم أقل ياتات لانتاج كل شيء، لأن العمل الخلاق متناوب، تارة يبدع، وتارة لايبدع؛ أن يختلف في الصفة الكمية: تارة ينتج هذه الأشياء، أو تلك، وتارة يعارضها. لكن الله هو الأب والخير لأنه الوجود الشامل: وهكذا يمكن اعتباره؛ وذلك مايجب أن يكون؛ له هدفه في ذاته وهو هدف كل ماتبقى، خاصية الخير أن يكون معروفاً؛ ذلك هو الخير يا تات.

تات: لقد قدتنا يا والدي إلى تأمل الخير والجميل، وهذا التأمل قد قدس تقريباً عين عقلي، لأنه ليس كأشعة نار الشمس التي تبهر، وتجعل المرء يطبق عينيه. وعلى العكس فإن تأمل الخير يزيد بمقدار أكثر قوة النظر الذي به يكون المرء أكثر قدرة على تلقي فيوضاته من العظمة المثالية، إنه وضوح حي وثاقب، مسالم وممتلئ بالخلود. فالذين يستطيعون الارتواء منه غالباً مايدخلون عند تركه للجسد في الرؤية السعيدة، كأجدادنا أورانوس وكرونوس[١٧] فهل يمكن أن نجتمع بهم يا أبي؟.

هرمس: نتمنى ذلك، يا بني، لكن هذه الرؤية الآن هي فوق قوانا، فعيون عقلنا لايمكنها بعد أن تتأمل جمال الخير غير القابل للفساد وغير القابل للفهم. سوف تراها عندما لايكون لديك شيء لتقوله عنها؛ لأن الغنوص (العرفان)، التأمل، هو الصمت والراحة من كل إحساس،

(١٧) يلّمح لاكتانس في الفصل الأول ص٢ ، الى هذا المقطع.

فالذي يتوصل إليه لايمكن أن يفكر بشيء آخر، ولا أن ينظر شيئاً، ولا أن يسمع الحديث من شيء. حتى ولا تحريك جسده. لم يعد يوجد بالنسبة له، إحساس جسدي ولاحركة فالعظمة التي تغرق كل فكرة وكل روحه تنتزعه من روابط الجسد وتحوله برمته في جوهر الله. وتصل الروح البشرية إلى التأليه عندما تتأمل جمال الخير.

تات: ماذا تعني بالتأليه يا والدي.

هرمس: كل روح جزئية، يا ولدي، خاضعة لتغيرات متتابعة.

تات: ماذا يعنيه جزئي؟

هرمس: ألم تتعلم في العموميات، أن الروح الوحيدة للعالم تُخْرِج كل الأرواح التي تنتشر وتتوزع في كل أجزاء العالم؟ هذه الأرواح تجتاز العديد من التغيرات، أما السعيدة، وإما المناقضة، فالأرواح الزاحفة تمر في الكائنات المائية، وأرواح الحيوانات المائية في تلك التي تسكن الأرض، وأرواح الحيوانات الأرضية في الطائرة، والأرواح الهوائية في البشر؛ وتتوصل الأرواح البشرية للخلود بأن تصبح شياطين. وبالتالي تدخل في جوقة الآلهة الثابتة، لأنه توجد جوقتان للآلهة. بعضها هائم، والآخر ثابت؛ فهذه هي الدرجة الأخيرة من التلقين الماجد للروح. لكن الروح، بعد أن تدخل في جسد بشري، تبقى شريرة؛ لاتتذوق الخلود ولا تساهم في الخير. إنها ترجع إلى الوراء وتعاود الهبوط نحو الزواحف. ذلك هو عقاب الروح الشريرة، ومرض الروح هو الجهالة. فالروح العمياء، لاتعرف شيئاً عن الكائنات، لاعن طبيعتها ولا عن الخير وهي مغلفة في الشهوات الجسدية. التعيسة تتجاهل نفسها، وهي تستعبد بأجساد غريبة وكريهة؛ إنها تحمل وزر الجسد؛ وبدلاً من أن تقود فهي تنقاد. ذلك هو ألم الروح. وعلى العكس، فإن فضيلة الروح هي الغنوص (العرفان)؛ لأن من يعرف هو حسن، تقي وإلهي دائماً.

تات: ماهو، ياأبي.

هرمس: انه ذلك الذي لايتفوه ولايصغي كثيراً للكلام، ويمضي وقته بالجدل، يا ولدي، ذلك صراع ضد الأظلة، لأن الله، الأب، الخير، غير متكلم ولامسموع. للكائنات احاسيس، لأنها لايمكن أن توجد بدونها؛ لكن العرفان (الغنوص) يختلف كثيراً عن الاحساس. الاحساس هو أثر نخضع له، اما العرفان فهو نهاية العلم، والعلم هو أعطية من الله. لأن كل علم هو غير مجسد ويستعمل العقل أداة، مثلما يستعمل العقل الجسد. وهكذا استخدم الأول والآخر جسداً، إما عقلانياً أو مادياً؛ لأن كل شيء يجب أن ينتج عن تعارض الأضداد، ولايمكن أن يكون خلاف ذلك.

تات: ماهو إذن ذلك الإله المادي؟

هرمس: العالم الذي هو جميل ولكن ليس حسناً، لأنه مادي وقابل للتأثر، إنه أول الأشياء القابلة للتأثر، لكنه ثاني الكائنات ولايكفي نفسه بذاته، لقد ولد مع أنه كائن دائماً لكنه في الولادة، ويؤول الى الديمومة. الصيرورة هي تغير في الصفة وفي الكمية؛ كل حركة مادية هي ولادة، العقل يحرك المادة وهاكم كيف: العالم هو فلك، أي رأس؛ وفوق الرأس لاشيء مادي، وكما أنه لاشيء تحت الأقدام عقلاني، فكل شيء مادي. العقل كروي، مثل الرأس. وكل مايلامس غلاف هذا الرأس حيث وضعت الروح فهو خالد، كما لو أن له جسداً مغلفاً بالروح وبمزيد من الروح عن الجسد(١٨). لكن ماهو بعيد عن هذا الغلاف، حيث كل شيء له من الجسد أكثر مما له من الروح هو فانٍ. الكون حيوان مؤلف من مادة ومن عقل، العالم هو أول الأحياء (حيوانات)، الإنسان هو الثاني بعد العالم، وأول الفانين؛ وهو حي مثل بقية الحيوانات. ليس أنه غير حسن فحسب، بل هو سيء، طالما أنه فان.

(١٨) أقرأ πλήρει بدلاً من πλείω.

العالم ليس حسناً، لأنه متحرك؛ لكن طالما أنه خالد فهو ليس سيئاً. أما الإنسان طالما هو في آن واحد متحرك وفان، هو سيء.

وإليك كيف تكونت روح الإنسان: العقل يكون في الإدراك والإدراك في الروح والروح في النفس والنفس في الجسد. ان النفس الداخلة بالأوردة والشرايين والدم، تحرك الحيوان وتكاد تحمله. كذلك اعتقد بعضهم أن الدم كان الروح؛ وتلك معرفة للطبيعة بشكل سيء، فينبغي العلم بأن على النفس بدئياً أن تعود الى الروح، وأن الدم يتخثر عندئذ، وتفرغ الأوردة والشرايين ويهلك الحيوان. ذلك هو موت الجسد؛ فكل شيء يرتبط بمبدأ واحد وهذا المبدأ يخرج من الوحدة؛ فقد وضع في الحركة، ثم يعود من جديد مبدأً، لكن الوحدة هي ثابتة وغير قابلة للتحرك. إذن ثمة ثلاثة أشياء تؤخذ بعين الاعتبار: بدئياً الله وهو الأب والخير ثم العالم وأخيراً الإنسان. الله يحتوي العالم، والعالم يحتوي الإنسان. العالم ابن الله، والإنسان هو كفرع من العالم. الله لايجهل الإنسان، على العكس إنه يعرفه ويريد أن يكون معروفاً من قبله. السلام الوحيد للإنسان هو معرفة الله؛ ذلك هو طريق الصعود نحو الأوليمب؛ وبهذا فقط تصبح الروح حسنة، ليست تارة حسنة، وتارة سيئة ولكنها حسنة بالضرورة.

تات: ما الذي تريد أن تقوله يا مثلث العظمة؟

هرمس: تأمل يا ولدي، روح الطفل؛ فانفصاله لم يكتمل بعد؛ وجسده صغير ولم يتلق بعد نموه الكامل. جميل أن تراه، ولم يتلطخ بعد بأهواء الجسد، وهو شبه موصول بروح العالم، لكن عندما ينمو الجسد ويأخذ تمام كتلته، يكتمل الانفصال، ويحصل النسيان فيها، وتتوقف عن المساهمة في الجمال والخير. هذا النسيان يصبح عيباً. والشيء نفسه يحصل لتلك التي تخرج من الجسد؛ فالروح تدخل في

ذاتها، والنفس تنسحب الى الدم، والروح في النفس. بيد أن العقل المتطهر والمتحرر من أغلفته، الإلهي بطبعه، يأخذ جسداً من نار ويجوب النقاء تاركاً الروح للحكم والقصاص المستحقين.

تات: ماذا تود أن تقول يا والدي؟ فبما أنك قلت أن الروح كانت غلاف العقل وأن النفس غلاف الروح فالعقل اذن ينفصل عن الروح، والروح عن النفس.

هرمس: يجب يا بني على المستمع أن يتابع فكر من يتحدث وأن يشاركه فيه؛ ويجب أن تكون الأذن أكثر رهافة من الصوت. فهذا النظام من الأغلفة يوجد في الجسم الأرضي، ولايمكن للعقل المجرَّد تماماً أن يقوم في جسد من تراب، وهذا الجسد القابل للتأثر لن يتمكن من احتواء مثل هذا الخلود ولاحمْل مثل هذه الفضيلة. إن العقل يتخذ الروح غلافاً، والروح التي هي بذاتها إلهية، تتغلف بالنفس، والنفس تنتشر في الحيوان. وعندما يترك العقل الجسد الأرضي، سرعان ما يأخذ قميصه من النار، التي لم يستطع الحفاظ عليها عندما سكنت هذا الجسد الأرضي؛ لأن الأرض لاتتحمل النار التي تكفي شعلة واحدة منها لاحراقها. ولهذا يحيط الماء بالأرض ويشكل لها درعاً يحميها من لهيب النار. إلَّا أن العقل الأكثر نفاذاً للأفكار الإلهية، يملك النار عوضاً عن الجسد الأكثر نفاذاً للعناصر. إنه يعتبرها أداة لعمله الخلاق. فالعقل الشامل يستعمل كل العناصر، وعقل الإنسان وحده العناصر الأرضية. محروماً من النار، لايمكنه أن ينشئ أعمالاً إلهية، وخاضعاً كما هو للشروط الإنسانية. الأرواح البشرية، والتقيَّة منها تحديداً هي شيطانية وإلهية. وحين تنفصل عن الجسد وبعد أن تمتلك مسانده كفاح التقوى، التي تقوم على معرفة الله ولاتضر بأحد، فإنها (أي الروح) تصبح هكذا عقلاً تاماً. لكن الروح الكافرة تبقى في جوهرها الخاص وتعاقب ذاتها ساعية لادخالها في جسم أرضي، جسم بشري، لأن أي جسم آخر

لايمكن أن يتلقى روحاً إنسانية. ولن تقع في جسد حيوان بدون عقل؛ فالقانون الإلهي يحفظ الروح البشرية من مثل هذه الإهانة.

تات: كيف عوقبت إذن يا والدي؟

هرمس: هل يوجد عقاب أكبر من الكفر يا ولدي؟ هل يوجد لظى أكثر افتراساً؟ أية لدغة يمكن أن تمزق الجسد بمقدار مايمزق الكفر الروح؟ ألا ترى ماتعانيه الروح الكافرة، صارخة مدمدمة: «إنني أحترق، إنني أشوى! ماذا أقول، ماذا أفعل، تعيسة بائسة وسط آلام تفترسني؟ يا لسؤ حظي، لا أرى شيئاً!، لا أسمع شيئاً». ذلك هو صراخ الروح المعاقبة، لكنها لاتدخل في جسد الحيوانات، كما يعتقد عادة وكما يمكن أن تعتقده بذاتك يا ولدي؛ إن هذا خطأ لايغتفر. إن عقاب الروح شيء آخر. فعندما يصبح العقل شيطاناً، فإنه، تبعاً لأوامر الله، يتخذ جسداً من نار، يدخل في الروح الكافرة ويجلدها بسوط من آثامه. عندئذ تتردى الروح الكافرة في الأموات، في الإهانات، في التجديفات وفي العنف من كل نوع وكل التعاسات البشرية. لكنها بدخولها في الروح التقية يقودها العقل إلى نور العرفان (الغنوص). مثل هذه الروح لاتشبع أبداً من الترانيم والتبريكات من أجل كل البشر، وكل أعمالها وكل كلامها، هي أعمال خيرة، إنها صورة أبيها، فينبغي إذن تقديم الشكر إلى الله يا ولدي والطلب منه عقلاً جيداً.

الروح تغير شرطها للأفضل، وليس للأسوأ. فثمة تشارك بين الأرواح؛ فأرواح الآلهة تتواصل مع أرواح البشر، وهذه مع أرواح الحيوانات. فالأقوى يعتني بالأضعف، الآلهة بالبشر، والبشر بالحيوانات التي لاعقل لها، والرب بالجميع، لأنه يسمو على كل ماتبقى، وكل شيء هو أدنى منه. العالم خاضع لله، والله فوق كل شيء ويضم كل شيء. أشعة الله طاقات، وأشعة العالم هي الخلائق، وأشعة الإنسان هي الفنون والعلوم. الطاقات تؤثر على الإنسان عبر العالم وبأشعتها الخالقة،

والخلائق تؤثر بالعناصر، والإنسان بواسطة الفنون والعلوم. ذلك هو التعامل الشامل، لنتيجة الوحدة، التي يخترق العقل فيها كل الأشياء. لأنه لاشيء أكثر ألوهية وأكثر قوة من العقل، إنه يوصل الآلهة بالبشر والبشر بالآلهة. إنه هو الشيطان الطيب، فالروح السعيدة ممتلئة به، والروح الشريرة خالية منه.

تات: ماالذي تريد أن تقوله يا والدي؟

هرمس: أتعتقد إذن يا ولدي، أن لكل روح عقلاً جيداً؟ فأنا أتحدث عن هذا، ولا أتحدث عما هو لخدمة الروح ومايستخدم أداة للعدالة. فالروح بدون عقل لايمكن أن تتكلم، ولا أن تعمل. غالباً مايترك العقل الروح، وفي هذه الحالة، لاترى الروح شيئاً، ولاتسمع شيئاً، وتشبه حيواناً لاعقل له. تلك هي قدرة العقل. لكنه لايدعم الروح الآثمة ويتركها مرتبطة بالجسد الذي يجرها إلى الأسفل. مثل هذه الروح، يا بني، لا عقل لها، وفي هذا الشرط، لايمكن لإنسان أن يسمى إنساناً، لأن الإنسان هو حيوان إلهي ينبغي أن يقارن، ليس بالحيوانات الأرضية الأخرى، وإنما بحيوانات السماء التي تسمى الآلهة. أو بالأحرى ـ لئلا نخاف من قول الحقيقة ـ الإنسان الحقيقي هو فوقها أو مساويها على الأقل. لأن أياً كان من الآلهة السماوية لايترك فلكه كي يأتي إلى الأرض، في حين أن الإنسان يصعد إلى السماء ويقيسها. إنه يعرف مايوجد في الأعلى، ومايوجد في الأدنى؛ يعرف كل شيء بدقة، وماهو أصلح، وهو ليس به حاجة لأن يترك الأرض كي يرتفع. تلك هي عظمة شرطه. وهكذا، نجرؤ على القول بأن الإنسان هو إله فان، وإن إلهاً سماوياً هو إنسان خالد.

هكذا، كل الأشياء محكومة بالعالم وبالإنسان، وفوق الجميع هو الواحد الأحد.

ـ ١١ ـ

من العقل لهرمس

العقل: ضع نهاية لخطاباتك، يا هرمس المثلث العظمة، وتذكر ماقد قيل. سوف لن أتأخر عن ايضاح مقصدي.

هرمس: الآراء حول الكون وحول الله عديدة ومختلفة، ولا أعرف الحقيقة. أَبِنْي أيها العلم، فأنا لا أعتقد سوى بوحيك.

العقل: تعلم يا ولدي، ماهو الله والكون. الله، الأبدية، العالم، الزمن التكوُّن (المصير)؛ فالله يصنع الأبدية، والأبدية تصنع العالم، العالم يصنع الزمن، الزمن يصنع المصير. جوهر الله، بنوع ما الخير، الجمال، السعادة، الحكمة. وجوهر الأبدية هو الهوية، وجوهر العالم النظام، جوهر الزمن هو التغيير، جوهر المصير الحياة والموت. طاقات الله هي العقل والروح، وطاقات الأبدية الاستمرارية والخلود، وطاقات العالم التركيب والتحليل، طاقات الزمن الزيادة والنقصان وطاقة المصير هي الصفة. الأبدية في الله، والعالم في الأبدية والزمن في العالم، والتوليد في الزمن. الأبدية تثبت في الله. والعالم يتحرك في الأبدية، والزمن يكتمل في العالم، والتوليد يحدث في الزمن. قوة الله هي الأبدية، وعمل الأبدية هو العالم، الذي لم يحصل مرة، ولكنه يحصل دائماً بواسطة الأبدية. أيضاً لن يتلف أبداً لأن الأبدية غير قابلة للتلف، فلا شيء يفقد في العالم، لأن العالم مغلف بالأبدية.

هرمس: وحكمة الله، ماهي؟

العقل: الخير، الجمال، السعادة، كل فضيلة والأبدية. باختراق المادة، تعطيها الأبدية الخلود والدوام، لأن تكوّنها يرتبط بالأبدية كما أن الأبدية ترتبط بالله. إن التكوّن والزمن هما من طبيعتين مختلفتين في السماء وعلى الأرض، ثابتتين وغير قابلتين للفساد في السماء، متحركتين وقابلتين للتلف على الأرض. روح الأبدية هي الله، روح العالم هي الأبدية، وروح الأرض هي السماء. الله في العقل، والعقل في الروح، الروح في المادة، وكل هذا من خلال الأبدية. الروح تملأ هذا الجسد الشمولي الذي يتضمن كل الأجساد؛ العقل والله يملأان الروح. الروح، بإملائها للداخل وتغليفها للخارج تحمي الكون: في خارج هذا الحيوان الكبير والكامل، العالم؛ وفي الداخل، كل الكائنات الحية. هناك في السماء، تبقى في الهوية؛ وعلى الأرض هنا، تُحوِّل التوليد. الأبدية تدعم العالم بالضرورة، وبالنعمة الطبيعية؛ وقليلاً مايهم التفسير الذي يمكن اعطاؤه لها. الله يؤثر في كل العالم. طاقته قوة عليا لايمكن أن يقارن بها شيء إنساني أو إلهي. لاتعتقد إذن يا هرمس أن شيئاً لا في الأدنى ولا في الأعلى يكون مشابهاً لله؛ ستكون خارج الحقيقة. لاشيء يشبه مالاشبيه له، إنه الواحد الأحد. ولاتعتقد أن آخر يشاركه في قوته. في أي شيء آخر اختصاص الحياة، في الخلود أم تغيير الصفة؟ مايفعله الشيء آخر؟ إذ أن الله ليس عاطلاً، وبغير ذلك كل شيء يصبح ساكناً، لأن الله يملأ كل شيء. فالعطالة لاتوجد لا في العالم، ولافي مكان آخر، ولا في الخالق ولا في الخليقة، إنها كلمة فارغة. يجب أن تعج الأشياء كلها. ودائماً وفي كل مكان. لأن الخالق هو في كل شيء، ليس له مقر خاص؛ لايخلق شيئاً أو الآخر، وإنما الجميع؛ قدرته المبدعة لاتقيم في الكائنات التي يخلقها، وتلك التي تبقى تحت تبعيته.

تأمل بواسطتي العالم الذي يقدم نفسه لناظريك، راقب جماله

بعناية، ونشاطه المتجدد دائماً والمتنامي دائماً. انظر أيضاً العوالم السبعة المتوضعة في نظام أبدي وهي تتابع بصورة أبدية مسيراتها المختلفة. النور في كل مكان، والنار لاوجود لها، لأنه من الاقتران ومن اندماج الأضداد والأخلاف تَوَلَّد النور المتوهج بطاقة الله مُوَلِّد كل خير، ورئيس كل نظام، وموصل العوالم السبعة. والقمر الذي يفيدها بداية، أداة ولادة محولاً المادة الدنيا. الأرض مركز ثابت لهذا العالم العجيب، حاضنة ومغذية لكل ماتحمله. تأمل التعدد في الكائنات الحية، فانية وخالدة، والقمر الذي يميز الحد بين الجميع؛ والروح التي تملأ كل شيء، والتي تضع كل شيء متحركاً في السماء وعلى الأرض دون أن تدفع اليسار نحو اليمين، ولا اليمين نحو اليسار، ولا الأعلى نحو الأسفل ولا الأدنى نحو الأعلى.

أن يكون كل هذا قد تولّد، فليس لي حاجة لأقوله لك، يا عزيزي هرمس، لأن هذه أجساد ولها أرواح وهي في حركة. ولِتَتَآزر في الوحدة يلزمها مرشداً. فهو والحالة هذه موجود، وهو قطعاً وحيد؛ لأن الحركات مختلفة ومتعددة والأجسام متنافرة، ومع ذلك فالسرعة الكلية واحدة؛ فلا يمكن أن يوجد في ذلك خالقان أو أكثر، لأن المتعددين لن يحافظوا على وحدة النظام. وسيكون هنالك حسد وصراع بين الأكثر ضعفاً والأكثر قوة. وإذا كان أحد الاثنين خالقاً للكائنات متغيرة وفانية، فسوف يريد خلق كائنات خالدة، والعكس بالعكس. ولنفترض أنهما اثنان: المادة واحد والروح واحد فمن سيقود الخلق؟ وإذا ملكا شيئاً لهما، فلمن سيكون النصيب الأكبر؟ فافهم إذن أن كل جسد حي مؤلف من روح ومادة سواء أكان خالداً وفانياً أو محروماً من العقل. فكل الأجساد الحية هي ذات حياة، وتلك التي لاتعيش ليست سوى مادة. كذلك الروح لوحدها، بين يدي الخالق، هي سبب الحياة. مبدأ كل حياة ينتج كائنات خالدة[١٩]. فكيف إذن تختلف الحيوانات

---

(١٩) لا أجد التمييز بين المتحدثين الذي يعتمده بارتي عن تيدمان ضرورياً.

الفانية، بعضها عن البعض الآخر؟ كيف أن الكائن الخالد الذي يصنع الخلود، لن يصنع الحيوانات؟

اذن بالبداهة ثمة خالق، ومن الواضح جداً أنه واحد، لأن الروح واحدة، والمادة واحدة، والحياة واحدة. ومن يمكن أن يكون إن لم يكن الله الواحد؟ أي آخر سيتمكن من خلق الكائنات الحية، إن لم يكن الله وحده؟ عجباً! عندما لايوجد سوى عالم واحد، وشمس واحدة، وقمر واحد وألوهة واحدة، وتود أن يكون الله متعدداً! أليس هذا، إذن نفسه الذي يؤثر بطرق عديدة؟ وما المدهش في أن يصنع الله الحياة والروح والخلود والتغيير، مادمت أنت نفسك تفعل أعمالاً مختلفة؟. فأنت ترى وتتكلم وتسمع وتدرك الروائح، وتتذوق، وتلمس الأشياء، وتمشي، وتفكر وتتنفس. لايوجد كائن يرى، وآخر يتكلم، وآخر يلمس وآخر يشم وآخر يمشي وآخر يفكر وآخر يتنفس؛ إنه نفسه الذي يفعل كل هذا. وإذا كانت إحدى هذه الوظائف تستريح، فإن الحيوان الحي لن يكون بعد؛ كذلك الأمر، إذا استراح الله من وظائفه الإلهية، الأمر، الذي لايمكن أن يفترض، فإنه لن يكون إلهاً. لأنه ان يثبت أن شيئا لايمكن أن يكون عاطلاً وخاملاً، فإن الله هو الأولى بأن لايكون كذلك. فإذا أمكن الافتراض أن شيئاً ما لايفعل، فسيكون ناقصاً. لكنه ليس عاطلاً، إنه كامل، إذن فهو يفعل كل شيء.

أعرني انتباهك أيضاً يا هرمس، وستعرف جيداً، إن عمل الله هو واحد، هو توليد مايولد، ما ولد وماسوف يولد. هذا العمل، يا عزيزي، هو الحياة، إنه الجمال إنه الخير، إنه الله. وإذا أردت أن تفهم بمثال، انظر مايحصل لك عندما تريد أن تُولِد؛ ماعدا فارق واحد، هو أنه لايوجد بالنسبة له لذة، لأنه لم يشاركه أحد في عمله؛ فهو في آن واحد الخالق والخليقة. فإذا انفصل عن عمله، ينهار كل شيء، وسيتلف كل شيء حتماً، لأن الحياة سوف تنسحب. لكن إذا كان كل شيء حياً، وإذا كانت الحياة واحدة هي الله، فكل شيء يأتي إذن من الله.

الحياة هي اتحاد العقل والروح؛ والموت ليس تدميراً لما كان قد توحد، وإنما فصل الوحدة. [صورة الله هي الأبدية، ومن الأبديةالعالم، ومن العالم الشمس، من الشمس الإنسان][20]. الشعوب تسمي الموت التحول، لأن الجسد يتحلل وتتوقف الحياة عن الظهور. لكن بالطريقة ذاتها يا عزيزي هرمس، يمكن أن تسمع قولاً بأن العالم يتحول ذاتياً باستمرار؛ ففي كل يوم يختفي قسم منه دون أن يتحلل أبداً. هذه الدورات وهذه الاختفاءات هي انفعالات (مظاهر) العالم. الدورة عودة، الاختفاء تجديد. للعالم كل الأشكال؛ ليست خارجة عنه، وتتحول في ذاتها. لكن إذا كان للعالم كل الأشكال، فمن سيكون خالقه؟ لايمكن أن يكون بدون شكل، وإذا كانت له بذاته كلها، فسيكون مماثلاً للعالم. وإذا كان له شكل واحد، سيكون في هذا أدنى من العالم. فماذا نقول عنه إذن، لكي لايقال عنه شيء ناقص؟ لأنه لايمكن القول بالنقصان عن الله. له شكل واحد خاص به، لايظهر لعيون الأبدان والتي يظهرها جميعاً بواسطة الأبدان. ولاتعجب إن له في ذلك شكلاً غير مجسد. إنه في ذلك بشكل خطاب أو هوامش مخطوط تتجاوز الخطوط وهي ناعمة ومتساوية.

فكر حول لفظة أكثر غلظة وأكثر حقيقة، فكما أن الإنسان لايمكن أن يعيش بدون حياة، كذلك الله لايمكن أن يعيش دون فعل الخير. حياة وحركة الله هي في أن يحرك وأن يحيي. لبعض الكلمات معنى خاص؛ وهكذا فكر بما قلته: الكل في الله، ليس مثل مايوضع في مكان، لأن المكان مجسد وغير متحرك، والأشياء التي في مكانها لاحركة لها. إنه في غير المجسد بصورة أخرى عما في الظاهر. فكر بأنه يغلف الكل، فكر بأنه لايوجد ماهو أسرع، وماهو أوسع، وماهو أقوى

(٢٠) كان يجب أن يُبدل الناسخ موضع هذه الجملة.

من غير الجسد؛ إنه يتجاوز كل شيء بالقدرة، وبالسرعة والقوة. فكر تبعاً لذاتك أنت؛ اطلب لروحك أن تذهب إلى الهند، وتكون فيها أسرع من أمرك؛ أطلب إليها أن تمضي نحو المحيط. وأن تكون فيه فوراً، ليس بالمرور من مكان آخر، ولكن فوراً. اطلب إليها أن تصعد في السماء وأن لاتكون بحاجة للأجنحة؛ فلا شيء سوف يوقفها، لا نار الشمس ولا الأثير ولا العاصفة ولا مجموعات النجوم؛ سوف تجتاز كل شيء وسوف تحلق حتى آخر جرم. أتريد أن تعبر هذا الحد وتتأمل بما هو خارج العالم، إذا كان هنالك شيء ماتستطيعه. أنظر أية قوة، أية سرعة تمتلكها. وماتستطيعه، الن يستطيعه الله؟

افهم الله كما لو أن له بذاته كل أفكاره، والعالم بأكمله. إذا لم تستطع أن تتماثل مع الله لايمكن أن تفهمه. فالمثيل يفهم المثيل. زد لنفسك عظمة هائلة، تجاوز كل الأجسام اجتز كل الأزمنة، كُنِ الخلود وسوف تفهم الله. لاشيء يمنعك أن تفترض نفسك خالداً وعالماً بكل شيء، الفنون، والعلوم وعادات كل الحيوانات. ارتفع بنفسك فوق كل ارتفاع، اهبط إلى تحت كل عمق؛ اجمع في ذاتك كل الأحاسيس للأشياء المخلوقة، من الماء، من النار، من الجاف، من الرطب. افترض أنك في آن واحد في كل مكان، على الأرض، في البحر، في السماء؛ وبأنك لم تخلق أبداً، وأنك لاتزال جنيناً، وأنك شاب، شيخ، ميت، ماوراء الموت. افهم كل شيء في آن واحد: الأزمنة، الأمكنة، الأشياء، الصفات، الكميات وسوف تفهم الله. لكن إذا احتويت روحك في الجسد وإذا حططت بها وإذا قلت: لا أفهم شيئاً، لا أستطيع شيئاً، لا أعلم لا من أنا، ولا ما سأكون، فماذا يكون لك من شيء مشترك مع الله؟ إذا كنت سيئاً ومتعلقاً بالجسد، فما الذي تستطيع أن تفهمه من الأشياء الحسنة والجميلة؟ فكمال الشر هو تجاهل الإلهي؛ لكن القدرة على معرفته، وإرادته والأمل به، فتلك هي الوسيلة للوصول إلى الخير

بطريق مباشر، موصول وسهل. باتباعه سوف تصادفه في كل مكان، سوف تراه في كل مكان، في اليقظة في السهاد، في البحر في السفر، في الليل والنهار، متحدثاً، ومحافظاً على الصمت. لأنه ليس بشيء ما لن يكون صورة الله.

هرمس: هل الله غير مرئي؟

العقل: لاتقل هذا، ماهو أكثر وضوحاً منه؟ إذا كان خلق كل شيء، ذلك من أجل أن نتمكن من رؤيته عبر كل الأشياء. ذلك هو هنا خير الله، ذلك هو هنا فضيلته، أن يظهر في الكل. لاشيء غير مرئي حتى بين اللامتجسدات. فالعقل يرى نفسه في الفكر، والله في الخلق.

ذلك هو ماكشفته لك أيها المثلث العظمة؛ أما فيما تبقى ففكر فيه في ذاتك ولن تضِلَّ أبداً..

ـ ١٢ ـ

عن العقل العام
من هرمس المثلث العظمة إلى ابنه تات

العقل، ياتات، يعود لجوهر الله نفسه، إذا كان للإله مع ذلك جوهرٌ، فهو وحده يستطيع معرفته بدقة. فالعقل إذن غير منفصل عن طبيعة الله، إنه مرتبط به كارتباط الشمس بنورها. هذا العقل هو الله الذي هو فينا، إنه به يكون بعض الناس آلهة وإن إنسانيتهم مجاورة للألوهة. يقول الشيطان الطيب، في الواقع، إن الآلهة هي أناس خالدة وأن الناس هي آلهة فانية. في الحيوانات بدون إدراك، العقل هو الطبيعة؛ لأنه حيث توجد روح يوجد عقل، كذلك حيث تكون الحياة، يكون

هنالك أيضاً روح. لكن في الحيوانات بدون إدراك تكون الروح حياة خاصة للعقل. العقل هو الهادي الخير للأرواح البشرية، إنه يقودها نحو الخير. عند الحيوانات يعمل في اتجاه طبيعتها، وعند الإنسان في اتجاه مخالف. لأنه منذ أن تدخل الروح في الجسد، تنشط بالألم وباللذة، اللذان هما مثل فوحان صادر عن الجسد وحيث تنزل الروح وتغوص. العقل، باكتشافه لعظمته، وللأرواح التي يديرها، يصارع ضد ميولها، شأنه شأن طبيب يستعمل النار والحديد ليكافح أمراض البدن ويؤدي به إلى الصحة. هكذا فإن العقل يعاقب الروح بأن يبعدها عن اللذة التي هي منبع كل أمراضه. مرض الروح الأكبر هو الابتعاد عن الله؛ إنه الخطأ الذي يؤدي إلى كل الآلام دون أي خير. العقل يحاربها ويوصل الروح إلى الخير، كالطبيب يرد الصحة للجسد. الأرواح البشرية التي ليس لها عقل يقودها هي في نفس حالة عقول الحيوانات بدون إدراك. يتركها العقل للانفعالات، التي تجرها بالطعم للرغبة نحو اللامعقول ومثل الغريزة غير المفكرة للحيوانات. أنواع شهواتها وغضبها، العمياء أيضاً، تدفعها نحو الشر بدون أن تشبع أبداً. ضد هذا التجاوز للحدود من الشر أقام الله سداً، وعقاباً، ذلك هو الشريعة.

تات: يبدو هذا يا والدي، مخالفاً لكل ماقلته لي سابقاً حول موضوع القدر فإذا كان هذا أو ذاك مقدراً حتماً له أن يرتكب الزنى، التجديف، أو غير ذلك من الجرائم، فلماذا يعاقب، عندما يعمل وفقاً لاقتضاء مقدر؟

هرمس: كل شيء خاضع للمقدر، يا ولدي، وفي الأشياء المجسدة (المادية) لايصل شيء خارجه، لاخير ولاشر. إنه مقدر على من يعمل شراً أن يعاقب، وهو يفعل بهدف أن يتحمل العقاب عن فعله. لكن لندع مسألة الشر والقدر، التي عالجناها في مكان آخر. ولنتكلم الآن عن العقل وقدرته وعن آثاره، والمختلف في الناس وفي الحيوانات

غير العاقلة، التي لايمارس عليها تأثيره الحسن، في حين أنه عند الإنسان يطفئ الأهواء والرغبات. لكن بين البشر ينبغي أن نميز المدركين العاقلين عمن لاإدراك لهم. كل البشر خاضعون للقدر، للطبيعة وللمصير والتغيير، التي هي مبدأ و غاية المقدر، وكل البشر يعانون مما هو مقدر عليهم. لكن العقلاء الذين هم كما قلنا، موجَّهون بالعقل، لن يعانوا مايعانيه الآخرون، إنهم غريبون عن الشر، وبكونهم ليسوا أشراراً، لايعانون من الشر.

تات: ما الذي تود قوله يا والدي؟

هرمس: أليس الزنى سيئاً، أليس القتل سيئاً؟ ولأن العاقل لايرتكب الزنى، فسوف يعاني، انما كزنى، ولأنه لايقتل، سوف يعاني، ولكن كقاتل[٢١]. من المستحيل الخلاص من شروط التغيير كما من شروط الولادة، لكن من لديه العقل يمكنه أن يتجنب العيب. أيضاً يا ولدي، غالباً ماسمعت القول عن الجني الطيب، وإذا كان قد كتب بأنه كان يؤدي خدمة كبرى للبشر؛ فلأنه وحده يا بني، مثل أول مخلوق، عرف كل شيء ونطق بكلمات إلهية؛ والحالة هذه فقد سمعته يقول أن الكل هو واحد، ولاسيما الأجسام المدْرِكة، وبأننا نعيش في قوة، وفي عمل، وفي أبدية؛ كذلك فإن العقل الحسن (لكل واحد) يشبه روحه. ولأن الأمر كذلك، فلا شيء منفصل عن المعقولات؛ وهكذا العقل، مبدأ كل الأشياء وروح الله، يستطيع فعل كل مايريد. ففكر إذن واحمل هذا الكلام على السؤال الذي كنت طرحته علي في موضوع حتمية العقل. لأنه بوضع الكلمات التي تتعرض للنقاش جانباً، سوف تجد يا بني، أن العقل، روح الله يسود في الحقيقة كل الأشياء، والقدر، والشريعة وكل ماتبقى. فليس هنالك مستحيل عليه، لا بوضع الروح فوق القدر، ولا بإخضاعها للمصير بجلعها لامبالية بالأحداث. ذلك هو ماكان يتحدث به هذا الجني الطيب.

---

(٢١) تبدو لي هذه الجملة غامضة، ربما يوجد فيها ثمة خطأ أو ثغرة ما.

تات: هذه كلمات إلهية، حميمة ومفيدة، ولكن هنالك إيضاح أيضاً: لقد قلت، إنه في الحيوانات غير المدركة، يعمل العقل وفقاً للطبيعة وفي اتجاه غرائزها؛ لكن غرائز الحيوانات غير المدركة هي على مايبدو لي أهواء؛ فالعقل هو إذن هوى لأنه يمتزج مع الأهواء؟

هرمس: حسناً يا بني، إن اعتراضك جاد ويجب عليّ أن أرد عليه. كل مايوجد من غير المتجسد في الجسد هو سلبي وذلك هو فعلاً مانسميه هوى. إذ أن كل محرك هو لامادي وكل متحرك هو مادي. فاللامادي يتحرك بالعقل، والحركة هي هوى. المتحرك، هذا الذي يأمر وهذا الذي يطيع هما إذن سلبيان. لكن بانفصالهما عن الجسد، يتخلص العقل من الهوى. أو بالأحرى يا ولدي، لايوجد شيء ممتنع عن الألم (غير متأثر به)، فكل شيء هو سلبي. لكن الهوى يختلف عن السلبي: أحدهما يؤثر والآخر يتحمل. وللأجساد نفسها طاقة خاصة سواء أكانت متحركة أو غير متحركة، إنه هوى دائم. لكن غير مضطرب دائماً، وبالنتيجة سلبي. لاتدع نفسك إذن تضطرب بالكلمات؛ التأثير أو الهوى إنه واحد، لكنه ليس ثمة شر بأن تستخدم العبارة الأكثر نبلاً.

تات: هذا الشرح واضح جداً يا والدي.

هرمس: لاحظ، إضافة لذلك، يا بني، أن الإنسان تلقى عن الله، زيادة عن جميع الحيوانات الفانية، هبتين مساويتين للخلود والمعرفة: العقل والإدراك، وفوق هذا، إنه يمتلك الإدراك التعبيري (اللغة). فإذا جعل لهاتين الهبتين استعمالاً مناسباً، فإنه لن يختلف في شيء عن الخالدين؛ وبخروجه من الجسد، سوف يرتفع، مُعَاداً بالعقل والكلام، نحو جوقة السعداء والآلهة.

تات: والحيوانات الأخرى، أليس لها استعمال الكلام يا أبتي؟

هرمس: كلا يا بني، لها الصوت فقط، الكلام والصوت

مختلفان جداً. فالكلام مشترك لدى كل البشر والصوت مختلف في كل نوع من الحيوانات.

تات: لكن يا والدي، إن اللغة تختلف أيضاً عند البشر من أمة لأخرى.

هرمس: اللغة تختلف، لكن الإنسان هو نفسه؛ ولهذا فإن الإدراك المحكي واحد، وبالترجمة يلاحظ أنه نفسه، في مصر، في فارس، في اليونان. ويبدو لي يا بني، أنك تتجاهل فضيلة وعظمة الكلام. إن الإله السعيد، الجني الطيب، قال أن الروح هي في الجسد، والعقل في الروح والكلمة (إدراك محكي) في العقل، وأن الله هو أب لكل هذا. فالكلمة هي إذن صورة العقل والعقل صورة الله، والجسد هو صورة الفكرة، والفكرة هي صورة الروح. والجزء الأكثر رقة من المادة هو الهواء، ومن الهواء الروح، ومن الروح العقل، ومن العقل الله(٢٢). الله يغلف ويخترق الكل، العقل يغلف الروح، الروح تغلف الهواء، الهواء يغلف المادة. ان الضرورة، والعناية والطبيعة هي أدوات العالم والنظام المادي. كل واحد من المعقولات جوهر، وجوهرها الهوية. كل واحد من الأجسام التي تؤلف الكون متعدد؛ إذ أن للأجسام المركبة هوية في ذاتها وتتحول إحداها في الأخرى محافظة على الهوية بدون مس بها. في جميع الأجساد الأخرى المركبة يكون العدد لكل واحد، لأنه بدون العدد لايمكن أن يكون فيها، لاتركيب ولا اندماج، ولا انحلال. فالوحدات تولد الأعداد وتضاعفها، وبالانفصال تعاود الدخول في ذاتها. فالمادة واحدة، والعالم برمته، هذا الإله الكبير، صورة الإله الأعلى، المتصل به الحافظ للنظام القائم بإرادة الأب، هو كمال الحياة. ولايوجد فيه شيء، وفي كل أبدية التكوين التي تلقاها من الأب،

---

(٢٢) تتكرر هذه الجملة ذاتها في نهاية الفقرة الخامسة من كتاب «الله غير المرئي جلي للغاية».

لايوجد شيء، لا في الإجمال ولا في أي واحد من الأجزاء، الذي لم يكن حياً، لم يكن شيء ميت في العالم ولايكون ولن يكون. الأب أراد أن يكون حياً طالما سوف يدوم. فهو بالضرورة إذن إله. كيف في الله، في صورة الكون، في كمال الحياة، يمكن أن توجد أشياء ميتة؟ إن جثة ما، تلك هي التي تفسد، تلك هي التي تُدَمَّر؛ فكيف جزء مما هو غير قابل للفساد يمكن أن يفسد، وكيف يمكن أن يهلك شيء ما من الله؟..

تات: الكائنات الحية التي هي فيه، والتي هي أجزاء منه لاتموت إذن يا والدي؟

هرمس: لاتقل هذا يا ولدي، إنها عبارة مغلوطة؛ لاشيء يموت، لكن كل ماهو مركب ينقسم، وهذا الانقسام ليس موتاً، إنه تحليل لتركيب؛ لكن غاية هذا التحليل ليست التدمير، إنها التجديد. فما هي طاقة الحياة في الواقع؟ أليست هي الحركة؟ وما الذي يوجد غير متحرك في العالم؟ لاشيء يا ولدي.

تات: والأرض نفسها ألا تبدو لك غير متحركة يا والدي؟

هرمس: كلا يا ولدي، يوجد فيها كثير من الحركة في الوقت الذي تكون فيه ثابتة. ألا يكون من السخف افتراضها غير متحركة، وهي الحاضنة الشمولية، التي تولِّد كل شيء وتنمي كل شيء؟ لايمكن أن يكون فيها إنتاج دون حركة. إنها لمسألة مضحكة أن تسأل عمّ ان يكن القسم الرابع من العالم خامداً عاطلاً، لأن جسماً غير متحرك لايعني شيئاً آخر سوى العطالة. فلتعلم إذن يا بني، أن كل مافي العالم بدون استثناء هو مقر لحركة، سواء للزيادة أو النقصان. وعلى ذلك فإن كل مايتحرك هو حي، والحياة الشاملة هي تحول ضروري فالعالم في مجمله، لايتغير، يا بني، لكن كل أجزائه تتحول. لاشيء يضيع ولاشيء يُدَمَّر، لكنه يوجد اختلاط في الكلمات؛ وهذا ليس الولادة التي هي الحياة، إنه الإحساس. هذا ليس التغيير الذي هو الموت، إنه

النسيان. وإذا كان كذلك، فإن كل شيء هو خالد، المادة، الحياة، العقل، الريح، الروح، وكل مايُكَوِّن الكائن الحي. كل حيوان هو إذن خالد بالعقل، وبخاصة الإنسان الذي هو قادر على أن يستقبل الله والذي يشارك في جوهره. لأنه الحيوان الوحيد الذي يكون في اتصال مع الله، والليل بالأحلام، والنهار بالرموز (النبوءات الفأل). الله يُعْلِمُه المستقبل بكل أنواع الطرق، بالطيور، بالأحشاء، بالريح، بالسلسلة. يمكن للإنسان أن يقول أنه يعرف الماضي والحاضر والمستقبل.

تأمَّل هذا أيضاً يا ولدي، أن كل واحد من الحيوانات الأخرى لايعيش سوى في جزء من العالم: الحيوانات المائية في الماء، الحيوانات البرية على الأرض، الطيور في الهواء، بينما الإنسان يستعمل كل العناصر، الأرض، الماء، الهواء، النار. حتى أنه يرى السماء ويلمسها بهذا الإحساس.

إن الله يغلف كل شيء ويخترق كل شيء، لأنه العمل والقوة، ولايوجد شيء من الصعوبة في إدراك الله. لكن إذا أردت أن تتأمله يا بني، انظر إلى نظام العالم وإلى جماله، والضرورة التي ترأس مظاهره، والعناية التي تنظم ماكان وماسيكون؛ انظر الحياة تملأ المادة، والحركة لهذا الإله الكبير مع كل الآلهة الأخرى حسنة وسيئة، ومع الشياطين والبشر.

تات: لكنها مجرد طاقات خالصة يا والدي؟

هرمس: إنها طاقات، فمن يجعلها تؤثر إن لم يكن الله؟ هل تجهل أنه إذا كانت السماء والأرض والماء والهواء تشكل جزءاً من العالم، كذلك فإن الحياة والخلود يشكلان جزءاً من الله، والطاقة والريح والضرورة والعناية والطبيعة والروح والعقل، واستمرارية كل هذه الأشياء التي نسميها الخير؟ لاشيء يوجد في ماهو أو مايحصل حيث لايكون الله.

تات: إنه إذن في المادة يا والدي!.

هرمس: المادة، يا بني، هي خارج الله، إذا أردت أن تسند إليها مكاناً خاصاً؛ لكن المادة التي لم تحرك هل هي شيء آخر سوى كتلة مختلطة؟ وإذا حركت أليس ذلك بطاقات، وقد قلنا إن الطاقات هي أجزاء من الله. ممّن يتلقى الأحياء الحياة والخالدون الخلود؟ من الذي ينتج التحول؟ سواء أكان مادة، أجراماً أو جواهر، اعلم أنها هنا طاقات الله، طاقة مادية في العالم وطاقة مجسمة في الأجرام، وطاقة جوهرية في الجوهر. كل هذا المجموع هو الله، وفي العالم لايوجد شيء لايكون إلهاً. وهكذا، لايوجد لا عظمة، ولا صلة، ولاصفة، ولاشكل ولازمان خارج الله، لأنه كل شيء يخترق كل شيء، يغلف كل شيء، أعد هذه الحكمة واسجد يا بني، وقدم لله عبادتك الوحيدة المناسبة، كي لاتكون سيئاً.

ـ ١٣ ـ

عن البعث وقاعدة الصمت «موعظة سرية على الجبل»

تات: في الخطابات العامة، تكلمت يا والدي، بأحجية حول الألوهة، ولم تكشف معنى كلماتك عندما قلت أنه لايمكن لشيء أن ينجو دون التولد مجدداً. وبعد الكلمات التي كنت قلتها لي في ممر الجبل، أتوجه إليك متضرعاً راغباً في أن أتعلم كلمة البعث التي كانت مجهولة عندي اكثر من كل ماتبقى، وقد قلت لي أنك سوف تنقلها إلي عندما أصبح غريباً عن العالم؛ وقد أعددت نفسي بناءً على ذلك لجعل فكري غريباً عن وهم العالم. فخذ بيدي الآن، حسب وعدك،

إلى التلقين الأخير عن البعث، سواء بوساطة الصوت، أو عبْر طريق خفي. فأنا أجهل، أيها المثلث العظمة، من أية مادة، ومن أي رحم، ومن أية بذرة، ولد الإنسان.

هرمس: يا بني، إن الحكمة المثالية هي في الصمت، والبذرة هي الخير الحقيقي.

تات: من يغرسها يا والدي، لأنني بحاجة لمعرفة كل شيء؟.

هرمس: إرادة الله يا بني.

تات: ومن أين ولدها يا والدي؟ وهي المحرومة من الجوهر المعقول الذي هو فيَّ؟ وسيكون الآخر الإله المتولد، ابن الله.

هرمس: الكل في الكل، مؤلف من كل القوى.

تات: ذلك لغز يا والدي، ولم تكلمني كوالد يتحدث إلى ابنه.

هرمس: هذا النوع من الحقيقة لايُتعلم، يا بني، إنه يُتذكر حين يشاؤه الله.

تات: كلماتك مستحيلة، ومنتزعة بالقوة يا والدي؛ أريد أن أُجيبك بدوري. هل أنا غريب، ابن عرق آخر؟ لاتبعدني يا والدي، إني ابنك الحقيقي؛ اشرح لي طريقة البعث.

هرمس: ماذا أقول لك يا بني؟ لاشيء لدي لأقوله سوى هذا: إن نظرة فائقة الوصف حصلت فيَّ. برحمة الله خرجتُ من ذاتي، ارتديتُ جسداً خالداً، لم أعد نفسي، لقد ولدتُ في عقل. هذا لايتم تعلمه بوساطة هذا العنصر المعدل الذي نرى بمعونته، ولهذا لن أقلق من شكلي المركب الأول، حتى إذا كنت ملوناً، محسوساً ويمكن قياسه، إنني غريب عن كل هذا. تراني بعينيك وتفكر بجسد وبشكل مرئيين، وليس بهاتين العينين يراني الآخرون يا ولدي.

تات: إنك تجعلني أكاد أجن، لقد أفقدتني صوابي يا والدي؛ إنني لا أرى، لم أعد أرى ذاتي الآن.

هرمس: هل تستطيع يا بني الخروج من ذاتك دون أن تنام، كما في النوم ننتقل إلى الحلم!

تات: قل لي هذا أيضاً: من هو مُوَلِّد البعث.

هرمس: ابن الله، الإنسان الأحد، بإرادة الله.

تات: الآن يا والدي، جعلتني أخرس، لا أعلم بماذا أفكر، لأنني أراك دائماً بالعظمة ذاتها ومع الصورة نفسها.

هرمس: حتى في هذا تخطئ، لأن الأشياء الفانية تغير مظهرها كل الأيام، والزمن يزيدها أو ينقصها، أنها ليست سوى كذبة.

تات: ماهو الصحيح إذن أيها المثلث العظمة؟

هرمس: من ليس مضطرباً، يا ولدي، من ليس له حدود، ولا لون ولاشكل: الأزلي، المجرد، المنير؛ وهذا الذي يعرف ذاته. واللّامتغير، والخير، واللامادي، واللامشخص.

تات: في الحقيقة، إني أفقد ذهني، يا والدي، كان يبدو لي أنك جعلتني عاقلاً، وهذا الفكر يلغي إحساساتي.

هرمس: هو كذلك، يا ولدي؛ (الأحاسيس تبصر) ما يرتفع مثل النار، وماينزل مثل التراب، ويسيل كالماء وينفخ كالريح؛ و(لكن) كيف استطعت ألّا تفهم بالأحاسيس ماهو غير صلب، ولامائع، ولاقاس، ولارخو، من يُفهم بقوة وطاقة فقط. من أجل فهم الولادة في الله، يلزمك العقل وحده.

تات: اذن هل أنا. غير جدير يا ولدي؟

هرمس: لاتيأس، يا ولدي، رغبتك سوف تتم، وسيكون

لإرادتك أثرها، فاكبح الأحاسيس الجسدية وستولد في الله؛ طهر نفسك من فظاظات المادة العمياء.

تات: إذن توجد فظاظات في ذاتي يا والدي.

هرمس: ليست قليلة العدد يا بني، إنها مخيفة يا والدي.

تات: ألا تعرفها يا والدي؟

هرمس: أولها الجهل، وثانيها الحزن، وثالثها الشراهة، ورابعها الشبق، وخامسها الظلم، وسادسها الشح، وسابعها الخطأ وثامنها الحسد وتاسعها الاحتيال وعاشرها الغضب والحادي عشر التهور والثاني عشر الخبث. إنها اثنتا عشرة ولها تحت أوامرها عدد كبير أيضاً. بسجن الحواس، تخضع الإنسان الداخلي إلى أهواء الحواس. إنها تبتعد شيئاً فشيئاً عن تلك التي أشفق الله عليها، وفي هذا تتكون طريقة وسبب البعث. والآن صمتاً يا بني والحمد لله، أنه لايتركنا من رحمته أبداً. فابتهج الآن يا ولدي، تطهر بقدرات الله في صياغة كلامك. معرفة الله (الغنوص) دخلت فينا، وفوراً توارت الجهالة، معرفة الفرح وصلت إلينا، وأمامها ياولدي سيهرب الحزن نحو أولئك الذين لايزالون يعانون منه، القوة التي أطلبها بعد الفرح، هي الاعتدال، تلك الفضيلة الساحرة! فلنسرع باستقبالها يا ولدي، وحضورها يطرد الشراهة. وفي المكان الرابع استدعِ العفة، القوة المعارضة للشبق. هذه الدرجة، يا ولدي، هي مقر العدالة؛ فانظر كم طَرَدَت من الظلم دون معركة. نحن مبرؤون يا ولدي، وقد ولى الظلم. انني استدعي القوة السادسة الجماعية، التي تحضر فينا لتصارع ضد الشح. وعندما يذهب هذا فانني استدعي الحقيقة، فيهرب الخطأ، وتظهر الحقيقة. انظر يا بني، كمال الخير الذي يتبع ظهور الحقيقة؛ لأن الحسد يبتعد عنا، وبواسطة الحقيقة يصلنا الخير مع الحياة والنور، ولايعود للظلمات فينا مكان، وسوف ينحسر الجميع. أنت تعلم يا بني، طريق التجديد. عند اكتمال العشارية، يا بني، تكتمل

الولادة المثالية، وتُطْرَد الفظاظة الثانية عشرة ونولد للتأمل. ان من ينال من الرحمة الإلهية الولادة في الله، يتحرر من المشاعر الجسدية، ويتعرَّف بالعناصر الإلهية التي يتركب منها ويتمتع بسعادة تامة.

تات: بقوة الله، أتأمل، ياوالدي، ليس بواسطة عيني، وإنما بالطاقة العقلانية للقوى. إنني في السماء، وعلى الأرض، في الماء، وفي الهواء؛ إنني في الحيوانات، في النباتات، في الرحم، قبل الرحم، بعد الرحم، في كل مكان. لكن قل لي أيضاً: كيف إن فظاظة الظلمات التي يبلغ عددها اثنتي عشرة، قد طردت من قبل القوى العشر؟ ماهي الطريقة أيها المثلث العظمة.

هرمس: هذه الخيمة التي اجتزناها، يا ولدي، مشكلة بدائرة البروج، التي تتركب من علامات يبلغ عددها اثنتي عشرة، من طبيعة واحدة ومن كل أنواع الأشكال. يوجد هناك أزواج مرصودة لتضليل الإنسان وتتداخل في عملها. فالتهور لاينفصل عن الغضب، ولايمكن التمييز بينهما. فطبيعي إذن وموافق للإدراك المستقيم أن يزولا سوية، مطرودين بالقوى العشر، أي بالعشارية؛ لأن العشارية يا ولدي، هي مولدة للروح. فالحياة والروح متحدان هنا حيث تولد وحدة النفس. فالوحدة تتضمن إذن بصورة عقلانية العشارية والعشارية تتضمن الوحدة.

تات: يا والدي، إنني أرى الكون وأنا بذاتي في العقل.

هرمس: هوذا البعث، يا ولدي، وتحويل فكرته عن الجسد إلى أبعاد ثلاثة، بموجب هذا الحديث عن البعث، الذي شرحته لك، كي لانكون شياطين (أعداء) الكون بالنسبة للجماعة التي لم يرد الله أن (يكشفها).

تات: قل لي، يا والدي، هذا الجسد المركب من قوى ألا يتحلل أبداً؟

هرمس: لاتقل هذا يا بني، لاتتكلم عن أشياء مستحيلة، سيكون هذا خطأً وكفراً بعين عقلك. ان جسد الطبيعة الحساس بعيد عن التوالد الأساسي. أحدهما متحلل والآخر غير متحلل، أحدهما فان، والآخر خالد. هل تجهل أنك أصبحت إلهاً وابناً للواحد مثلي؟

تات: كم تتملكني الرغبة يا والدي! بالتبريك من الترنيمة التي وعدت بأن اسمعها عندما أصل إلى مُثَمَّن الآلهة القوي.

هرمس: انك ياولدي حسب المثمن الذي كشف عنه بوامندريس، تتعجل بحق، الخروج من الخيمة، لأنك قد تطهرت. ان بوامندريس العقل الأعلى، لم ينقل لي أكثر مما كُتِبَ، عالماً أنني أستطيع بذاتي أن أفهم وأدرك كل ماسوف أريده، وأن أرى كل الأشياء، وقد أمرني بأن أصنع ماهو جميل. ولهذا فإن كل القوى التي هي فيَّ سوف تنشده.

تات: أريد يا والدي، أن أسمع هذا وأن أفهمه.

هرمس: استرح، يا ولدي، واسمع التبريكات الكاملة ونشيد التجديد الذي لم أشأ أن أكشفه هكذا بسهولة، لو لم يكن فيك، وفي نهاية كل شيء. وبما أنه لايُلَقَّن فانه يختفي في السكون. وهكذا يا بني، أقم في مكان مكشوف، وتبطلعك نحو ريح الجنوب، اسجد عند غياب الشمس، وحتى عند شروقها من جانب ريح الشرق. فاصغِ إذن يا بني.

نشيد صوفي

لتسمع كل طبيعة العالم هذا النشيد. فانفتحي أيتها الأرض، ولينفتح كل مستودع الأمطار من أجلي، ولتكف الأشجار عن الاهتزاز. فأنا سأنشد سيد الخلق، الكلي، والأوحد. انفتحي أيتها السماوات

واهدئي أيتها الرياح؛ ولتتلق دائرة الله الخالدة كلمتي، لأنني أود أن أغني لخالق الكون، ذلك الذي بسط الأرض ورفع السماء، والذي أمر الماء العذب ليخرج من المحيط وينتشر على الأرض المسكونة وغير المسكونة، من أجل إطعام واستعمال كل البشر؛ الذي أمر النار أن تشع على كل أعمال البشر والآلهة. لِنُسَبِّح جميعاً ذلك الذي هو فوق السماء، وخالق كل الطبيعة. إنه عين العقل، الذي يتلقى التبريك من كل قواي. ويا قواي الكائنة فيَّ أنشدي للواحد والكل؛ أنشدي حسب إرادتي ياكل قواي. اني بك مُنوّر أيها الغنوص المقدس، وبك أنشد النور المثالي، إنني أسر في سرور العقل. غنّي معي يا كل قواي، غني معي يا عفتي، يا عدالتي، غني العدالة بي؛ يا جماعتي غني الكل؛ أيتها الحقيقة غني الحقيقة بواسطتي؛ أيها الخير غني الخير؛ أيها الحياة والنور، منا إليك يصعد الحمد. أيها الأب إنني أحمدك، يا طاقة كل قواي؛ أشكرك ياالله، قوة كل طاقاتي. كلمتك تغني إليك بواسطتي، فتقبل بي الكلية في الكلمة، والأضحية الشفاهية. ذلك ماتهتف به القوى التي هي فيّ. إنها تنشدك، أنت، الشمولي، إنها تكمل إرادتك. انقذي العالم الذي هو فينا أيتها الحياة. أنر، أيها النور، يا نفس الله! لأن العقل أولد كلمتك المبدعة التي تحمل النفس! أنت الله، والإنسان الذي يعود إليك يهتف بهذه الأشياء عبر النار، والهواء، والتراب والماء، والنفس، عبر مخلوقاتك. لقد وجدت التبريك في أزليتك. وما ابحث عنه، حصلت عليه من حكمتك، وأعلم بأنني بإرادتك تلفظت بهذه التبريكات.

تات: يا والدي: لقد وضعتك في عالمي.

هرمس: قل في المعقول يا بني.

تات: في المعقول، يا أبي، أستطيعه، نشيدك وتبريكك أنارا عقلي؛ أنا أيضاً أريد أن أرفع من فكري الخاص تبريكاً لله.

هرمس: لاتفعل ذلك بخفة يا ولدي.

تات: في العقل يا والدي، ما أتأمله، أقوله لك يا مبدأ التوليد؛ أنا، تات، أرسل لله الأضحية الكلامية. يا ألله أنت الأب، أنت السيد، أنت العقل، تقبل الأضحية الكلامية التي تريدها مني، لأن كل ماتريده يكتمل.

هرمس: أنت، يا بني، ارفع لله أب جميع الأشياء، الأضحية التي تناسبه؛ ولكن أضف يا بني: بوساطة الكلمة.

تات: أشكرك يا والدي لأنك أرشدتني.

هرمس: إنني مسرور يا ولدي، إنك تلقيت الثمار الجيدة من الحقيقة، والبذور الخالدة. تعلَّمْ مني أن تكرم صمت الفضيلة، ودون أن تكشف لأحد التوليد الذي نقلته إليك، خوفاً من النظر إلينا كشياطين. لأن كل واحد منَّا قد تأمل، أنا متكلم، وأنت مصغٍ. لقد عرفت بصورة عقلانية ذاتك وأبانا.

ـ ١٤ ـ

هرمس المثلث العظمة
لأسكليبيوس، حكمة

في غيابك، أراد ولدي تات أن يتعلم عن طبيعة الكائنات، ولم أتجاوز ذلك، لأنه ولدي وبسبب شبابه، وبوصوله للمعارف الخاصة، كنت مجبراً أن أتوسع، وأن أقدم له التوضيح الذي يمكن الإلمام به بسهولة. لكنني أردت أن أرسل لك خلاصة عما كان قال مما هو أكثر أهمية، ومع شرح أكثر روحانية نظراً لسنك الأكثر تقدماً وعلمك عن الطبيعة.

إن لكل ما يظهر بداية، وولادة، وهو مُتَوَلِّد، ليس من ذاته، وإنما

من شيء آخر. والأشياء المخلوقة عديدة، بالأحرى، كل شيء ظاهر، مختلف وغير متشابه يولد من شيء آخر. إذن هناك من صنع هذه الأشياء المخلوقة وهو بذاته غير مخلوق وسابق لكل خليقة. أقول أن كل ماولد قد ولد من غيره، وأن أي كائن مخلوق لايمكن أن يكون سابقاً لكل الآخرين، وإنما اللامخلوق فقط. إنه أسمى بقوته، واحد أحد عالم فعلاً في كل الأشياء، طالما لم يسبقه شيء، منه ينبع التعدد، والعظمة، والفارق بين الكائنات المخلوقة، واستمرارية الخلق وطاقته. إضافة إلى ذلك فإن المخلوقات مرئية، لكنه هو غير مرئي. فيجب إذن إدراكه بالعقل؛ وفهمه هو الإعجاب به ومن يعجب به يصل إلى الطوبى عن طريق معرفة والده المعظم.

وبما أنه لايوجد شيء أفضل من أب، فماهو وكيف نعرفه نحن؟ هل تنبغي الإشارة إليه باسم الله، أو بأسماء خالق أو أب. أو بهذه الأسماء الثلاثة في آن واحد؟ فإله تستجيب لقدرته، وخالق لنشاطه، وأب لطيبته. قوته متميزة عن مخلوقاته، وطاقته تستقر في شمولية خلقه. لندع إذن جانباً الثرثرة والكلمات الفارغة ولنفهم عبارتين: المخلوق والخالق؛ ولايوجد بينهما مكان لثالث. في كل مرة تُفكر في الكون وتسمع الكلام، تذكَّرْ هاتين العبارتين، وفكِّرْ أنهما كل مايوجد، دون أن نستطيع ترك شيء خارجهما، سواء في الأعالي أو في الأدنى، وسواء في الإلهي، وسواء في المتغير، وسواء في الأعماق. هذان الحدان المخلوق والخالق يتضمنان كل الكون، وهما لايمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر، لأنه لايمكن أن يوجد خالق دون خليقة، ولاخليقة دون خالق كل واحد منهما مُعَرَّف بوظيفته، ولم يعد يمكنه أن يتجرد من الآخر كذاته.

إذا لم يكن الخالق شيئاً آخر سوى الذي يخلق، وظيفة وحيدة، بسيطة وغير معقدة، فإنه يخلق نفسه بالضرورة لذاته، لأنه في الخلق

يصبح خالقاً. كذلك المخلوق يتولد بالضرورة من آخر، فبدون خالق لايولد المخلوق ولايوجد. فكل منهما سيفقد طبيعته الخاصة إذا انفصل عن الآخر، والحالة هذه فإنه إذا اعتُرِف بوجود حدين، أحدهما مخلوق والآخر خالق، فإن اتحادهما غير قابل للفصل، فأحدهما يتقدم والآخر يتبع، الأول هو الله الخالق والثاني المتولد كيفما كان. ولاتخشَ أن يكون مجد الله مخففاً بتنوع الخلق؛ فمجده الأوحد هو أن ينتج، وهذه الوظيفة هي جسده كما يقال. لكن لاشيء سيئ ولا قبيح لايمكن النظر إليه كعمله. فهذه الأحداث نتائج مرتبطة بالخلق مثل الصدأ بالبرونز أو الوسخ بالجسد. ليس الحدَّاد هو من يصنع الصدأ، وليس الآباء هم الذين يصنعون الوسخ، وليس الله هو من يفعل الشر، وإنما مع الزمن وتتابع الأشياء المخلوقة تحصل هذه الأنواع من العفن، ولهذا صنع الله التغيير، كما من أجل أن يطهر الخلق.

إن الرسام نفسه يمكنه أن يصنع السماء والآلهة، الأرض، والبحر البشر والحيوانات من كل نوع والكائنات الخالدة والنباتات، والله، ألا يمكنه خلق كل هذا؟ يا للجنون وجهالة الطبيعة الإلهية!. إن هذا الرأي هو أسوأ الآراء. فالادعاء بكمال الدين والورع ونفي خلق الله للأشياء كلها، ذلك ليس حتى معرفته، وذلك جمع الكفر البالغ مع تلك الجهالة، وذلك هو الاعتقاد الخاضع للزهو، وللجهالة وللحسد. لأنه إذا لم يخلق كل شيء، فذلك بزهو أنه لايخلق، أو لأنه لايستطيع أو لايعلم، أو لأنه سوف يحسد الوجود لمخلوقاته، وإنه لمن الكفر التفكير بهذا. لأنه لايوجد لله سوى هوى واحد، الخير والطيبة الخالية من الزهو، والعجز وماتبقى، ذلك هو الله الخير، كلي القدرة لخلق كل شيء. فكل مخلوق مُسَبَّب بالله، أي بالخير والقوة الخلاقة الكلية للقدرة. فإذا شئت أن تعرف كيف يخلق الله، وكيف تتولد الخليقة، تستطيع ذلك؛ وتكون لك في ذلك أجمل صورة وأكثرها مشابهة في زارع يلقي البذور في الأرض، هنا الشعير وهنالك القمح وبذوراً أخرى

في أمكنة أخرى؛ فانظر إليه وهو يزرع الكرمة والتفاحة والتينة وأشجاراً أخرى، هكذا يزرع الله الخلود في السماء، وفي الأرض التغيير، وفي كل مكان الحركة والحياة. هذه المبادئ ليست عديدة ويسهل حسابها، يوجد منها أربعة في مجموعها، وإنها هي، الإله بذاته، والخليقة، اللذان يشكلان كل مايوجد.

الكتاب الثاني

خطابات التلقين
أو
اسكليبيوس

ـ ١ ـ

[اسكليبيوس هذا، هو الشمس بالنسبة لي][١]. إله هو الذي بعث بك إلينا يا اسكليبيوس ليجعلك تحضر الى موعظة إلهية، إلى ما سيكون الأكثر تديناً فعلاً من كل أولئك الذين صنعناهم حتى الآن، أو الذين أوحي لنا بهم من الأعلى. بفهمك له، سوف تنال كل الخيرات، إذا كان يوجد مع ذلك خيرات عديدة، وإذا لم يكن صحيحاً بأنه لايوجد في ذلك إلا واحد يتضمن الجميع. لأن كل واحد من بينها مرتبط بالآخر، وجميعها تتفرع من واحد، ولاتشكل سوى واحدٍ، طالما أن صلاتها المتبادلة تجعل الانفصال مستحيلاً. ذلك هو ماسوف تفهمه بانتباهك إلى ماسنقوله. ولكن، انسحب بدئياً يا اسكليبيوس لحظة واذهب للبحث عن مستمع جديد لأحاديثنا.

وسوف يقترح اسكليبيوس فكرة دعوة آمون.

ويقول مثلث العظمة، لاشيء يحول دون حضور آمون بيننا، ولم أنسَ إنني وجهت إليه كولد عزيز كثيراً من الكتابات حول الطبيعة وغيرها مما هو متعلق بالتعليم الظاهري. لكن اسمك يا اسكليبيوس هو ماسوف أسجله في رأس الرسالة الحاضرة؛ فلا تدعُ أحداً خلاف آمون، لأن موعظة حول الأمور الأكثر قداسة للدين ستكون مدنسة بحضور الكثيرين؛ وإنه لمن الكفر أن تسلم المعرفة في رسالة ملأى بالجلال الالهي الى عدد كبير من الناس.

---

(١) ينبغي أن تكون هذه الجملة قد أُضيفت كملاحظة الى النص من قبل أحد النساخ.

دخل آمون المعبد وأكمل الغناء الرباعي المقدس، الممتلئ بحضور الله. وخرجت من فم هرمس دعوة إلى الصمت الديني، وامام الأرواح المتنبهة والمعلقة بكلماته بدأ الحب الإلهي(٢) في هذه العبارات:

هرمس: يا اسكليبيوس، إن كل روح بشرية خالدة، لكن هذا الخلود ليس موحد الشكل، إنه يتغير في الطريقة وفي الزمان.

اسكليبيوس: ذلك لأن الأرواح، أيها المثلث العظمة، ليست من صفة واحدة.

هرمس: كم تتفهم بسرعة سبب الأشياء، يا اسكليبيوس! لم أقل بعد أن كل شيء هو واحد، وأن الوحدة هي كل شيء. لأن كل الأشياء كانت في الخالق قبل الخليقة، ويمكن تسميتها الكل، لأن كل الأشياء هي أعضاؤها، فتذكر إذن، في كل هذا النقاش، من هذا الذي هو واحد وكل، خالق كل الأشياء.

كل شيء ينزل من السماء على الأرض، وفي الماء وفي الهواء. النار وحدها محيية لأنها تنمو نحو الأعلى؛ ومابنمو صوب الأدنى تابع لها. ماينزل من الأعلى هو مولد، ومايصدر ويرتفع فهو مغذي. الأرض وحدها مرتكزة على ذاتها، وهي مستودع كل الأشياء، وتعيد الأنواع التي تتلقاها. وهذا المجموع، الذي يتضمن كل شيء والذي هو كل، يحرك الروح والعالم، وكل ماتتضمنه الطبيعة. في الوحدة تعود الحياة الشاملة، والأنواع التي لاحصر لها متميزة بفوارقها، وهي موحدة مع ذلك بحيث أن مجملها واحد، وأن الكل ينبع من الوحدة. وعلى ذلك فإن هذا المجموع، الذي يشكل العالم، مكون من عناصر أربعة: النار، الماء، التراب، والهواء، عالم واحد، روح واحدة، إله واحد. والآن،

---

(٢) يتوافق هنا تشبيه هرمس بايروس مع سماتها اللاهوتية إلا إنني لم أصادف ذاك التطابق في موضع آخر.

أعرني كل قوة وحذاقة فكرك، لأن فكرة الألوهة، التي لايمكن أن تفهم إلا بمعونة إلهية تشبه نهراً سريعاً يتحدر بشكل جارف؛ وغالباً ماتتجاور أيضاً انتباه السامعين، وحتى انتباه من يعلم.

ـ ٢ ـ

السماء إله مرئي يحكم الأجرام كلها؛ نموها وانحدارها منظم بالشمس والقمر؛ لكن من يدير السماء، والروح بذاتها وكل مايوجد في العالم، هو الله الخالق بذاته. فمن الأعالي حيث يحكم تنزل فوحانات كثيرة تنتشر في العالم، وفي كل الأرواح العامة والخاصة وفي طبيعة الأشياء. كان الله قد أعد العالم ليتلقى كل الأشكال الخاصة. وبتحقيقه لهذه الأشكال الطبيعية أوصل العالم حتى السماء بالعناصر الأربعة. فكل شيء متوافق مع نظرات الله، لكن مايتعلق بالأعلى قد قسم في أنواع على الطريقة التالية: أجناس الأشياء كلها تتبع أنواعها بحيث أن الجنس هو كل، والنوع هو جزء من الجنس. وهكذا فإن الآلهة تشكل جنساً، والشياطين أيضاً. كذلك البشر والطيور وكل الكائنات التي يحتويها العالم تشكل أجناساً منشئة لأنواع مشابهة لها(٣). ويوجد نوع آخر، مجرد من الإحساس، لكن ليس من الروح(٤)؛ إنها روح الكائنات التي تغذي حياتها بواسطة جذور مثبتة في الأرض، فالأنواع من هذا الجنس منتشرة في كل مكان.

السماء ممتلئة بالله. والأجناس التي تكلمنا عنها تسكن حتى

---

(٣) في اللغة الفرنسية، أياً كان الجنس فرعاً من النوع فإن هاتين الكلمتين تحل الواحدة منهما غالباً محل الأخرى في اللغة اليومية، يدل النوع هنا على الجماعة بينما يدل الجنس على الفرد.

(٤) هذا الذي نسميه الحياة يُدعى الروح.

مكان الكائنات ذات الأنواع الخالدة. ولأن النوع هو جزء من جنس، وعلى سبيل المثال الإنسان من الإنسانية وكل واحد يتبع صفة جنسه. من هنا يأتي ـ مع أن كل الأجناس خالدة ـ أن الأنواع ليست جميعها خالدة. الألوهة تشكل جنساً كل أنواعه خالدة مثله. وفي الكائنات الأخرى، لاتنتمي الأبدية إلا إلى جنس؛ يموت في أنواعه ويحافظ على نفسه بالخصوبة المتوالدة. فيوجد إذن أنواع فانية؛ وهكذا فإن الإنسان فان، والإنسانية هي خالدة. مع ذلك فإن أنواع كل الأجناس تختلط في كل الأجناس. وفيها يوجد بدائيات؛ وآخرون مُكَّونون/مخلوقون بوساطة هذه الالهة، وبواسطة الشياطين، وبواسطة البشر، وكلها متشابهة بأجناسها المناسبة. وبما أن الأبدان لايمكن أن تتكون إلا بإرادة إلهية، فإن الأنواع لايمكن أن تكون ممثلة دون عون الشياطين، وتربية وتغذية الحيوانات لايمكن حصولها دون البشر. فكل الشياطين التي بخروجها من جنسها، تتجمع مصادفة من نوع الى نوع من جنس إلهي يُنظر إليها كمجاورين وشركاء. وأنواع الشياطين التي تحافظ على خصائص جنسها، والتي تسمى بصورة خاصة الشياطين تحب كل مايعود للإنسان. والنوع البشري مشابه، أو حتى أعلى، لأن نوع الجنس البشري متعدد ومختلف، وحاصل بالمعونة المشار إليها سابقاً. إنه الصلة الضرورية لغالبية الأنواع الأخرى بل ولكلها تقريباً. والإنسان، الذي يلتقي بالآلهة بوساطة العقل، ويتشارك معها، وبوساطة الورع، هو مجاور لله. ومن يلتقي مع الشياطين يتقرب منها. والذين يكتفون بأقل الذكاء البشري يبقون جزءاً من جنس بشري؛ وأجناس البشر الأخرى سيكونون مجاورين لأجناس من الأنواع التي سيتوحدون معها.

ـ ٣ ـ

إنه إذن، يا اسكليبيوس، أعجوبة كبرى ذلك الإنسان، الحيوان الجدير بالاحترام والافتتان. لأنه يمر في الطبيعة الإلهية كما لو أنه بذاته كان إلهاً، ويعرف عِرق الشياطين، ومع علمه بأنه يتصل بالأصل ذاته، فإنه يحتقر الجزء البشري من كيانه كي لايرتبط إلا بالعنصر الإلهي. كم أن الطبيعة البشرية محظوظة في تنشئتها ومجاورتها للآلهة! فالإنسان باتحاده بالإلهي، يحتقر مافيه من أرضية، ويتعلق بواسطة المحبة بكل الكائنات الأخرى، وبهذا يشعر بنفسه أنه ضروري للنظام الكلي. إنه يتأمل السماء، وفي هذا الوسط السعيد الذي وُضع فيه يحب ماهو تحته، وهو محبوب مما فوقه. إنه يزرع الأرض، ويستعير سرعة العناصر؛ ويُنْزل فكره الثاقب في أعماق البحر. كل شيء واضح بالنسبة له؛ ولم تعد السماء تبدو له أكثر علواً، لأن العلم يقربه منها؛ ولاتختنق رهافة نفسه بضباب الهواء السميك، ثقل الأرض ليس عقبة لعمله؛ ولايعكر ارتفاع المياه العميقة نظرته؛ إنه يضم الكل ويبقى نفسه في كل مكان.

إن لكل الكائنات المنتمية للصنف الحي (أعضاءاً هي كـ) جذور متجهة من الأعلى إلى الأدنى؛ وعلى العكس فإن هنالك جذراً واحداً فقط عند الكائنات غير الحية يمضي من الأدنى إلى الأعلى ويسند غابة من الأغصان. بعض الكائنات يتغذى من عنصرين، وبعضها من عنصر واحد. وثمة نوعان من الغذاء بالنسبة للقسمين من الحيوان، بالنسبة للروح وبالنسبة للجسد، روح العالم تتغذى بتحريض مستمر. وتنمو الأجساد بالماء والتراب، وأغذية من العالم السفلي. والريح التي تملأ كل شيء، تختلط مع كل شيء وتحيي كل شيء، وتضيف العاطفة إلى

العقل، بحيث أن الإنسان، بامتياز وحيد، يقتبس من العنصر الخامس، الأثير. وفي الإنسان يرتفع الإحساس ليصل إلى معرفة النظام الإلهي.

بما أنني ملزم على التكلم عن الشعور، فإنني سوف أعرض عليك فوراً المهمة الكبيرة والمقدسة كما في الألوهة ذاتها. لكن لِنُنْهِ بدئياً الإيضاح الذي بدأنا به. فقد تكلمتُ عن هذا الاتحاد مع الآلهة بأنه امتياز لم تمنحه إلا للإنسانية. وفقط بعض الأشخاص يملكون السعادة بالارتفاع حتى هذا الإدراك الإلهي الذي لايوجد إلا في الله وفي العقل البشري.

اسكليبيوس: إذن، لايشعر الناس جميعاً بالطريقة ذاتها أيها المثلث العظمة؟.

هرمس: ليس للجميع عقل صحيح يا اسكليبيوس، إنهم يخطئون عندما ينساقون في إثر الصورة دون أن يبحثوا عن السبب الحقيقي للأشياء. وهكذا يحصل الشر في الإنسان وينحدر أول الكائنات إلى شرط المادة الخام. لكنني سوف أحدثك عن الشعور وعن كل مايرتبط به عندما أشرح عن النفس. لأن الإنسان وحده حيوان مزدوج. أحد الجزئين اللذين يتكون منهما بسيط، وأساسي، كما يقول الإغريق، بمعنى أنه مكون على الشبه الإلهي. والجزء الثاني كوني، كما يقول الإغريق، أي ينتمي للعالم، وهو رباعي ويشكل الجسد، الذي يستخدم في الإنسان، غلافاً للعنصر الإلهي. هذا العنصر الإلهي ومايتعلق به، وتلتجئ حواس العقل الخالص خلف سور الجسد.

ـ ٤ ـ

اسكليبيوس: لماذا توَجب إذن أيها المثلث العظمة، وضع الإنسان في العالم، بدلاً من أن يتمتع بالطوبى القصوى في الجزء الإلهي من كيانه؟

هرمس: سؤالك طبيعي يا اسكليبيوس وأدعو الله أن يعينني على الجواب، لأن كل شيء يرتبط بإرادته، خاصة الأشياء الكبيرة التي هي الآن موضوع بحوثنا؛ فاصغ إلي إذن يا أسكليبيوس(٥). فالرّب ومبدع كل الأشياء، الذي نسميه الله، خلق إلهاً آخر، مرئياً ومحسوساً: وأسميه هكذا ليس لأنه يشعر بذاته، إذ ليس هنا مكان معالجة هذه المسألة، بل لأنه مدرك بالحواس، وبخلقه إذن لهذا الكائن الوحيد، الذي يأخذ مكانه في الصف الأول بين المخلوقات والثاني بعده، وجده جميلاً وجامعاً لكل الخيرات، أحبه كابنه. لقد أراد إذن أن يتمكن آخر من تأمل هذا الكائن الكبير والكامل، الذي استخلصه من ذاته، ولهذا خلق الإنسان الموهب إدراكاً وعقلاً. فإرادة الله، هي الكمال المطلق؛ وأنْ يشأ وأن يُكْمِلْ، ذلك بالنسبة له عمل اللحظة نفسها. وكما عَرِفَ أن الأساسي لايمكنه معرفة كل الأشياء دون أن تكون مغلفة بالعالم، أعطاه جسداً كمقر له. وقد أراد أن تكون له طبيعتان، وأنه قد وصلهما حميمياً ومزجهما بمعيار عادل.

إنه هكذا كُوِّنَ الإنسان من نفس ومن جسد، ومن طبيعة أزلية وطبيعة فانية، بقصد أن حيواناً مكون هكذا، يستطيع، بسبب أصله المزدوج، أن يتأمل ويصلي لما هو سماوي وأبدي، وأن يزرع ويحكم ماهو على الأرض(٦)؛ وأتحدث هنا عن الأشياء الفانية، ليس عن العنصرين الخاضعين للإنسان، التراب والماء، وإنما عن الأشياء التي تأتي من الإنسان، وهي فيه أو تابعة له، مثل زراعة الأرض، المراعي، البناء، المرافئ، الملاحة، الاتصالات، المبادلات المتناوبة التي هي الصلة الأقوى

---

(٥) المقطع التالي حتى: «لقد أراد إذن...الخ» أورده لاكتانس في الفصل الرابع ص٦ . لايوجد سوى بعض الفروق الطفيفة بين نص هذا الاستشهاد والنص اللاتيني.

(٦) ذكر لاكتانس الجملة السابقة في الفصل السابع ص١٣ . يوجد في النص اللاتيني بعض الفروق الطفيفة تجعل المعنى أكثر وضوحاً.

بين البشر. فالأرض والماء يشكلان جزءاً من العالم، وهذا الجزء الأرضي مصون بالفنون والعلوم، التي بدونها سيكون العالم ناقصاً في نظر الله، وعلى ذلك، فإنه ما يرضي الله ضروري، والفعل يصاحب إرادته؛ ولايمكن الاعتقاد أن ما أرضاه يتوقف عن إرضائه، لأنه علم مسبقاً ما سوف يكون وماسوف يرضيه.

ـ ٥ ـ

بيد أنني ألاحظ يا اسكليبيوس، أنك متعجل لِتَعْلم كيف أن السماء ومن يسكنها يمكن أن تكون موضع اختيار وعبادة الإنسان. فتعلّمْهُ إذن يااسكليبيوس. ان اختيار إله السماء وكل الذين هم فيها، هو في أن تقدم لهم تسبيحات مألوفة؛ وعلى ذلك، فإن الإنسان وحده، من بين كل الكائنات الحية، الإلهية والبشرية، مهيأ لتقديمها. فالإكبار، والعبادة، والثناءات، والتسبيحات من إنسان تُفْرح السماء والسماويين، وقد أرسلت جوقات آلهة الشعر إلى البشر من قبل الألوهة الكبرى كي لايكون العالم الأرضي محروماً من ثقافة الأنغام العذبة، أو بالأحرى من أجل أن يُمَجِّد الصوتُ البشري مَنْ هو الكل وحده، لأنه أبو الأشياء كلها، ومن أجل أن تتوحد الأنغام العذبة للأرض مع الجوقات السماوية بصورة دائمة. وبعض الناس ممن قل عددهم الموهوبون عقلاً صافياً مكلفون بهذه الوظيفة المقدسة أي التطلع إلى السماء. أما الذين يُقَيد العقْلَ عندهم اختلاط الطبيعتين تحت كتلة الجسد فهم مُعَدُّون لتغذية العناصر الدنيا. فالإنسان إذن ليس منحطاً كي ينال جزءاً فانياً، فعلى العكس إن قابلية الفناء هذه تزيد في استعداداته وقوته؛ فوظائفه المزدوجة لايمكن القبول بها إلا بطبيعته المزدوجة؛ فهو مكون بحيث يضم في آن واحد الأرضي والإلهي. وآمل، يا اسكليبيوس، أن تعير لهذا الإيضاح

كل انتباهك وكل حمية نفسك، لأن الكثير من الناس محروم من الإيمان بموضوع هذه الأشياء. والآن، سوف أعد مبادئ حقيقية من أجل تعليم العقول الأكثر قداسة.

ـ ٦ ـ

إن سيد الأبدية هو الله الأول، والعالم هو الثاني، والإنسان هو الثالث. فالله خالق العالم وكل مايحتويه، يحكم كل هذا المجموع ويخضعه لحكومة الإنسان. وفي الواقع أن هذا هو موضوع نشاطه الخاص، بحيث يكون العالم والإنسان،زينة، أحدهما للآخر. الإنسان يعرف ذاته ويعرف العالم؛ فيجب إذن أن يميز ماهو على علاقة به، وماهو محل استعماله وما له به حق لعبادته؛ فبتوجيه حمده وشكره وأعماله الخيرة لله، يجب أن يبدي إجلاله للعالم، الذي هو صورته، وأن يتذكر أنه بذاته الصورة الثانية لله؛ ذلك لأن لله صورتين، العالم والإنسان. ان طبيعة الإنسان معقدة، فجزؤه الذي يتألف من روح، وشعور، ونفس، وإدراك، هو إلهي، وهي عناصر عليا تستطيع صعود السماء؛ في حين أن جزأه الكوني، الدنيوي، مشكل من نار، وماء وتراب وهواء، هو فانٍ ويبقى على الأرض كي يرد إلى العالم ماكان قد استعير منه. وهكذا تتألف البشرية من جزء إلهي وجزء فان، هو الجسد. والأساس لهذا الكائن المزدوج، الذي هو الإنسان، هو الدين، الذي يَستْتبع الطِّيبَةَ. يدرك الكمال عندما تقي الفضيلة الإنسان من الرغبات وتجعله يحتقر كل ماهو غريب عنه. لأن الأشياء الأرضية، التي يرغب الجسد امتلاكها، هي غريبة عن كل أجزاء الفكر الإلهي. ويمكن تسميتها امتلاكات، لأنها لم تولد معنا، فهي قد اكتسبت فيما بعد. فهي إذن غريبة عن الإنسان، والجسد بذاته غريب عنا، بحيث يجب احتقار موضوع الرغبة ومايجعلنا عرضة للإنسياق وراءها.

إعطاء قيادة الروح إلى الإدراك، ذلك هو واجب الإنسان كي يجعله التأمل الإلهي يزدري وباحتقار هذا الجزء الفاني الذي توحَّد به للحفاظ على العالم الأدنى. لاحظ، أنه من أجل أن يكون الإنسان كاملاً في جزئيه، فإن كلاً منهما يمتلك أربع تقسيمات فرعية مزدوجة جزء له اليدان، والرجلان التي مع أعضاء الجسد الأخرى تضعه في علاقة مع العالم الأدنى أو الأرضي؛ وجزء آخر له أربع قدرات: الشعور، الروح الذاكرة والبصيرة التي تسمح له بمعرفة وتبصر الأشياء الإلهية، ويمكن إذن أن تضم في تقصياتها الاختلافات، والصفات، والآثار، والكميات، لكنه إذا كان معاقاً كثيراً بثقل الجسم فإنه لايستطيع خرق سبب الأشياء الحقيقي.

عندما يكون الإنسان، المُكَوَّن والمُنْشَأْ هكذا، قد تَلَقَّى كوظيفة من الله الأعلى حِكْم العالم وعبادة الألوهة، فإنه يبرأ تماماً من هذه المهمة المزدوجة ويخضع للإرادة الإلهية. فماذا يجب أن تكون مكافأته؟ لأنه إذا كان العالم هو عمل الله فإن الذي بعنايته يغذي ويزيد الجمال، هو المساعد للإرادة الإلهية، المستعمل جسده وعمله كل يوم لخدمة العمل الخارج من يد الله. ماذا يمكن أن تكون مكافأته، إن لم تكن المكافأة التي حصل عليها أسلافنا؟ فليرضَ الجود الإلهي بمنحها لنا أيضاً؛ وكل نذورنا وكل صلواتنا تهدف إلى الحصول عليها؛ فهل نستطيع، بتحررنا من سجن الجسد ومن أصفادنا القاتلة، أن نُرَدَّ، أطهاراً ومقدسين، إلى الجزء الإلهي من طبيعتنا.

اسكليبيوس: إن ماتقوله أيها المثلث العظمة صحيح وحقيقي. وذلك هو ثمن التقوى تجاه الله، معونات معطاة لحفظ العالم. لكن العودة إلى السماء هي مرفوضة على أولئك الذين عاشوا في الكفر؛ وقد فرض عليهم عذاب تنجو منه الأرواح الطاهرة: النقلة في أجساد أخرى. إن تتمة هذا الخطاب توصلنا، أيها المثلث العظمة، إلى الأمل بأبدية

مقبلة للروح، نتيجة لحياتها في العالم. لكن بعضهم يصعب عليه الاعتقاد بهذا المستقبل، وهو عند بعضهم خرافة. ويمكن أن يكون موضع سخرية عند البعض الآخر. وذلك لأنه شيء لذيذ التمتع بما يمتلكه المرء في الحياة الجسمانية. فها هو الشر، كما قيل، يدوخ رأس الروح، ويربطها بجزئه الفاني، ويمنعها من معرفة جزئها الإلهي ويرغبها بالفجور. ولأنني، قلته لك باستلهام نبوي، فلا أحد بعدنا سيختار الطريق البسيط للفلسفة، التي هي برمتها في التطبيق لمعرفة الإلهي وفي الدين المقدس. فالأغلبية يضلونها في مسائل مختلفة. فكيف إذن يربطون بها فلسفة لاينبغي أن تكون مفهومة، أو كيف يخلطون فيها مسائل مختلفة.

هرمس: يا اسكليبيوس، إنهم يخلطون فيها بقوة الحذاقة علوماً مختلفة ليست مفهومة منهم، الرياضيات، الموسيقى، الهندسة. لكن الفلسفة الصافية، التي موضوعها الخاص هو الديانة الإلهية، لاينبغي أن تنشغل بعلوم أخرى إلا من أجل تأمل أوجه الكواكب المنتظمة، وأوضاعها ومسيراتها المنتظمة بالأعداد. فلتتأمل أيضاً أبعاد الأرض، والصفات والكميات. وعمق البحار وقوة النار، ولتعرف آثار كل هذه الأشياء والطبيعة؛ ولتعبد الفن، والصانع وعقله الإلهي. أما فيما يخص الموسيقا فانها تعرف عندما يعرف السبب وتنظيم الأشياء الإلهية. لأن هذا النظام الذي يصنف كلاً منها في وحدة المجموع هو فعلاً جوقة عجيبة ونغم إلهي.

اسكليبيوس: إذن ماسيكونه الناس بعدنا؟

هرمس: مخدوعين بمهارات السفسطائيين، ينحرفون عن الحقيقي، والفلسفة الطاهرة المقدسة. عبادة الألوهة في بساطة الفكر والروح، إجلال أعمالها، تكريم إرادتها التي هي وحدها طوبى الخير، تلك هي الفلسفة الوحيدة التي ليست معيبة بالفضول غير المفيد للنفس. وهذا مايكفي حول هذا الموضوع.

ـ ٧ ـ

لنبدأ الحديث عن النفس وعن أشياء أخرى مماثلة. كان يوجد الله وهايليه وذلك ماكان يسميه الإغريق المادة أو جوهر العالم. كانت النفس مع العالم، لكن ليس بالطريقة ذاتها التي كانتها مع الله. هذه الأشياء التي يتألف منها العالم ليست الله، وكذلك لم تكن موجودة قبل ولادتها، لكنها كانت سابقاً في ماكان يجب إنتاجه. لأنه خارج الخلق لم يكن هناك فقط هذا الذي لم يخلق بعد، وإنما هذا الذي حُرِم من الخصوبة المولدة ولايستطيع توليد شيء. فكل يملك قدرة الولادة يحمل في بذرته كل مايمكن أن يولد فيه، لأنه من السهل على من وُلِدَ منه أن يعمل على توليد من ينتج الكل. فالله الخالد إذن لايستطيع ولم يستطع أن يولد؛ انه كائن وكان وسوف يكون دائماً. فطبيعة الله هي بوجود مبدئه الخاص. لكن المادة أو طبيعة العالم والنفس، مع أنها تبدو متولدة منذ الأصل، تملك قدرة توليد وانجاب، القوة المخصبة. لأن البداية هي في صفة الطبيعة التي تملك في ذاتها قوة الحمل والإنجاب. إنها إذن، مبدأ الخلق، بدون تدخل أجنبي. إنها بوجهٍ آخر مما تملكه فقط قوة الحمل بالخلط مع طبيعة أخرى. يبدو ان مكان العالم وكل مايتضمنه لم يولد، وله في ذاته كل الطبيعة المقتدرة، وأسمي مكاناً مايحتوي كل الأشياء، لأنها لن تستطيع أن تكون دون أن يكون لها مكان ليحتويها. كل مايوجد يحتاج مكاناً؛ فلا صفات، ولا كميات ولا أوضاع ولا آثار يمكن أن تتميز في الأشياء التي لاتكون في أي مكان. وهكذا، فإن العالم مع أنه لم يولد، له في نفسه مبدأ كل ولادة، طالما أنه يقدم لكل شيء رحماً خاصاً لحمله. إنه إذن مجموع صفات ومادة قابلة لأن تُخلق، رغم أنها لم تزل غير مخلوقة.

إن المادة، بكونها مخصبة في كل صفة، فهي تستطيع أن تولد الشر. إنني أستبعد إذن، يا اسكليبيوس ويا أمون، المسألة التي يطرحها الكثيرون: «هل يمكن لله أن يعيد حذف الشر من طبيعة الأشياء؟» قطعاً لايوجد شيء للرد عليهم؛ لكن من أجلكما سوف أتابع الخطاب الذي بدأ وسوف أعطيكما الإيضاحات. يقولون إنه كان على الله أن يقي العالم من الشر؛ وعلى ذلك، فإن الشر هو في العالم كعضو يشكل جزءاً منه. ومثلما أن الله العظيم عاقل وممكن فقد احتاط له (للشر)، عندما تلطّف ومنح الإنسانية الشعور والعلم والعقل. فبهذه القدرات التي تضعنا فوق الحيوانات الأخرى، نستطيع وحدنا التخلص من شباك الشر والعيوب. فالإنسان العاقل والمُصون بالعقل الإلهي يعرف أن يحترز منها حالما يراها وقبل أن يدع نفسه تنساق لها. فأساس العلم هو سيادة الطيبة. والنفس تحكم وتحيي كل ماهو في العالم، إنها أداة أو آلة تستعملها إرادة الله العلي. وهكذا يتوجب علينا أن نفهم بالعقل وحده، المعقول الأعلى الذي نسميه الله. فبواسطته توجه هذا الإله الآخر الحساس الذي يعرف كل الأمكنة، وكل الجواهر، والمادة لكل مايولد وينتج، وبكلمة كل ماهو كائن.

أما فيما يخص النفس، فإنها تحرك أو تحكم كل الكائنات الخاصة في العالم، حسب الطبيعة التي عيّنها الله لها. والمادة، **هيليه**، أو العالم، هي الوعاء، والحركة والتكرار لكل الأشياء التي يحكمها الله مُوزِّعاً في كل واحده منها ماهو ضروري له، ومالئاً إياها بروح حسب خصائصها. شكل العالم هو شكل كرة مجوفة، لها في ذاتها سبب صفتها أو شكلها الحركي بكليته؛ وإذا أُريد باختيار نقطة من مساحتها، رؤية العمق، لايمكن رؤية شيء. إنها لاتبدو مرئية إلا بالأشكال الخاصة التي تبدو صورها منقوشة عليها؛ إنها تبدو في مثال مرسوم، لكنها في الواقع غير مرئية دائماً بذاتها. لهذا فإن المركز، والجزء الأدنى من الكرة، وان يكن هذا مكاناً يسمى في اليونانية غير مرئي ,aons، من الرؤية، لأنه لايمكن

رؤية مركز الكرة. كذلك تسمى الأنواع أو المظاهر أفكاراً، لأنها هي أشكال اللامرئي. ان قاع الكرة هذا يُسميه الاغريق **آديس**، لأنه غير مرئي، ويسميه اللاتين **جهنم**، بسبب وضعه الأدنى. تلك هي المبادئ الأساسية، والمصادر الأولى لكل الأشياء. فكل شيء هو فيها أو بواسطتها، أو يأتي منها.

اسكليبيوس: اذن هل هذه المبادئ أيها المثلث العظمة هي الجوهر الشامل لكل المظاهر الخاصة؟

هرمس: العالم يغذي الأجساد، والنفس تغذي الأرواح؛ والفكر؛ الهبة السماوية والذي هو امتياز رائع للبشرية، يغذي العقل؛ لكن عدداً صغيراً فقط يمتلك عقلاً مؤهلاً لتلقي هكذا نعمة. إنه نور يضيء العقل كما تضيء الشمس العالم وأكثر أيضاً لأن نور الشمس غالباً ما يُعترض بالقمر، أو بالأرض عندما يأتي الليل؛ ولكن عندما يدخل الفكر مرة في الروح البشرية، فإنه يختلط بصميمية مع طبيعتها ولايعود ممكناً أن يكون العقل مظلماً بأي ضباب. ولهذا قيل بحق أن الأرواح الآلهة هي عقول، وبالنسبة لي لا أقول هذا أبداً، وإنما آلهة عليا كبيرة.

ـ ٨ ـ

اسكليبيوس: ماهي المبادئ الأولية للأشياء، أيها المثلث العظمة؟

هرمس: إنني أكشف لك عن أسرار إلهية كبيرة، وفي بداية هذا المسارّة أتضرع إلى عناية السماء. هنالك أصناف عديدة من الآلهة، وثمَّة في جميعها جزء غير معقول. ليس لأنه يفترض عدم وقوعها تحت حواسنا؛ فعلى العكس، إننا ندركها بصورة أفضل أيضاً من تلك التي نسميها مرئية، كما سوف ترشدك هذه المناقشة. وسوف تتعرف عليها إذا أوليت كل انتباهك، لأن هذا الترتيب السامي للأفكار، الإلهي

والمرتفع فوق عقل الإنسان يتطلب انتباهاً مدعوماً، بدونه تتطاير الكلمات وتجتاز النفس، أو أنها بالأولى تعاود الصعود إلى مصدرها وتضيع فيه.

فيوجد إذن آلهة عليا لكل المظاهر؛ وبعدها تأتي الآلهة التي يكون جوهرها هو الأساس؛ انها آلهة حساسة. انها وفقاً لمظهرها المزدوج، تظهر كل الأشياء بالطبيعة المحسوسة، وكل واحد منها يُنير اعماله بعضها ببعض الآخر. **فأوزيارك** السماء، أو جميع مافهم تحت هذا الاسم هو: **زيوس**، لأن **زيوس** يعطي الحياة لكل الأشياء بواسطة السماء. **وأوزيارك** الشمس هو النور، لأنه بوساطة قرص الشمس نتلقى نعمة النور. وطوالع النجوم المحددة، الستة وثلاثون، لها أوزيارك أو أمير، يسمى **بانتومورفوز**، أو أحادي الشكل omniforme ، لأنه يعطي أشكالاً مختلفة لمختلف الأنواع. وللكواكب السبعة، أو الأفلاك المتنقلة بأوزيارك الحظ والقدر، اللذان يدعمان الاستقرار الأزلي لقوانين الطبيعة عبر التحولات غير المتوقفة والتحرك الأزلي. وإن الهواء هو الأداة، والآلة التي يحصل بها كل شيء. وأوزياركه[٧]... هكذا فإنه من المركز إلى الأجزاء الخارجية يتحرك كل شيء وتقوم العلاقات تبعاً للمشابهات الطبيعية: فما هو فان يتقرب مما هو فان، وماهو محسوس يتقرب مما هو محسوس ويعود التوجيه الأسمى إلى العلي الأعلى، بحيث يحل الاختلاف في الوحدة. لأن كل الأشياء ترتبط بالوحدة أو تنبع منها، وكما أنها تبدو بعيدة ببعضها عن البعض الآخر، يُعتقد أنها عديدة، لكنها في مجملها لاتشكل إلا مبدأ أو اثنين. وهذان المبدآن اللذان ينبع منهما كل شيء وبهما يوجد كل شيء، هما المادة التي تكونت منها الأشياء وإرادة من يبدلها.

اسكليبيوس: وما سبب هذا أيها المثلث العظمة؟

(٧) يبدو أن نهاية هذه الجملة قد تم تحريفها مما جعلها خالية من أي معنى.

هرمس: إلَيْكهُ يا اسكليبيوس: إن الله، الأب، السيد الكلي، أو قل مهما يكن الاسم أكثر قداسة وأكثر تديناً الذي يمكن اعطاؤه له، ان الله هذا بسبب عقلنا يجب أن يكون مقدساً بيننا؛ لكن ونحن نتأمل ألوهته، لانستطيع أن نعرفه بأي واحد من هذه الأسماء. لأن هذا الصوت هو نغم آت من صدم الهواء ومعلناً كل إرادة الإنسان، أو الإدراك الذي تلقَّاه ذهنه بواسطة الحواس. هذا الاسم المؤلف من عدد محدد من المقاطع كي يستخدم صلة بين الصوت والأذن، وزيادة على ذلك الإحساس، والريح، والهواء، وكل مايحتويه، وكل مايرتبط به، ذلك هو مايعبر عنه اسم الله، ولا أعتقد أن اسماً، مهما كان معقداً يمكن أن يعين مبدأ العظمة الكلية، أبُ كل الأشياء وسيدها. لكنْ من الضروري اعطاؤه اسماً واحداً، أو بالأحرى كل الأسماء، طالما أنه واحد وكل؛ ويجب، أما القول أن كل الأشياء هي اسمه، وإما تسميته بأسماء كل الأشياء. فهو إذن الواحد والكل، المالك لكل كمال وشمولية خصوبة الجنسين. خصب دائماً بإرادته الخاصة، يولّد كل مايريد أن ينتج. إرادته هي الطيبة الشاملة، الطيبة ذاتها التي توجد في كل الأشياء. وقد ولدت الطبيعة من ألوهته، كي تكون الأشياء كلها كما هي، وكما كانت، ويكفي الطبيعة العمل على أن تولِّد منها كل ماسوف يولد في المستقبل. ذلك هو يا اسكليبيوس، لماذا وكيف أن للأشياء جميعها الجنسين.

اسكليبيوس: أتقوله إذن للإله، أيها المثلث العظمة؟

هرمس: ليس فقط لله، وإنما لكل الكائنات الحية وغير الحية. لأنه من المستحيل أن يكون أحد الأشياء التي توجد عقيماً. لِنُلْغِ خصوبة كل الأشياء التي توجد، وسوف يكون مستحيلاً أن تكون دائماً ماهي عليه. لأنني قلت أن هذا [قانون التوالد] متضمن في الطبيعة، وفي العقل، وفي العالم، ويحفظ كل مايُولد. إن الجنسين مليئان بالتوالد، وأن

قرانهما، أو بالأحرى توحدهما غير المفهوم يمكن أن يسمى إيروس (كوبيدون) أو أفروديت (فينوس) أو لهذين الاسمين في آن واحد. وإذ كان الذهن يدرك شيئاً ما أكثر حقيقة وأكثر وضوحاً من كل حقيقة، فذلك هو هذا الواجب من الإنتاج الذي فرضه إله الطبيعة الشاملة للأبد على كل الكائنات، والذي ارتبط به الإحسان الأعلى، والفرح والسرور، والرغبة والحب الإلهي. وسوف ينبغي إظهار قوة وضرورة هذا القانون إذا لم يعترف به كل واحد ويراعيه بالشعور الداخلي. تأمَّل أنه فعلاً في الفترة التي تنزل فيها الحياة من الدماغ، تختلط الطبيعتان وأن الواحدة، بشراهة تُمسك وتخفى في ذاتها بذرة الأخرى. وفي هذه اللحظة، وبفعل هذا الارتباط المتبادل، تتلقى الإناث قوة الذكور، وترتاح الذكور على أجساد النساء، هذا السر العذب والضروري يكتمل في سرية، خوفاً من أن لاتُكره ألوهةٌ على الخجل أمام سخريات الجهلة، فيما لو كان القران بين الجنسين معرضاً لنظرات لا دينية. وعلى ذلك فإن الناس الأتقياء ليسوا كثيرين في العالم، حتى أنهم نادرون وقد يمكن عدُّهم بسهولة. وفي الغالِب يبقى الخبث مغيباً عن فطنة وعلم أشياء الكون.

إن العقل الديني الإلهي، أساس جميع الأشياء، وهو يزدري كل العيوب في العالم، ويقدم لها العلاج؛ لكن عندما تمتد الجهالة، تتنامى العيوب وتشكل للروح جرحاً لايلتئم. والروح المصابة بالعيوب، هي، كمنتفخة بالسموم لايمكن أن تشفى إلا بالعلم والعقل. فلنتبع إذن هذا التعليم، الذي لاينبغي ان يفيد سوى عدد قليل. وتعلّم لماذا أن الله أعطى للإنسان وحده جزءاً من عقله وعلمه. اصغِ يا اسكليبيوس.

إن الله، الأب والسيد، كوَّن البشر بعد الآلهة وذلك بالجمع بنسب متساوية للجزء القابل للفساد من العالم مع جزئه الإلهي، وقد نجم عن ذلك بقاء عيوب العالم ممتزجة بالجسد. فالحاجة إلى الغذاء، المشترك بيننا وبين جميع الحيوانات، يخضعنا إلى الرغبات وإلى كل

عيوب الروح الأخرى. إن الآلهة، المشكلة من الجزء الأكثر نقاء من الطبيعة ليست بحاجة لعون من الإدراك والدراسة؛ فالخلود والفتوة الأبدية هما بالنسبة لها الحكمة والعلم. مع ذلك، وبموجب وحدة النظام، ولكي لاتكون أجنبية أبداً عن هذه الأشياء، أعطاها الله بدلاً عن الإدراك والعقل القانون الأزلي للضرورة.

فالإنسان وحده بين كل الحيوانات، من أجل أن يتحاشى أو يقهر شرور الجسد، يتمتع بمعونة الإدراك والعقل، والأمل بالخلود. إن الإنسان، المخلوق جيداً والذي يمكن أن يكون خالداً، كان قد تكون من طبيعتين، إحداهما إلهيه والأخرى فانية، وبتشكله هكذا، جعلته الإرادة الإلهية أعلى من الآلهة التي ليس لها سوى طبيعة خالدة، كما هو أسمى من كل الكائنات الفانية. ولهذا فإن الإنسان، متصل بصلة محكمة مع الآلهة، ويقدم لها عبادة دينية، وتسهر الآلهة بدورها على الأشياء البشرية مع عاطفة حلوة، لكنني لا أقصد هنا إلا الناس الأتقياء؛ أما الخبثاء فلا أريد أن أقول بصددهم شيئاً، كي لا أُلوِّثَ، بالتوقف عليهم، قداسة هذا الخطاب.

ـ ٩ ـ

بما أننا قد انْقَدْنا للحديث عن قرابة البشر وتشابههم مع الآلهة، اعلم يا اسكليبيوس، سلطة وقوة الإنسان. فمثل السيد والأب، أو بعبارة أكثر رفعة، الله، خالق الآلهة السماوية، كذلك الإنسان هو خالق الآلهة التي في المعابد، المسرورة بالقرب من الإنسان، وليست هي منارة فقط، ولكنها تنير. وهذا في الوقت نفسه يفيد الإنسان ويرسخ الآلهة. فهل تتعجب يا اسكليبيوس، أو هل تفقد الإيمان مثل كثيرين؟

اسكليبيوس: إنني مشوش، أيها المعظم؛ لكني بموافقتي بملء الر

ضى على كلماتك أحسب أن الإنسان الذي حصل على مثل هذه البركة سعيد جداً.

هرمس : بالتأكيد إنه يستحق أن نعجب به، ذلك الذي هو أكبر من كل الآلهة. لأن عرقها مكون من الجزء الأكثر نقاء من الطبيعة، دون خلطه بعناصر أخرى، وعلاماتها المرئية ليست، كما يقال، سوى رؤوس (الكواكب). لكن جنس الآلهة التي تشكل الإنسانية مؤلف من طبيعتين إحداهما إلهية، هي الأولى وهي الأكثر صفاء بكثير؛ والأخرى التي تنتمي إلى الإنسان، وتلك هي المادة التي صنعتها تلك الآلهة التي ليس لها رؤوس فحسب، وإنما أجسام كاملة مع كل أعضائها. وهكذا فإن الإنسانية بتذكرها لطبيعتها ولأصلها يستمر في هذا تقليد الألوهة: لأنه كما أن الأب والسيد قد صنع الآلهة الأبدية المشابهة لنفسه كذلك صنعت البشرية آلهتها على شاكلتها الخاصة.

اسكليبيوس: هل تود أن تقول التماثيل أيها المثلث العظمة؟

هرمس: نعم التماثيل يا اسكليبيوس؛ أترى كم يفوتك من الإيمان؟ التماثيل الحية الملأى بالشعور والأمل، التي تصنع كثيراً وأشياء كبيرة، التماثيل النبوية التي تتنبأ بالمستقبل بالأحلام وكل أنواع الطرق الأخرى، والتي تصيبنا بالأمراض أو تشفي آلامنا حسب استحقاقاتنا. هل تجهل، يا اسكليبيوس، أن مصر هي صورة السماء، أو هي بالأحرى اسقاط على الأرض لكل ترتيب الأشياء السماوية؟ وإذا شئت قول الحقيقة فإن أرضنا هي معبد العالم. مع ذلك، وكما ينبغي تبصر الحكماء لكل شيء، إنه لشيء ينبغي أن تعرفه: سيأتي زمن يبدو فيه أن المصريين قد راعوا عبثاً عبادة الآلهة مع مزيد من الورع، وأن كل إيحاءاتهم المقدسة كانت عقيمة وغير رفيعة. وستترك الآلهة الأرض وتعاود الصعود للسماء، تاركة مصر، مقرها القديم تاركة إياها أرملة من الديانة، محرومة من وجود الآلهة. وأجانب يملأون البلاد والأرض، ولن تهمل

الأشياء المقدسة فحسب، وإنما، ماهو أقسى أيضاً، ستكون الديانة، والتقوى، وعبادة الآلهة محرمة ومعرضة للعقوبة بالقوانين. وعندئذ سوف تكون هذه الأرض المقدسة بالعديد من المعابد والكنائس، مغطاة بالقبور والأموات. يا لمصر.. يا لمصر..! لن يبقى من ديانتك سوى قصص غامضة لاتعتقد بها الأجيال، ومجرد كلمات منقوشة على الحجر تحكي عن التقوى. فالثيسيون أو الهنود، أو بعض الجوار من البرابرة سوف يسكنون مصر. وسوف يصعد الإلهي للسماء وستموت الإنسانية المهملة برمتها، وسوف تكون مصر صحراء أرملة من الرجال ومن الآلهة.

أتوَّجهُ إليك، أيها النهر المقدس كثيراً، وأُعلمك بالمصير. إن فيضانات من الدم، الملوثة لموجاتك الإلهية، ستطفو على شطآنك، وسوف يتجاوز عدد الموتى عدد الأحياء، وان يبقى بعض السكان المصريين، بلغتهم فقط، فسوف يكونون غرباء بعاداتهم. آه. أنت تبكي يا أسكليبيوس! سيكون هنالك أشياء أكثر حزناً أيضاً، إن مصر نفسها سوف تقع في الردة، أسوأ الشرور. إنها، وهي التي كانت الأرض المقدسة، المحبوبة من الآلهة لتفانيها في عبادتها، سوف تكون الافساد للقديسين، ومدرسة الكفر، والنموذج لكل أنواع العنف. وعندئذ لن يعود للإنسان فيها وهو ممتلئ بالقرف من الأشياء، لا إعجاب ولا حب بالنسبة للعالم. إنه سوف ينحرف عن هذا العمل الكامل، الذي كان الأفضل في الحاضر كما في الماضي والمستقبل. ففي سأم وتعب الأرواح، لن يعود هنالك سوى الازدراء بهذا العالم الواسع، وبهذا العمل الثابت للإله، وهذا الإنشاء الضخم والكامل ومجمل تعدد الأشكال والصور، حيث أن إرادة الله المفرطة بالروائع، قد جمعت الكل في مشهد وحيد، وفي تركيب متناسق، جدير بالتمجيد إلى الأبد، وبالثناء والحب. وسوف تفضل الظلمات على النور، وسوف يرى المرءُ أنَّ الموت أفضل من الحياة، ولن ينظر أحد للسماء.

إن الإنسان المتدين سوف يُعَدُّ مجنوناً، والكافر عاقلاً، والطائشون شجعاناً، والأكثر شراً هم الفاضلون. تُرى هل الروح وكل مايرتبط بها، ولدت فانية، وهل يمكن أن تأمل بزوال الخلود؟ - كل ماعرضته لك هنا، لايدعو إلا للضحك، ولايرى فيه غير العبث. وحتى أنه سيتهدد، صدقوني، خطر الموت من يحافظ على ديانة العقل. سوف تقام قوانين جديدة، وشريعة جديدة، لاكلمة، لامعتقد مقدس، وديني، جدير بالسماء والأشياء السماوية. طلاق يدعو للأسف، بين الآلهة والبشر! لن يبقى سوى الملائكة الأشرار يختلطون بالإنسانية البائسة، يدهم عليها، ويدفعونها إلى كل التهورات السيئة، وإلى الحروب، إلى السلب، إلى الكذب وإلى كل ماهو مناقض لطبيعة الأرواح. لن يكون للأرض توازن، ولن يكون البحر قابلاً للملاحة، وسوف يكون مسار النجوم المنتظم مضطرباً في السماء. كل صوت إلهي سيكون محكوماً عليه بالصمت، وسوف تفسد ثمار الأرض وتتوقف عن أن تكون خصبة، والهواء نفسه سيتعفن في خمود محزن. كما ستكون شيخوخة العالم، اللامتدين. والفوضوي، واختلاط كل قاعدة وكل خير.

عندما تكتمل هذه الأشياء جيمعها، يا اسكليبيوس، عندئذ، فإن السيد والأب، الله تعالى الذي يحكم وحدة العالم، وبرؤيته للأخلاق وأعمال البشر، سوف يصلح هذه الشرور بعمل من إرادته وطيبته الإلهية؛ ولكي يضع حداً للخطأ والفساد العام، سوف يغرق العالم في طوفان، أو يحرقه بالنار، أو سوف يدمره بالحروب والجائحات المرضية، وسيعيد إلى العالم جماله الأول(٨)، كي يبدو العالم أيضاً جديراً بالإعجاب والعبادة، وكي تحتفل جوقة المدائح والتبريكات بتمجيد الله

(٨) أورد لاكتانس بداية هذه الجملة كلّها في الفصل السابع ص١٨ . يلّمح هذا الاستشهاد إلى المقطع السابق الذي يورده لاكتانس بشكل أكثر دقة في كتابه «الموجز» ص٨ .

الذي خلق وبعث عملاً جميلاً كهذا. هذا البعث للعالم وهذا التجديد بكل الأشياء الجميلة وهذا الإحياء المقدس والديني للطبيعة ستكون له مكانته بعد الزمن المحدد بالإرادة الإلهية والخالدة في كل مكان، دون بداية وهي نفسها دائماً.

اسكليبيوس: فعلاً، طبيعة الله هي إرادة رزينة، وطيبة سامية وحكمة أيها المثلث العظمة.

هرمس: إن الإرادة تتولد من التفكير، يا اسكليبيوس، وحتى ان الارادة نفسها هي عمل مشيئة. لأن مَنْ هو كمالُ الأشياء كلها والمالك لما يريد، لايريد شيئاً صدفة. لكن كل مايريده هو حَسَنٌ وله كل مايريد؛ وكل ماهو حسن يفكر فيه ويريده. ذلك هو الله والعالم صورة إرادته.

اسكليبيوس: هل العالم حسن، أيها المثلث العظمة.

هرمس: نعم إن العالم حسن، يا اسكليبيوس كما سوف أعلمك ذلك. وكأن الله يمنح لكل الكائنات ولكل الأصناف في العالم الخيرات من كل الأنواع، أي الفكر، والروح والحياة، كذلك العالم يشاطر ويوزع كل مايبدو حسناً للفانين، الفترات المتناوبة وثمار كل فصل، والولادة، والتنامي، والنضج وأشياء أخرى مماثلة. وهكذا فإن الله وهو جالس فوق قمة السماء، حاضر في كل مكان ويرى كل شيء. لأنه يوجد خارج السماء مكان بدون نجوم، وخارج كل الأشياء المجسدة. ويحكم بين السماء والأرض موزع الحياة الذي نسميه (جوبيتر) زوس، وعلى الأرض والبحر يحكم جوبيتر بلوتونيوس (زوس تحت الأرض سارابيس؟) الذي يغذي كل الحيوانات الفانية، والنباتات والأشجار التي تحمل الثمار على الأرض. وإن أولئك الذين ينبغي أن يسودوا الأرض سيكونون مرسلين، وقائمين على نهاية مصر، في مدينة سوف تبنى نحو الغرب وحيث، بالبحر والأرض، سوف يسيل كل العرق الفاني.

اسكليبيوس: ولكن أين هم الآن أيها المثلث العظمة؟

هرمس: إنهم مقيمون في مدينة كبرى، على جبل ليبيا. وفي هذا كفاية.

ـ ١٠ ـ

علينا الآن أن نتكلم عن الخالد والفاني. فالأكثرية، الجاهلة بسبب الأشياء، مضطربة بالانتظار والخوف من الموت. الموت يصل بانحلال الجسد، منهكاً من عمله. فعندما يكتمل العدد الذي يدعم الوحدة، لأن علاقة الجسد هي عدد، يموت الجسد. ويحصل هذا عندما لايعود في مكنته تحمل أعباء الحياة. ذلكم إذن هو الموت، انحلال الجسد ونهاية الأحاسيس الجسدية(٩). ومن الفائض عن الحد القلق منه. لكنه قانون ضروري آخر تحتقره الجهالة أو عدم المصداقية البشرية.

اسكليبيوس: ماهو ذلك القانون الذي نجهله أو لانؤمن به.

هرمس: انتبه يا اسكليبيوس. عندما تنفصل الروح عن الجسد، فإنها تمضي لكي تُحَاكَم حسب استحقاقاتها، تحت قوة الشيطان العليا؛ فإنْ يجدها تقية وعادلة يسمح لها بأن تبقى في مقرها؛ لكنه إنْ يراها ملوثة بالأوساخ والعيوب، فإنه يقذف بها من الأعلى إلى الأسفل ويسلمها إلى العواصف والزوابع المعاكِسة للريح، والنار، والماء. وباضطرابها بين السماء والأرض بأمواج الدنيا، سوف تُجَرُّ من جانب لآخر في العذابات الأبدية(١٠)؛ ويعطي خلودها مدة أزلية للحكم

---

(٩) وردت الجملة السابقة في كتاب «ستوبي».

(١٠) يذكّر هذا النص بمقطع آخر لأمبيدوكل، يستشهد به بلوتارك: «تلحق بهم القوى الأثيرية حتى البحر ويقذفهم البحر الى الشاطئ وترسلهم اليابسة الى الشمس التي لاتعرف الكلل والتي تقذفهم بدورها الى أعاصير الأثير التي تتقاذفهم والكلّ حاقد عليهم».

الصادر ضدها. إنك تعلم كم يتوجب علينا الخوف والرهبة من مصير مشابه. فالذين يرفضون الاعتقاد بذلك سوف يقتنعون قسراً عندئذ، ليس بكلمات، بل بأمثلة، وليست بتهديدات، بل بأنواع الآلام التي يقاسون منها.

اسكليبيوس: أخطاء البشر، أيها المثلث العظمة، لاتعاقب إذن بالقانون البشري فقط؟

هرمس: يا اسكليبيوس، إن كل ماهو أرضي فهو فان. فالذين يأتون حسب الشرط الجسدي، والذين يخالفون أثناء الحياة القوانين المفروضة على هذا الشرط، يخضعون بعد الموت إلى عقوبات هي بالأحرى أكثر قسوة من الأخطاء العديدة التي ارتكبوها وتمكنت من البقاء مستورة؛ فعلم الله المسبق الشامل سوف يجعل العقاب متناسباً مع الأخطاء.

اسكليبيوس: من هم الذين يستحقون أكبر العقوبات أيها المثلث العظمة؟

هرمس: أولئك الذين، بالحكم عليهم بموجب القوانين البشرية، يهلكون بالموت العنيف، بحيث يبدون، أنهم لم يسددوا دَيْنَهم للطبيعة، لكنهم تلقوا ثمن أعمالهم. فالإنسان العادل، على العكس، يجد في الدين والتقوى عوناً كبيراً، ويحفظه الله ضد كل الشرور؛ ويتجلى الأب، السيد لكل الأشياء، والذي هو وحده الكل، يتجلى بطيبة خاطر للجميع؛ ليس بأن يظهر في أي مكان يقيم، ولا ماهي صفته أو عظمته، ولكنه ينير الإنسان بالعقل وحده، الذي يبدد ظلمات الخطأ ويكتشف أنوار الحقيقة. فبها يتحد الإنسان بالعقل الإلهي، وباستلهامها، يتحرر من الجزء الفاني من طبيعته ويدرك الأمل بالخلود، ذلك هو الفارق بين الطيبين والأشرار. فالذي ينيره الورع، والدين والحكمة وعبادة الله والصلاة إليه، يدرك كما لو أنه يرى بعينيه، السبب الحقيقي للأشياء،

وبثقته بإيمانه، يرجح بمقدار على الناس الآخرين شأنه شأن الشمس على كواكب السماء الأخرى. ذلك لأن الشمس إذا كانت تضيء بقية النجوم، فليس ذلك بعظمتها وقوتها أكثر مما هو بألوهيتها وقداستها. فينبغي، أن يُرى فيها، يا اسكليبيوس، إلهاً ثانياً يحكم بقية العالم، وينير كل السكان الأحياء وغير الأحياء.

بما أن العالم كان ويكون وسوف يكون حياً دائماً، فلا شيء فانٍ فيه. فكل جزء منه حي؛ لأنه في حيوان واحد حي دائماً لايوجد مكان للموت. وهكذا فإن الله مليء بالحياة والأزلية، لأنه حي قيوم؛ والشمس خالدة كالعالم، وتحكم للأبد الكائنات الحية، إنها المصدر والموزع لكل حيوية. فالله إذن الحاكم الأولي لكل مايتلقى الحياة ولكل ما يعطيها، والموزع الأزلي لحياة العالم. وعلى ذلك، وزع الحياة على كل الأحياء بموجب قانون أزلي ها أنا أوضحه لك: حركة العالم هي حياة الأزلية؛ والمكان الذي تتحرك فيه هو الأزلية للحياة. إنها لن تتوقف أبداً، ولن تفسد مطلقاً؛ فاستمرارية الحياة الأزلية تحيط بها وتحميها مثل سور. وتوزع الحياة على كل مافيها؛ إنها الرابطة لكل ماهو منظم تحت الشمس. أثر حركتها مزدوج، إنه حي بالأزلية التي تغلفه، وهو يحيي بدوره كل مايحتويه، موزعاً كل الأشياء حسب أعداد وأزمنة ثابتة ومحددة. وتبعاً لِعَملِ الشمس والنجوم، صُنِّفَ كل شيء في الزمان وفقاً لقانون إلهي. فالزمن الأرضي يتميز بحالة الجو، وتناوبات الحرارة والبرودة، بينما الزمن السماوي يتميز بثورات الكواكب التي تعود دورياً إلى الأمكنة نفسها. فالعالم مستودع الزمن، الذي تغذي الحياة فيه الحركة والسيرورة، والترتيب والزمن ينتجان تجدد كل ماهو في العالم، في فترات متناوبة.

ـ ١١ ـ

طالما أن تلك هي حالة الكون، فإنه لايوجد شيء ثابت، لاشيء مستقر، لاشيء جامد أو غير متحرك في الطبيعة، ولا في السماء ولا على الأرض. لأن الله وحده، وحده بحق، هو مليء وكامل بذاته، من ذاته، وحول ذاته. إنه بذاته هو ثباته الراسخ؛ فلا يمكن أن يكون متحركاً باختلاج ما، لأن كل شيء هو فيه وأنه وحده هو الكل. إلا إذا كنا لانجرؤ على القول أن حركته هي في الأزلية؛ لكنه، على العكس، هذه الأزلية بذاتها التي هي ثابتة، لأن كل حركة الأزمنة ترجع إليها وتأخذ فيها شكلها. فالله كائن إذن وثابت إلى الأبد؛ ومعه تكون الأزلية غير متحركة، ولها في ذاتها العالم اللامخلوق، الذين يمكن تسميته حساساً (؟). العالم، صورة الله، هو تقليد للأزلية ـ والزمن، رغم حركته المستمرة، يمتلك بعوداته الضرورية على ذاته، القوة وطبيعة الثبات. وهكذا، ومع أن الأزلية ثابتة وغير متحركة، مع ذلك وكما أن حركة الزمن تنطوي في الأزلية، وأن هذه الحركة هي شرط الزمن، يبدو أن الأزلية، غير المتحركة بذاتها تتحرك بواسطة الزمن الذي هو فيها والذي يتضمن كل حركة. ويستخلص من ذلك أن ثبات الأزلية يتحرك، وأن الحركة تصبح ثابتة بالقانون المستقر لمسيرتها. هكذا يمكن الاعتقاد أن الله يتحرك بذاته في لاحركيته. فالاهتياج اللامتحرك لثباته هو في عظمته؛ وقانون العظمة هو اهتياج لامتحرك.

مالايقع تحت الحواس، اللامتناهي، اللامفهوم، اللامتحقق لايمكن أن يكون لامعتمداً، ولامحمولاً، ولامبحوثاً عنه. لايمكن أن يقال من أين يأتي، أين يمضي، أين هو، كم هو، ولاكيف هو. إنه محمول في

ثباته الأعظم، وثباته هو في ذاته، سواء أكان الله أو الأزلية، وسواء أكان الواحد والآخر، وسواء الواحد في الآخر، وسواء الواحد والآخر في كلا الاثنين. الأزلية هي في الزمن اللامتناهي، والزمن الذي يمكن أن يعرف بالعدد، وبالتناوب، والعودة الدورية أبدية. وهكذا فإن الأول والآخر يبدوان لانهائيين وأبديين. والثبات، بكونه نقطة ثابتة تستخدم قاعدة للحركة، يجب، بسبب هذا الثبات، أن تحتل الصف الأول. فالله، مع الأبدية، هو مبدأ كل الأشياء؛ والعالم، الذي هو متحرك، لايمكن وضعه في الخط الأول. ففيه تأتي الحركية قبل الثبات، بهذا القانون من الاهتياج الأزلي في صلابة لامتحركة، كل شعور الألوهة هو إذن غير متحرك ويتحرك في ثباته؛ فهو مقدس، غير قابل للفساد، أزلي، وللتعريف به بصورة أفضل أيضاً، إنه الأزلية المتماسكة في حقيقة الله الأعلى، والكمال لكل إحساس وكل علم، متماسك كما يقال في الله. إن شعور العالم هو المستودع لكل الأشياء الحساسة، والأجناس والعلوم. والشعور الإنساني يتكون في الذاكرة، ومن خلاله يتذكر الإنسان كل أعماله.

إن شعور الألوهة ينزل حتى إلى الحيوان البشري. فالله لم يشأ أن ينشر على كل الكائنات هذا المعنى السامي والإلهي خوفاً من أن يحط بالعظمة، يخلطها مع حيوانات أخرى. فعقل الحس البشري، مهما كانت شدته وقوته، هو برمته في ذاكرة الماضي؛ وإنه بوساطة هذه الصلابة للذاكرة أصبح الإنسان ملك الأرض. إن عقل الطبيعة والصفة، ومعنى العالم يمكن اكتشافه بالأشياء المحسوسة التي في العالم. والأزلية، التي تأخذ الصف الثاني تعطي معناها وتعرف صفتها تبعاً للعالم المحسوس. بيد أن عقل الطبيعة الإلهية، معرفة الله تعالى، هي الحقيقة الوحيدة، ولايمكن أن نكتشف هذه الحقيقة، حتى ولا ظلها في هذا العالم الممتلئ بالأكاذيب والمظاهر المتغيرة والأخطاء.

تلاحظ، يا اسكليبيوس، إلى أي ارتفاع نجرؤ أن نصل. فلتغفر لي أيها الله العلي! يا من أنرت لي أشعة من ألوهتك. وبالنسبة لكم يا تات، ويا اسكليبيوس ويا أمون، فحافظوا على هذه الأسرار الإلهية في سر قلوبكم واستروها بالصمت. إن العقل يختلف عن الشعور في كون عقلنا يتأتى بالتطبيق للفهم وبالمعرفة لطبيعة العالم. وعقل العالم يصل حتى إلى معرفة الأزلية والآلهة فوق الكونية. إننا نحن البشر الآخرون، كما لو عبر ضباب ننظر في السماء، بمقدار مايسمح لنا شرط الإحساس البشري. إن جهودنا ضعيفة جداً لاكتشاف أشياء كبيرة على هذه الدرجة، لكننا عندما نتوصل إليها، فإننا نكافأ عنها بالسعادة وبالضمير.

ـ ١٢ ـ

وأما فيما يخص الفراغ، الذي يُعلِّق عليه الكثيرون مزيداً من الأهمية، فهو في رأيي لايوجد، ولم يوجد مطلقاً، ولن يوجد أبداً. لأن كل أجزاء العالم هي ممتلئة تماماً، وكما أن العالم هو ذاته كامل ومليء بأجسام مختلفة الصفة والشكل، لها مظاهرها وعظمتها: بعضها كبير كثيراً وبعضها الآخر صغير كثيراً، بعضها صلب كثيراً وبعضها رقيق كثيراً. والتي هي أكبر وأقوى تلتقى بسهولة؛ والأصغر والأكثر رقة يصعب لمحها أو هي تماماً غير مرئية. لانعرف وجودها إلا بلمسة؛ وأيضاً ينظر إليها بعضهم ليس كأجساد، وإنما كفراغات خالية، وهذا أمر مستحيل. فان يُقَلْ عن وجود بعض الأشياء خارج العالم، وذلك مالا أعتقده، فسيكون فضاءاً مملوءاً بأشياء غير معقولة ومشابهة لألوهتها، بحيث أنه حتى العالم الذي يسمى حساساً يكون مليئاً بأجسام وكائنات في علاقة مع طبيعتها وصفتها. وفي هذا لانرى كل الوجوه، فبعضها كبير جداً وبعضها صغير جداً، أو أنه يبدو لنا كذلك بفعل

البعد أو بعدم كمال نظرتنا؛ فرقتها القصوى يمكن أن تدعو إلى الاعتقاد بالعديد مما لايوجد. وأتحدث عن الشياطين، التي أعتقد أنها تسكن معنا، والأبطال التي تسكن فوقنا، بين الأرض والجزء الأكثر نقاء من الهواء؛ حيث لاتوجد لا غيوم ولا أي أثر للاهتياج.

فلا يمكن القول إذن يا اسكليبيوس، أن شيئاً يكون فارغاً، إن لم يُقَلْ عن هذا الشيء أو ذاك بأنه فارغ؛ فارغ على سبيل المثال، من النار، من الماء، أو شيء آخر مماثل. وإذا حصل أن هذا أو ذاك، صغيراً أو كبيراً، هو فارغ من أشياء مادية من هذا النوع، فلا شيء يمكن أن يكون فارغاً من الريح أو الهواء. ولايمكن القول كذلك عن المكان؛ فهذه الكلمة وحدها لايمكن أن تفهم إذا لم تطبق على شيء ما. فبإزاحة العبارة الرئيسية، نقطع المعنى؛ وبحق يقال أيضاً: مكان الماء، مكان النار أو شيء آخر مماثل. وكما أنه مستحيل وجود شيء من فراغ، لايمكن فهم مكان لوحده. فإذا افترض مكان بدون محتواه، فذلك يجب أن يكون مكاناً فارغاً، الأمر الذي لايوجد في العالم حسبما أرى. فإذا لم يكن شيء فارغاً، فلا يمكن رؤية ماسوف يكون المكان في ذاته، إذا لم يضف إليه طول وعرض، وعمق كما للأجسام البشرية علامات تميزها.

الأمر هكذا يا اسكليبيوس وأنتم شهود، اعلموا أن العالم المعقول، أي الله، الذي لايلمح إلا بنظرة العقل، هو غير متجسد، ولايمكن أن يختلط بطبيعته شيء من الجسماني، ولاشيء يمكن أن يكون معرفاً بالصفة، والكمية أو العدد لأنه ليس ثمة من شبيه له. وهذا العالم الذي نسميه حساساً، هو وعاء لكل الظواهر الحساسة، وصفات الأجساد، وكل هذا المجموع لايمكن أن يوجد بدون الله. ذلك لأن الله هو الكل، وكل شيء يأتي منه ويرتبط بإرادته؛ إنه يحتوي على كل ماهو حسن ومناسب وعاقل وفريد، مُدْرَك لذاته وحده، معقول بالنسبة لذاته وحده. وخارجاً عنه، لم يوجد شيء، ولايوجد، ولن يوجد؛ لأن كل شيء يأتي منه، هو فيه وبه: الصفات المتعددة، وأكبر الكميات،

وأنواع العظمة التي تتجاوز كل معيار، والأنواع من كل الأشكال. ان تفهم هذه الأشياء، يا أسكليبيوس تحمد لله؛ وبمراعاتك للمجموع، سوف تفهم بوضوح أن هذا العالم المحسوس وكل مايحتويه مغلف كثوب بالعالم الأعلى. يا اسكليبيوس، الكائنات من كل نوع، فانية وغير فانية، عاقلة، حية وغير حية ولأي صنف تنتمي، تقدم صورة صنفها، ومع أن كل واحد من بينها له الشكل العام لنوعه، مع ذلك فإن للجميع فيما بينهم فوارق. وهكذا فإن الجنس البشري وحيد الشكل ويمكن تعريف الإنسان بنموذجه؛ ومع ذلك فإن الناس تحت هذا الشكل الوحيد غير متشابهين. ذلك لأن النوع (الصفة الفردية) التي تأتي من الله هي غير مجسدة، مثل كل هذا الذي فهم بالعقل. وطالما أن العنصرين اللذين يحددان الشكل هما الأجسام واللاأجسام، فإنه من المستحيل أن تولِّد شكلاً مشابهاً تماماً لآخر، على مسافات مختلفة من الزمان والمكان. إن الأشكال تتغير على قدر ما للساعة من لحظات في الدائرة المتحركة حيث يوجد ذلك الإله الكلي الشكل الذي تكلمنا عنه. فالنوع (الفردية) يستمر في إنتاج صور من ذاته على قدرها لدوران العالم من لحظات. ان العالم يتغير في دورته، لكن ليس للنوع لا عصر ولا تغيرات. وهكذا فإن أشكال كل جنس هي دائمة ومتغايرة في النموذج نفسه.

اسكليبيوس: هل العالم يغير المظهر أيضاً أيها المثلث العظمة؟

هرمس: قد يقال إنك كنت نائماً في أثناء هذا الإيضاح. ماهو العالم، ممَّ يتركب إن لم يكن من كل مايتولد؟ أتريد إذن التحدث عن السماء، والأرض والعناصر، لأن الكائنات الأخرى تغير مظهرها حسب المألوف؟ السماء، ممطرة أو جافة، حارة أو باردة، صافية أو مغطاة بالغيوم، تلك هي أنواع التغيرات المتتالية للمظهر في وحدانية الشكل السماوي الظاهرة. الأرض تغير مظهرها باستمرار، عندما تولِّد الثمار وعندما تغذيها، وعندما تحمل منتجات متنوعة الصفة والكمية: هنا

الراحة، هنالك الحركة، وكل هذه الأنواع من الأشجار والزهور والحبوب والملكيات والروائح، والمذاقات، والأشكال. وبما أن للشمس والقمر كل أنواع المظاهر القابلة للمقارنة بتكاثر الصور هذه التي تنتجها مرايانا فكذلك للنار تحولاتها المتعددة والإلهية. ولكن لنكتفِ حول هذا الموضوع.

ـ ١٣ ـ

لنعد إلى الإنسان وإلى هبة الحكمة الإلهية التي سمَّت الإنسان حيواناً عاقلاً. فبين كل الأعاجيب التي رأيناها في الإنسان، تلك التي توحي بالإعجاب بخاصة، هي أن الإنسان استطاع أن يجد الطبيعة الإلهية وأن يستعملها. إن أجدادنا[١١] [كانوا يضلّون في الشك] حول مايمس الآلهة و[لم] يوجهوا ذهنهم نحو العبادة والديانة الإلهية، لقد وجدوا فن صنع الآلهة، وبإيجاده، خلطوه بفضيلة مناسبة مستخلصة من طبيعة العالم. وكما أنهم لم يكونوا يستطيعون صنع أرواح، فقد استدعوا أرواح الشياطين أو الملائكة وثبتوها في الصور المقدسة والأسرار الإلهية، الوسيلة الوحيدة لاعطاء الأصنام قوة صنع الخير أو الشر. وهكذا، فإن لجدك يا اسكليبيوس، أول مخترع للطب معبداً على جبل ليبيا، على ضفاف نهر التماسيح، حيث ينام ماينتمي فيه إلى العالم، أي جسده؛ والباقي، وهو الجزء الأفضل منه، أو بالأحرى ذاته، لأن مبدأ الشعور والحياة هو الإنسان برمته، قد عاود الصعود إلى السماء. ويحمل الآن عوناً للناس في أمراضهم، بعد أن لقنهم فن الشفاء. وإن هرمس، جدي، الذي أحمل اسمه، أقام في الوطن الذي كان أيضاً قد أُعطيَ له اسمه، ويمجده أولئك الذين أتوا إليه من كل الأطراف ليحصلوا منه على

(١١) اضع بين قوسين الكلمات التي تناقض بشكل واضح المعنى العام ويُعزى هذا التناقض برأيي الى ناسخ نصراني.

السلامة والعون. كم من الخيرات نشرت ايزيس زوجة **أوزيريس**، على الناس، عندما استُعْطِفت، وكم من الآلام عندما أُغضبتْ! ذلك أن الآلهة الأرضية والاجتماعية تغضب، ولأنها مشكلة ومؤلفة من قبل البشر خارج الطبيعة. من هنا تأتي في مصر العبادة المقدمة للحيوانات التي كرسوها أثناء حياتهم؛ فكل مدينة تمجد الروح لذلك الذي كان أعطاها القوانين والذي تحفظ له اسمه. ولهذا، يا اسكليبيوس، فإن ماقد عبده بعضهم لايتلقى أية عبادة من غيرهم، وهذا مايسبب غالباً الحروب بين المدن المصرية.

اسكليبيوس: ماهي صفات هذه الآلهة التي تسمى أرضية؟

هرمس: إنها تتكون في الفضيلة الإلهية التي توجد طبيعياً في الأعشاب، والحجارة، والتوابل ولهذا تحب الأضحيات المألوفة، والترانيم، والمدائح، وموسيقى ناعمة تذكر بالترنيمة السماوية، وهذه الذكرى من السماء، توافق طبيعتهم السماوية، وتجذبها وتحتفظ بها في الأصنام وتجعلها تتحمل إقامة طويلة بين البشر. هكذا صنع الإنسان الآلهة، ولاتعتقد يا اسكليبيوس، أن هذه الآلهة الأرضية تؤثر حسب الصدفة. فبينما تسكن الآلهة السماوية في أعالي السماء، وكل منها يحافظ على الصف الذي تلقاه، يكون لآلهتنا وظيفتها الخاصة؛ إنها تنبئ بالمستقبل بواسطة الأقدار والتنبؤ، ويسهر كل منها على طريقته، على الأشياء التي ترتبط بعنايتها الخاصة وتأتي لمساعدتنا كمساعدين وكأهل وأصدقاء.

ـ ١٤ ـ

اسكليبيوس: ماهو إذن أيها المثلث العظمة، دور عمل القدر؟ وإذا كانت آلهة السماء تنظم كل شيء، وإذا كانت آلهة الأرض تنظم الأشياء الخاصة، فماذا يدعى القدر؟

هرمس: يا اسكليبيوس، تلك هي الضرورة العامة، وتشابك الأحداث المترابطة فيما بينها. إنه إما السبب الخلاق، وإما الإله الأعلى، أو الإله الثاني المخلوق من قبل الله، أو العلم، بكل أشياء السماء والأرض القائم على القوانين الإلهية. إن القدر والضرورة مرتبطان فيما بينهما بصلة لايمكن أن تحل؛ فالقدر ينتج بدايات كل الأشياء، والضرورة تدفعها إلى الأثر الذي ينبع من بداياتها. ونتيجة هذا هو النظام، أي وضع كل الأحداث في الزمن، إذ لايكتمل شيء بدون نظام. وينتج من هذا كمال العالم لأن للعالم أساساً هو النظام، وأنه يتكون برمته في النظام. هذه المبادئ الثلاثة، القدر أو المصير، الضرورة والنظام، تتفرع من إرادة الله، الذي يحكم العالم بقانونه وبإدراكه الإلهي. فليس لهذه المبادئ إذن أية إرادة خاصة؛ وهي صلبة وغريبة عن كل رفق كما عن كل غضب، وليست سوى أدوات الإدراك الأزلي، الذي هو ثابت، غير متغير وغير قابل للانحلال. وهكذا فإن القدر يأتي الأول، وكأرض مبذورة يتضمن الأحداث المستقبلة؛ وتتبع الضرورة وتدفعها لاكتمالها. وفي المكان الثالث، يحافظ النظام على نسيج الأشياء التي يقيمها القدر والضرورة. فالضرورة هنا إذن دون بداية ولانهاية، مدعومة في فترة أزلية بقانونها اللامتغير. إنها ترتفع وتعاود السقوط بالتناوب، وحسب فارق الأزمنة، وإن ماتوارى يعاود الظهور. لأن ذلك هو شرط الحركة الدائرية؛ كل شيء يتشابك دون إمكانية تحديد البداية، ويبدو أن كل الأشياء تتقدم وتتّابع دون توقف. أما بالنسبة للحدث والمصير فإنهما مختلطان بكل أشياء العالم.

ـ ١٥ ـ

لقد تكلمنا عن كل الأشياء، بمقدار ما مُنح الانسان وبقدر ما سمح لنا من الله. ولايبقى لنا أكثر من تمجيد الخالق والعودة إلى اهتمامات الجسد، بعد أن أشبعنا عقلنا بمعالجة الأشياء الإلهية.

بالخروج من المعبد، يعكفون على الصلاة لله ناظرين نحو الجنوب، إذ أنه من هذا الجانب ينبغي التوجه لمغيب الشمس، وكذلك عندما تشرق ينبغي التوجه نحو الشرق. في حين انهم حين كانوا ينطقون بصلواتهم، قل يا اسكليبيوس بصوت خافت: «يا تات، لندعُ والدنا، كي يعمل على إرفاق صلواتنا بالبخور والعطور». ويسمعه المثلث العظمة ويتأثر: «كلا، كلا، يقول اسكليبيوس، إن هذا اللهو تقريباً تدنيس، أن تحرق البخور أو أية رائحة عطرة أثناء الصلاة». فلا شيء ينقص ذلك الذي هو كل شيء والذي يحتوي كل شيء. فلنحمده ولنعبده، فأسمى عطر إبداء الشكر والحمد من الفانين لله.

«نحمدك، أيها العلي الأعلى، فبنعمتك تلقينا نور معرفتك؛ اسم مقدس ومكرم، اسم وحيد به ينبغي تمجيد الله وحده حسب الديانة الأبوية! فطالما تفضلت في منحنا جميعاً الرأفة الأبوية، والديانة والحب وأحلى الخيرات، وعندما تعطينا الشعور، والإدراك والعقل: الشعور لنعرفك، والإدراك لنبحث عنك، والعقل لنحصل على السعادة بأن نفهمك. إننا وقد انقذتنا القوة الإلهية، علينا أن نفرح مما تظهره لنا جميعاً، ولنفرح بما تفضلت به، منذ إقامتنا في هذا الجسد، وكرستنا إلى الأزلية. إن الفرح الوحيد للإنسان هو معرفة عظمتك، لقد عرفناك، نوراً كبيراً جداً، أنت الذي لايتحسس بغير العقل وحده. لقد فهمناك أيها الطريق الحقيقي للحياة. أيها المصدر لخصب كل الولادات، لقد عرفناك، أيها المولِّد الكامل لكل الطبيعة! لقد عرفناك أيتها الأزلية الدائمة؛ ففي كل هذه الصلاة نعبد خير الطيبة، ولم نطلب إليك سوى أن تريد الحفاظ علينا في الحب لمعرفتك، ولكي لانبارح أبداً هذا النوع من الحياة. إننا ونحن مفعمون بهذه الرغبة سوف نتناول وجبة صافية وبدون لحوم حيوانات.

الكتاب الثالث

عذراء العالم[1]

مقاطع من الكتاب المقدس

ـ ١ ـ

.... أما وقد تحدثنا هكذا، فإن إيزيس، بداية، تصب لحورس شراب الخلود العذب الذي تتلقاه الأرواح من الآلهة، وتبدأ هكذا الخطاب المقدس جداً:

إن السماء المتوَّجة بالنجوم وُضِعَتْ وفق الطبيعة الشمولية، ياولدي حورس، ولاينقصها شيء مما يكوّن مجمل العالم. فينبغي إذن أن تكون الطبيعة برمتها مزينة ومكتملة بما هو فوقها، لأن هذا الترتيب لايمكن أن يكون من الأسفل إلى الأعلى. فسمو الأسرار الكبرى على الأصغر منها ضروري. والنظام السماوي يرجح على النظام الأرضي مثلما هو ثابتٌ قطعاً ومستعصٍ على فكرة الموت. لهذا فإن الأشياء الدنيا تتأوه وقد تملكها الخوف أمام الجمال الرائع والدوام الأزلي للعالم الأعلى. لأن هذا كان مشهداً جديراً بالتأمل والرغبة، وروائع السماء هذه، هي كشوفات من الله مازالت مجهولة، وهذا الجلال المهيب لليل، المنار بنور ثاقب، مع أنه أدنى من نور الشمس، وكل تلك الأسرار التي تتحرك في السماء في فترات موقعة، تنظم وتغذي الأشياء في هذه الدنيا بتأثيرات خفية. وطالما أن العامل الشمولي لم يضع حداً لهذا الخوف غير المنقطع، ولهذه البحوث المقلقة، فإن الجهالة تغلف الكون. لكنه حين قضى أن يتكشف للعالم، نفث في الآلهة حماس الحب،

وصب في فكرهم الروعة التي احتواها صدره، لكي يوحي إليهم بدئياً بإرادة البحث، ثم رغبة الوجود، وأخيراً قوة التقويم.

وعلى ذلك، يا ولدي الرائع، حورس، لم يكن هذا في العرق الفاني مايمكن حصوله، لأنه لم يكن قد وجد بعد، وإنما في الروح المتلاطفة مع أسرار السماء. كان ذلك هرمس، الفكرة الشمولية. إنه يعيش مجمل الأشياء، وحين رأى فَهِمَ، وحين فَهِمَ صارَتْ له قوة الظهور والكشف. ما فكّر به، كَتَبَهُ؛ وماكتبه أخفى قسماً كبيراً منه، صامتاً بحكمة، ومتكلماً في آن واحد، كي يبحث الناس الآتون على الدوام هذه الأشياء. وهكذا، بعد أن طلب من الآلهة، اخوته، أن يستخدموا له موكباً، صعد نحو النجوم. لكن كان له، تات، ابنه، خليفته ووارث علمه، وبعد قليل صار اسكليبيوس[٢]، ابن اليموتية،

(٢) تحدثت في المقدمة عن الصعوبات التي يقدمها هذا المقطع والشك الذي يقدمه مجمل النص.

نقرأ الكلمات التالية في طبعة كانتي Ἀσκληπιὸς ὁ ἰμούθης, σπανὸς καὶ ἡφαίστου ϐουλαῖς. يترجمها كانتر باسكليبيوس، آمون وايفيستوبولوس. أما باتريزي فيبّدل ἡφαίστου ϐουλαῖς بـ ἡφαιστοϐούλης ويترجمها: اسكليبوس، ايموتس، سبانوس وايفيستوبولوس. آما الآخرون فيقرؤون πανος بدلاً من σπανός، الذي هو ممكن كذلك لكن في الوقت نفسه يحتفظون بـ ἰμούθης وهكذا تصبح ἡφαιστοϐούλης لقباً لاسكليبوس الذي يمكن أن يكون ابناً لبان ولايفيستوبولي وهي ربة غير معروفة على الاطلاق لكننا نقرأ في مقطع آخر: Ἀσκληπιὸς ὁ ἡφαίστου و Ἀσκληπιὸς ὁ ἰμούθης وتدل الكلمة πάλιν على أننا نتكلم عن اسكليبيوس ذاته وليس عن خباسين. يجوز اذن أن يكون اسم والدته ايموتي كما يعتقد فابريكيوس. أليس من المحتمل أن يكون ذلك هو الشكل الاغريقي لـ (موت)؟ من جهة أخرى، يبدو أننا قرأنا اسم (ايموتيب) منحوتاً على تمثال صغير في متحَف اللوفر. حسب سينينيوس، ظهر اسكليبيوس المصري أصلعاً. يمكننا اذن الاحتفاظ بكلمه σπανός، التي تعني «أصلع». لكن حتى يستقيم معنى الجملة يجب استبدال كلمة ϐουλαῖς؟ بـ ϐουλαῖος، فتصبح ترجمتها كالتالي: اسكليبيوس، ايموتيس الاصلع ومستشار ايفيستوس.

بناء على نصائح **بان وهيفيستوس**، وكل أولئك الذين حفظت لهم العناية الإلهية معرفة دقيقة في أشياء السماء. لقد اعتذر هرمس أمام جميع من أحاط به بأنه لم يسلم النظرية بكاملها إلى ابنه بسبب فتوته. لكنني أنا، وقد ارتفعت، لاحظت بعيني، اللتين تريان أسرار الأصول[٣] غير المرئية، وتلقنت باستمرار، لكن بيقين، أن الرموز المقدسة للعناصر الكونية كانت خفية قرب أسرار أوزيريس. وعاود هرمس صعوده إلى السماء بعد أن فاهَ بدعائه وبكلماته. فلا يحسن، يا ولدي، أن تترك هذه القصة ناقصة؛ ويجب أن تتعرف على كلمات هرمس عندما أودع كتبه؛ وها هي: «أيتها الكتب المقدسة للخالدين التي خلقت من يدي الأدوية التي تجعلها غير قابلة للفساد، ابقي إلى الأبد بمنجاة من الفساد والتلف، غير مرئية، ونادرة الوجود لأولئك الذين يجتازون هذه السهول حتى اليوم الذي سوف تولد السماء القديمة أدوات جديرة بكِ، والتي سوف يدعوها الخالق الأرواح». وما أن تلفظ بهذه البهلات حول كتبه، حتى غلفها في عصيبات، وعاد إلى المنطقة التي تعود له، وبقي كل شيء مخبأ خلال زمن كافٍ.

كانت الطبيعة يا ولدي، جدباء حتى الفترة التي تلقى فيها هؤلاء الأمر في اجتياز السماء، متوجهين نحو الله ملك الأشياء كلها، وأبلغوه العطالة العامة وضرورة تنظيم الكون. هذا العمل الذي لايمكن لأحد سواه أن يتمه. وقالوا: «إننا نتضرع إليك أن تراقب ماسبق أن وجد وماهو ضروري للمستقبل». وبهذه الكلمات تبسم الله، وقال للطبيعة كوني. وبخروجها من صوته، تقدم المؤنث في كامل جماله؛ وتأملت الآلهة هذه الأعجوبة بدهشة. وأمر الجدُّ الأكبر، الطبيعة، وهو يريق شراباً عليها، أن تكون خصبة؛ ثم صرخ، وهو يخترق بنظراته كل

---

(٣) يغلف هذه الجملة غموض شديد فقد وردت اسماء الفاعل بصيغة المذكّر كما لو أن الكاتب قد نسي أن الربّة هي التي تتكلم، أعتقد أن نص هذا المقطع قد حُرِّف.

شيء: «لتكن السماء كمال كل الأشياء، والهواء والأثير». قال الله أمراً فكان. بيد أن الطبيعة، وهي تتكلم مع نفسها، عرفت أنه لاينبغي عليها أن تتجاوز على أمر الأب؛ وباتصالها بالعمل (الخلق) أنجبت ابنة جميلة جداً سمَّتْها الإبداع، ومنحها الإله كينونتها. ولتمييز الأشكال المخلوقة، ملأها بالأسرار وأعطى الابداع قيادتها.

ولأنه لم يشأ أن يكون العالم الأعلى خامداً، رأى من الحسن أن يملأه بالنفوس، كي لايبقى أي جزء في الجمود والعطالة؛ واستعمل فنه المقدس في اكمال صنعه. إذ أنه، آخذاً بذاته ماتوجَّب له من نفس ومازجاً إياها بنار عقلانية، خلط فيها مواداً أخرى بواسطة طرق مجهولة. وبمواءمته للمبادئ بمعادلات سرية، حرك هكذا الخليط الشامل. وشيئاً فشيئاً تتبسّم من صميم الخليط مادة أكثر مهارة، وأكثر صفاء وأكثر شفافية من المواد التي ولدت منها. لقد كانت شفافة، ورآها صانعها، لوحده. وحالما أدركت كمالها، ولم تكن لا سائلة بواسطة النار، ولامبردة بواسطة الريح بل مالكة الثبات خليطة خاصة، لها نموذجها وتكوينها الخاص. وقد أعطاها اسماً سعيداً، وحسب مشابهتها لطاقته، أسماها الإحياء. من هذا المصنوع شكَّل مالايحصى من الأرواح، مستعملاً زهرة الخليط للهدف الذي اقترحه لنفسه، مجرياً بنظام ومقياس حسب علمه وإدراكه. لم تكن بالضرورة مختلفة، لكن هذه الزهرة، الفواحة من الحركة الإلهية، لم تكن مشابهة لذاتها؛ فالطبقة الأولى كانت أعلى من الثانية. وأكثر كمالاً وأكثر صفاء؛ والثانية الأدنى، عن الأولى في الحقيقة، كانت أعلى بكثير من الثالثة، وهكذا حتى ستين درجة أكملت العدد الكلي. إن الله وحده أقام هذا القانون بحيث كانت جميعها أزلية، كما لو أنها من جوهر وحيد، يحدد وحدة الأشكال. لقد رسم الحدود لمستقرها في أعالي الطبيعة، كي تدير الأسطوانة حسب قوانين النظام والاتجاه الحكيم من أجل سرور أبيها.

إنه عندئذ، وقد استدعى في هذه المناطق الرائعة من الأثير الكائنات من كل الطبائع وقال لها: «أيتها الأرواح، الأطفال الجميلة من

نفحتي ومن عنايتي، أنت التي أولدتها من يدي كي أكرسك لعالمي، انتبهي لكلماتي كقوانين: لاتتركي المكان الذي حددته لك بإرادتي. إن مثواك الذي ينتظرك هو السماء مع حاشيتها من النجوم وعروشها الملأى بالفضيلة. فإذا حاولت بعض البدع ضد أوامري، فإنني أقسم بنفحتي المقدسة، وبهذا المزيج الذي كونت منه الأرواح، وبيدي المبدعتين لن أتأخر عن أن أصنع لك القيود وأن أعاقبك».

وبكلامه هذا، خلط الله سيدي العناصر المجانسة، الأرض والماء، وبتكلمه ببعض الكلمات الروحانية والقوية، مع كونها مختلفة عن الأولى، نفخ الحركة والحياة في الخليط السائل، وجعله أكثر سماكة وأكثر لدانة، وكوّن منه كائنات حية على شكل بشري. وماتبقى من الخليط، أعطاه للأرواح الأكثر رفعة التي سكنت منطقة الآلهة، في جوار النجوم، والتي تسمى الأبالسة (الشياطين) المقدسة. وقال لها «اعملوا يا أبنائي، نتاج طبيعتي؛ خذوا فضالة عملي. وليصنع كل واحد منكم كائنات على صورته، وسوف أعطيكم النماذج. وبأخذه فلك البروج أمر العالم وفقاً للحركات الإحيائية، واضعاً علامات الحيوانات بعد علامات الشكل البشري. وبعد أن جهز القوى الخلاقة والنفخة المولدة بالنسبة لشمولية الكائنات التي ستأتي، انسحب، واعداً بأن يضم إلى الأعمال المرئية نفخة غير مرئية ومبدأ ناسخاً، كي يولّد كل كائن مثيله دون أن تكون هنالك ضرورة ليخلق منها أشياء جديدة بدون توقف[٤].

(٤) يذكّر هذا السرد حول خلق الروح بكتاب (الطيماوس) لافلاطون: «بعد أن تم خلق جميع الالهة وأولئك الذين يلمحون في سباقاتهم الدائرية وأولئك الذين يظهرون عندما يحلو لهم ذلك قال لهم خالق الكون مايلي: «آلهة من آلهة، التي أنا «خالقها وأبوها والتي خلقتها برغبتي على صورة كائنات سرمدية «وبارادتي ... خذوا علماً بما أوصيكم به... حتى «بكون هناك كائنات فانية وحتى يكون الكون شاملاً حقاً، تأملوا في خلق الحيوانات وحاولوا تقليد القدرة التي استخدمتها في خلقكم...» ويقول كذلك: انه في نفس الحفرة التي خلط ←

ـ وماذا صنعت الأرواح يا أمي؟

وقالت ايزيس: أخذت الخليط من المادة، يا ولدي حورس، وبدأت تفكر وتعيد هذا الخليط، عمل الأب، ثم أخذت تبحث عما تألف منه، ولم يكن من السهل اكتشاف هذا. وعندئذ، وبخوفها من ألاّ يستثير هذا البحث غضب الأب، عكفت على تنفيذ أوامره. وأخذت الطبقة العليا من المادة، تلك التي كانت أكثر خفة، وصنعت منها جنس الطيور. أصبح الخليط أكثر اندماجاً، وأخذ تكويناً أكثر سماكة، صنعت منه ذوات الأرجل الأربعة، ومن جزء أكثر ثقلاً، والذي كان بحاجة إلى وسط رطب أكثر كي تسبح فيه، صنعت الأسماك. ولكون الفضالة باردة وثقيلة، استعملت من قبل الأرواح لتكوين الزواحف.

عندئذ يا ولدي، وهي فخورة بعملها، لم تخف من انتهاكها القانون، ورغم الدفاع، ابتعدت عن الحدود المرسومة، ولأنها لم تعد ترغب البقاء في نفس المكان، راحت تضطرب بدون توقف، وبدا لها أن الراحة هي الموت. ولكن يا ولدي، وكما قال لي هرمس، لم يتمكن سلوكها التملص من نظر الرب سيد الأشياء؛ فكر بمعاقبتها وأن يعد لها سلاسل قاسية. عندها قرر سيد ورئيس الكون أن يصنع العضوية البشرية عقاباً للأرواح؛ قال هرمس، وبعد أن قربني إليه، تكلم هكذا: «يا روح روحي، والفكر المقدس لفكري، إلى متى ستبقى طبيعة الدنيا حزينة؟ إلى متى ستبقى الخلائق التي سبق تولدها فاقدة الحركة ودون ثناءات؟ ائتوني إذن بكل آلهة السماء». ويقول هرمس، وبكلام الله ذلك، امتثل الجميع لأمره. وقال لهم: «انظروا الأرض وكل الأشياء في الأسفل».

← فيها وركّب روح الكون سيسكب رواسباً وسيخلطها بنفس الطريقة لكن بتركيبات أقل نقاوة، من النظام الثنائي والثلاثي. شكّل الكون وقسّم الأرواح بحيث يتساوى عددها مع عدد النجوم نافثاً في كل نجم روحاً وبعد أن تم صعود الأرواح كما لو أنّها في عربة، بيّن الله لها طبيعة الكون وعلّمها قوانين القدر».

وعلى الفور نظروا، وفهموا إرادة الأمير، وعندما تكلم إليهم عن خلق الإنسان، سألهم عمَّ يستطيع كل واحد منهم أن يعطي لأولئك الذين وُلدوا لتوهم أجابت الشمس: «أنا أنشر ضيائي.» ووعد القمر بأن ينير بعد الشمس. وأضاف أنه سبق أن خلق الخوف، والصمت والرقاد، وكذلك الذاكرة، التي ينبغي أن تكون غير مفيدة للبشر. وأعلن كرونوس أنه كان أب العدالة والضرورة. وقال زوس: «كي أوفر الحروب المستمرة إلى أعراق المستقبل، ولدت الثروة، والأمل والسلام». وقال آرس أنه كان فيما سبق أب الصراع والحمية المندفعة والمنافسة. ولم تنتظر أفروديت فقالت: «أما أنا، أيها السيد فقد أعطيتهم الرغبة وأضفت إليها اللذة والضحك، كي لايكون العقاب المعيَّن لأشقائنا الأرواح قاسياً جداً». واستقبلت كلمات أفروديت هذه بسرور يا ولدي. وقال هرمس: «وأنا سوف أعطي للطبيعة البشرية الحكمة، والاعتدال والاقناع والحقيقة[٥]. ولن أتوقف عن الاتصال بالاختراع. وسوف أحمي دائماً الحياة الفانية للبشر المتولدة تحت إشاراتي؛ ولأن الخالق والأب أسند إلي في البروج علامات الحكمة والعقل، وبخاصة عندما توجد الحركة التي تقود إليها الكواكب، في علاقة مع الطاقة الطبيعية لكل واحد».

لقد سر سيد العالم بسماعه هذه الأشياء، وأمر بصنع العرق البشري، وقال هرمس: «بالنسبة لي، بحثت عن المادة المتوجب استعمالها، وطلبت إلى الملك وآمر الأرواح اعطاء بقية الخليط. وبأخذي له، وجدته جافاً قطعاً. عندئذ استعملت كمية زائدة من الماء، بهدف احياء خليطة المادة، وبحيث تكون الحصيلة القابلة للحل ضعيفة

(٥) يشبه هيرين الصور السابق ذكرها بذكرى خلق الباندور في «ايزيود». ويمكن كذلك أن نجد تشابهاً بينها وبين نص في البواماندريس حيث أن حكام الكواكب السبعة أشركوا الانسان في طبيعتهم، وهي الفكرة التي يُطوِّرها ماكروب في تعليقه على «حلم سيبيون» الفصل الرابع، ص١٢ .

وعاجزة، ألّا تضاف القوة فيها إلى العقل. وأكملت عملي، وكان جميلاً، وسررت من رؤيته؛ ودعوت من الأدنى العليّ ليتأمله. فنظر إليه وقد سر. وأمر أن تتجسد الأرواح، وقد تملكها الرعب بتلقينها إدانتها».

لقد أدهشني كلامها. فاصغِ يا ولدي حورس لأني أريد تلقينك سراً. جدنا كاميفيس أخذه عن هرمس، الذي كتب قصة الأشياء كلها، وأنا تلقيته من القديم كاميفيس عندما قبلني للمسارة بالأسود(٦)، فتلقَّهُ مني بدورك أيها الابن الرائع والمتميز.

الأرواح سوف تُحبس في الأجساد؛ بعضها كان يتألم ويتأوه؛ وهكذا، عندما تُقَيَّد الحيوانات البرية والحرة، في فترة تحمل العبودية القاسية وترك عادات الصحراء الأثيرة، فإنها تصارع وتستعصي، وترفض اتباع أولئك الذين يروضوها، وإذا سنحت لها فرصة، فإنها تقتلهم. أكثرها ينفخ كالأفاعي؛ وغيرها يطلق صرخات حادة وكلمات ألم، وتنطلق صرخة للأعلى والأسفل قائلة: «سماء كبرى، مبدأ ولادتنا، أثير، هواء نقي أبدي ونفحة مقدسة من الإله الأعلى؛ وأنتِ، أيتها النجوم المتلألئة، نظرات الآلهة، ونور الشمس والقمر الذي لايتعب، أسرتنا الأولى، أي تمزق وأي ألم! أنترك هذه الأنوار الكبرى، هذا الفلك المقدس. كل روائع القطب وجمهورية الآلهة السعيدة، كي يقذف بنا في هذه المقرات الخسيسة والبائسة! أي ذنب ارتكبنا إذن، أيها التعساء! كيف استحققنا، أيها المذنبون الفقراء، العقوبات التي تنتظرنا؟ ذلك المصير الحزين الذي خصص لنا، والموفر لحاجات جسم رطب قابل للانحلال! إن عيوننا لن تميز بعد الأرواح الإلهية. بمشقة سنبصر ونحن نتأوه، جدنا الأول، السماء عبر هذه الدوائر الرطبة؛ وحتى أننا سنتوقف

---

(٦) يترجم كانتر هذه الكلمة بـ «اترامانتوم» فتصبح اذن: التعليم من خلال الكتابة»، لكن قد تعني كذلك تغطية رأس المدرّبين بحجاب أسود، يمكن أن يكون المقصود هنا هو حجاب ايزيس.

من وقت لآخر عن رؤيته. [انه النور من يصنع الرؤية، فالعيون بذاتها لاترى شيئاً كما يقول أورفيه][7]. فبإدانتنا المحزنة مُنِعَتْ عنا الرؤية المباشرة؛ لأننا لانستطيع أن نرى إلا بمساعدة النور؛ إنها نوافذ نملكها، وليست عيوناً. وسيكون هذا أيضاً عقاباً علينا لنسمع في الهواء، نفحة الرياح الودودة التي لا نستطيع أن نشاركها في نفحتنا، التي يتوجب عليها ان تقبع في سجن الصدر الضيق، بدلاً من هذا العالم الرائع. ولكن أنت يا من طردنا وأهبطنا إلى هذا الدرك الأسفل من ذلك العلوّ، ضع حداً لآلامنا، يا سيداً ويا أباً أصبح لامبالياً تجاه مصنوعاته؛ عيِّن لنا حداً، تكرَّم علينا بتوجيه بعض الكلمات الأخيرة في الفترة التي مانزال فيها قادرين على رؤية مجمل العالم المنير».

إن صلاة الأرواح هذه، قد رفعت يا ولدي حورس؛ لأن الملك كان حاضراً، وجالساً على عرش الحقيقة، وإليك ماقاله لها: «أيتها الأرواح سوف تُحكمن بالرغبة والضرورة؛ ذلك ماسيكون بعدي سيدكن ودليلكن. أيتها الأرواح الخاضعة لصولجاني الذي لايهرم، اعلمن أنكن بمقدار ماتكونن بدون تدنيس، بمقدار ما ستَسْكُنَّ مناطق السماء. وإذا كان هنالك بينكن من تستحق العقاب، فسوف تسكن المقر العين لها في الأعضاء الفانية. وإذا كانت أخطاؤكن طفيفة، محررة من الشهوات، فسوف تعودن للسماء. وإذا صرتُنَّ ملوثات ببعض الجرائم الأكثر فداحة، وانحرفتُنَّ عن القصد الذي كُوِّنتُن من أجله، فإنكن لن تسكن لا السماء، ولا الجسد البشري، وإنما سوف تنقلن منذئذ إلى حيوانات لا إدراك لها».

وبقوله هذه الأشياء، يا ولدي حورس، أعطى النفحة وتكلم هكذا: «ليس من باب المصادفة، أني نظَّمت مصيركن، وسيكون سوءاً فيما لو عملتن شراً؛ وسيكون خيراً إذا كانت أعمالكن جديرة

(٧) أضاف الناسخ هذا الاستشهاد الى النص.

بولادتكن. إنني، أنا وليس غيري من يكون شاهدكن وقاضيكن، ولتعلمن أنكن سوف تعاقبن عن أخطائكن السابقة وتحبسن في الأبدان. وسيكون البعث (عودة الولادة) مختلفاً بالنسبة لكن، كما قلت لكن، في أبدان مختلفة. فالانحلال عمل حسن، إنه سعادة الأمس. لكن إذا كان سلوككن غير جدير بي، فإن بصائركن تصبح عمياء وتقودنكن إلى الضلال وتجعلكن تعتبرن عملاً خيراً ماهو عقوبة، وتخافن من مصير أفضل كما لو أنه شتيمة قاسية. الأكثر عدالة بينكن سيتقربن من الإلهي في تقمصاتهن، وسيكونن بين الناس ملوكاً عادلين، وفلاسفة حقيقيين، ومؤسسين ومشرعين وإلهيين صادقين، وجامعي الأعشاب الصحية، وموسيقيين فطنين، ومنجمين أذكياء، وعلماء مرموقين وكُهّان مجربين وكل الوظائف الجميلة والحسنة؛ وبين الطيور سيكونن العقبان، التي لاتصطاد ولاتفترس ماهو من نوعها ولاتسمح بمهاجمة الأنواع الأكثر ضعفاً أمامها، لأن العدالة ستكون في طبيعة العقاب؛ وبين ذوات الأربع ستكونن الأسود، لأن الأسد حيوان قوي، لايضنيه النعاس. وفي جسده الفاني يستسلم إلى رياضة خالدة، ولاشيء يتعبه ويجعله يستسلم للنوم؛ وبين الزواحف، التنين لأنه حيوان قوي، يعيش طويلاً، بريء وصديق البشر؛ سيترك للتدجين، ولن يكون له سم، وبتخلصه من الشيخوخة، سيتقرب من طبيعة الالهة؛ وبين الأسماك، الدلافين، لأن هذا الحيوان، شفوق على من يقعون في البحر، ويحملهم إلى البر إذا كانوا لايزالون أحياء، ويمتنع عن أكلهم إذا كانوا موتى، مع أنه الأكثر افتراساً من كل الحيوانات المائية». وبعد أن تكلم بهذا، صار الإله عقلاً غير قابل للفساد.

بعد هذا، يا ولدي حورس، نهضت من الأرض روح قوية جداً متحررة من كل غلاف جسدي وقوية في حكمة، لكنها متوحشة ومرعبة(٨). ومع أنها لاتجهل ماطلبت، وبرؤيتها أن نموذج الجسد البشري

---

(٨) (يوجد في النص كلمات معناها معكوس فبحثت عن تصويب معناها.

كان جميلاً ومهيباً بمظهره، وبرؤيتها أن الأرواح ستدخل في أغلفتها قالت: «ماهؤلاء يا هرمس، أمين سر الآلهة؟.. وأجاب هرمس: إنهم البشر. ـ إنه لعمل قاسٍ تكوين الإنسان، بهذه العيون الثاقبة، وهذا اللسان الدقيق، وهذا السمع المؤهل لأن يسمع حتى مالايراه، وهذه الحاسة للشم الحاذقة، وحاسة اللمس في يديه التي تجعله يتلاءم مع كل الأشياء. أيها المولّد، هل ترى حسناً أن يكون حراً من القلق، هذا المستكشف مستقبلاً للأسرار الجميلة في الطبيعة؟ هل تريد أن تتركه خالياً من المعاناة، ذلك الذي سيدرك فكرةُ حدود الأرض؟ إن البشر سوف ينتزعون جذور النباتات، وسوف يدرسون خصائص العصارات الطبيعية، وسوف يراقبون طبيعة الحجارة، وسوف يشرحون ليس الحيوانات فحسب، بل ذاتهم، وسوف يودون معرفة كيف تكونت. وسوف يمدون أيديهم القاسية حتى البحر، ويقطعون أشجار الغابات، وسوف يجتازون من شاطئ لآخر كي يفتش بعضهم عن البعض الآخر. وسوف يتابعون صميم أسرار الطبيعة حتى في الأعالي وسوف يرغبون في دراسة حركات السماء. وليس في هذا مايكفي؛ فلا يبقى مزيد لمعرفته سوى المنطقة القصوى للأرض، فسوف يريدون البحث فيها عن نهاية الليل الأخيرة. فإذا لم يعرفوا الصعوبات، وإذا عاشوا خالين من الألم، وبمنجاة من كل خوف ومن كل قلق، فإن السماء ذاتها لن توقف جرائمهم وسيودون مد قدرتهم على العناصر. فعلّمهم إذن الرغبة والأمل كي يعرفوا أيضاً الخوف من الحوادث والصعوبات واللدغة المؤلمة من الانتظار المخادع. وليكن المقابل لفضول (حشرية) أرواحهم الرغبة والخوف، القلق والأمل العابث. ولتكن أرواحهم فريسة لأنواع الحب المتبادلة والآمال والرغبات المتنوعة، المشبعة تارة والمحبطة تارة أخرى كي تكون لذة النجاح طعماً يجتذبهم نحو المزيد من الآلام. ولينقلهم عبء الحمى وليحطم الرغبة فيهم».

هل تعاني، يا حورس، بإصغائك لقصة والدتك؟ إن العجب

والانشداه يمسكان بك أمام الآلام التي تتصارع حول البشرية البائسة؟ إن ماسوف تسمعه هو ايضاً أكثر بؤساً. كلمات مومو س أرضت هرمس؛ وقد وجد أن الرأي كان حكيماً فاتبعه وقال: «يا موموس إن طبيعة النفخة الإلهية التي تغلف كل شيء لن تكون خامدة. فسيد الكون كلفني بأن أكون معتمده وسادنه. وسوف يراقب الله بنظره الثاقب، ويوجه كل الأشياء؛ [أدراسته(٩)]. وسأصنع أنا أداة سرية، قاعدة صلبة لايمكن اجتيازها. سوف يخضع لها كل شيء، منذ الولادة حتى الدمار الأخير، وسوف تكون صلة الأشياء المخلوقة. هذه الآلة ستحكم كل ماعلى الأرض وكل الباقي». وقال هرمس انني هكذا، تحدثت إلى موموس، ومنذئذ عملت الآلة. وعلى الفور بعدها تجسدت الأرواح، وأثني على عملي.

ومن جديد دعا العلي جمعية الآلهة. فاجتمعوا وحدثهم هكذا: «ايتها الآلهة التي تلقت طبيعة عليا غير قابلة للتلف، وإدارة الأزلية الكبرى، أنتم يا من وظيفتكم هي الحفاظ أبدياً على تناسق الأشياء المتبادل، إلى متى نحكم امبراطورية مجهولة؟ إلى متى ستكون هذه الأشياء غير مرئية للشمس والقمر؟ ليعمل كل واحد منا من جانبه للخلق. لنمحو بقوتنا هذه الفوضى، ليصبح العماء خرافة لاتصدق بالنسبة للذرية. أبدأوا الأعمال الكبرى وسوف أوجهكم».

قال، وعلى الفور انقسمت الوحدة الكونية التي ماتزال مظلمة، وفي الأعالي ظهرت السماء مع كل أسرارها، وتثبتت الأرض التي لاتزال غير مستقرة، تحت نور الشمس وظهر مع الجميع التزيينات الفنية التي تغلفها. ولأن كل شيء كان جميلاً في نظر الله، حتى الذي يبدو

---

(٩) أضاف الناسخ، كما يبدو لي، هذه الكلمة الى النص كتعليق هامشي من شأنه أن يساعد في شرح مايأتي بعدها: (ادراستي) هو تشخيص لهذا القانون الضروري الذي سوف يتحدث عنه هرمس لاحقاً.

بشعاً للفانين، لأن كل شيء قد صنع تبعاً لقوانين الله. وفرح الله برؤيته لصنائعه في حركة، وهو يمسك بملء يديه كنوز الطبيعة: قال «تلقيها، أيتها الأرض المقدسة، تلقيها أيتها الممجدة التي سوف تكون أم الأشياء كلها، ومنذ الآن لن ينقصك شيء» قال، وفتح يديه الإلهيتين، ونشر في الحوض الشمولي كل كنوزه. بيد أنها كانت لاتزال مجهولة، لأن الأرواح، المقيدة لم تتحمل خزيها، أرادت أن تتخاصم مع الآلهة السماوية، متفاخرة بأصلها النبيل، متبجحة بأن لها نفس خالقها، وعصت، وباتخاذها البشر أدوات، قابل بعضهم بعضاً وأثارت حروباً أهلية، وهكذا كبحت القوة الضعف وأحرق الأقوياء الضعفاء وذبحوهم. وقذف بالأحياء والموتى من الأمكنة المقدسة.

عندئذ عزمت العناصر على أن تشكو أمام الله من الحالة الوحشية للبشر. ولكون الشر كان كبيراً جداً تقدمت العناصر نحو الله الخالق وأخذت تشكو بهذه العبارات[١٠]، ورخص للنار بالتحدث أولاً فقالت: «أيها السيد صانع العالم الجديد، أنت الذي اسمه الخفي بين الآلهة كان حتى الآن مقدساً من كل الناس، حَتّامَ، أيها الشيطان قررت أن تدع البشرية دون إله؟ تكشَف للعالم الذي يدعوك، صحح الحياة المتوحشة بتلقين السلام. امنح الحياة قوانين، امنح الليل عرافين، املأ كل شيء

---

(١٠) هناك مايشبه هذا النص في كتاب (اينوك): «انقلب العمالقة على البشر وابتلعوهم وشرعوا في إلحاق الضرر بالعصافير والحيوانات البرية والزواحف والاسماك وكانوا يبتلعون بالتبادل أجسادهم ويمتصون دماءهم عندئذ رفعت الأرض شكواها من هؤلاء البغاة... وبسبب هلاك البشر ارتفعت أصوات مستغيثة وصلت أعالي السماء. فلما نظر ميكائيل وجبرائيل وسوريان وأوريان من علٍ رؤوا سيلان الدماء وقد انتشر في الأرض كلّها وشعروا بالقلق الذي يتنامى وقالوا لأنفسهم: لقد تعالت أصوات صراخهم ووصل صخب الأرض حتى باب السماء وأرواح البشر ترفع شكواها أمامكم يا قديسو السموات قائلة: اعدلوا بيننا أمام الاله». (الفصل السابع ص١٤و١٥ والفصل الثامن ص٨ و٩ والفصل التاسع ص١، ٢، ٣).

بآمال سعيدة، ليخشَ الناس حكم الآلهة، ولايعصي أحد بعد، ولتتلق الجرائم عقابها العادل، وسوف نتنازل عن الظلم. وسوف يُخشى من انتهاك الأيامين، وسيكون للجنون حد. علمهم الاعتراف بالأعمال الحسنة كي أقدم شعلتي إلى القرابين والأضاحي، لتصعد إليك من المذبح دواخن معطرة. لأنني ملطخة الآن، أيها السيد، وتجبرني المجازفة الكافرة للبشر أن احرق اللحوم. إنهم لايريدون تركي في طبيعتي، إنهم يفسدون ويلطخون طهارتي».

وقال الهواء بدوره: «لقد أفسدتني روائح الجثث، أيها السيد، لقد أصبحت وبائياً وغير صحي، وأراقب من الأعلى أشياء ماكان يجب أن أراها». بعد ذلك ياولدي الشريف تناول الماء الكلام، وتحدث هكذا: «أيها الأب، الخالق العجيب لكل الأشياء، الشيطان غير المخلوق، صانع الطبيعة التي تولّد كل شيء بواسطتك، وجه أمرك لمياه الأنهار لتكون نقية دوماً؛ لأن الأنهار اليوم والبحار تغسل الموتى وتتلقى الضحايا».

وظهرت الأرض أخيراً، يا ولدي العزيز وتكلمت هكذا: «أيها الملك، رئيس الجوقات السماوية وسيد الأفلاك، معلم وسيد العناصر التي تكبر كل شيء وتصغر كل شيء، وعلى كل شيء أن يدخل فيها، إن الجمهور الكافر والمجنون من البشر يغطيني، أيها المحترم؛ لأنني بناء على أوامرك، مقر لكل الكائنات، أحملها جميعاً وأضم في أحشائي كل من قُتِل. ذلك هو عاري الآن. إن عالمك الأرضي الذي يتضمن كل شيء محروم من الله. وبما أنه ليس لديهم أي فكرة عن الخوف، فإنهم يخرقون كل القوانين ويلقون على عاتقي كل أنواع أعمالهم السيئة. ويدخل فيَ لعاري، أيها السيد كل ماينتجه نتن الأجساد. فأنا التي أتلقى كل شيء أريد أيضاً تلقي الله. فامنح هذه النعمة للأرض، وإذا لم تأت بذاتك، لأنني لا أستطيع أن أحتويك، فليأت إلي على الأقل قديس فوحانك. ولتصبح الأرض أكثر العناصر مجداً، ذلك لأنها وحدها تعطي كل شيء للجميع، لتتمكن من التشرف بأن تتلقى هباتك».

هكذا تكلمت العناصر، وقال الله وهو يملأ الكون بصوته: «اذهبوا أيها الأولاد المقدسون، الجديرون بالعظمة الأبوية، لاتحاولوا أن تجددوا شيئاً، لاترفضوا لخليقتي مهمتكم. سوف أرسل لكم فوحاناً، كائناً نقياًوسوف يراقب كل الأعمال، وسيكون القاضي الذي لايفسد والذي يخافه الأحياء؛ وستمتد العدالة السامية حتى لما تحت الأرض، وسيتلقى كل إنسان المكافأة التي يستحقها». وهكذا وضعت العناصر حداً لشكاويها وكل واحد من بينها استعاد وظائفه وسلطته.

ـ وبالتالي، قال حورس، يا أمي، كيف حصلت الأرض على هذا الفوحان من الله؟ وقالت إيزيس.

ـ لن أروي لك هذه الولادة: لايجب علي يا حورس القوى، أن أعرض أصل عرقك، خوفاً من ألّا يعرف الناس مستقبلاً تولّد الآلهة. سوف أقول فقط، إنّ الله تعالى، خالق وصانع العالم، منحه أخيراً، في زمن، والدك أوزيريس والربة الكبرى ايزيس، كي يحمل المعونات المنتظرة. بهما أدركت الحياة كما لها، وكان للحروب المتوحشة والقاتلة حدها؛ وقد كرسا معابد للآلهة أجدادهما وأنشأا أضاحي. وأعطيا القانون إلى الفانين، والغذاء والثياب. وسوف يقرؤون، يقول هرمس، كتاباتي السرية، ويجعلون منها قسمين يحفظون بعضها وسينقشون على أعمدة ومسلات تلك التي يمكن أن تكون مفيدة للبشر وسوف يجعل معلمو المحاكم الأولى، النظام والعدالة يسودان في كل مكان يرتبط بهما وفاء الاتفاقات والتمهيد في الحياة الإنسانية لديانة القسَم الكبرى. لقد تعلموا من هرمس شرائع الله السرية، وكانوا وحدهم المدرسين والمشرعين للبشرية وقد علموها الفنون والعلوم وأعمال الخير للحياة المنضبطة. متعلمين من هرمس صلات الملاطفة التي أقامها الخالق بين السماء والأرض، أنهم تعلموا التمثيلات الدينية للأسرار السماوية. ومع اعتبار الطبيعة قابلة لافساد كل الأجساد، خلقوا التلقين النبوي، كي

يكون النبي الذي سيمضي لرفع يديه نحو الآلهة قد تعلم عن كل الأشياء وكي تستخدم الفلسفة ويستخدم السحر لتغذية الروح، وإن يكون في الطب شفاء لآلام الجسد.

أما وقد أكملت هذه الأشياء، ياولدي، ووصل العالم إلى إكتماله، فإن أوزيريس وأنا قد ذكَّرنا سكان السماء. لكننا لم نستطع العودة إليها دون دعوة المليك، كي تملأ هذه الرؤية الفضاء ويفتح الطريق السعيد لنا للصعود، لأن الله يحب الترانيم. - وقال حورس، علميني يا والدتي هذه الترنيمة.. كي أتعلمها أنا أيضاً.. وقالت ايزيس إصغِ إليّ يا ولدي... -

- ٢ -

... أيها الابن الشريف، إذا أردت معرفة شيء آخر فاسألني. وقال حورس: يا أمي المحترمة أريد أن أعرف كيف تتولّد الأرواح الملكية، وقالت ايزيس: إليك هي يا ولدي حورس، الصفة المميزة للأرواح الملكية. يوجد في الكون أربعة مناطق يحكمها قانون ثابت ومحدد: السماء، الأثير، الهواء، الأرض المقدسة جداً. في السماء العليا تسكن الآلهة، محكومة كالبقية كلها، من قبل خالق الكون. في الأثير تكون النجوم التي يحكمها المشعل الكبير، الشمس؛ في الهواء، أرواح الشياطين التي يحكمها القمر؛ وعلى الأرض فإن البشر والحيوانات الأخرى التي يحكمها ذلك الذي هو ملك زمانه. إذ أن الآلهة ذاتها تلد الملوك التي تناسب العرق الأرضي. الأمراء هم فوحانات الملك، الملك الذي يتقرب منهم أكثر هو ملك أكثر من الآخرين والشمس الأقرب إلى الله من القمر هي أعظم منه وأقوى وهو أدنى منها في المرتبة كما في المقدرة. الملك هو الأخير من الآلهة والأول من الرجال. فطالما هو

على الأرض، لايتمتع بألوهة حقيقية، لكن له شيئاً مايميزه عن الناس ويقربه من الله. والروح التي أرسلت فيه تأتي من منطقة أعلى من المنطقة التي تذهب منها أرواح الرجال الآخرين. والأرواح المعينة لتحكم تنزل إلى الأرض لسببين. فبالنسبة لتلك التي عاشت دون لوم والتي استحقت التأليه، فإن الملكية هي إعداد للألوهة. وبالنسبة للأرواح المؤلهة التي ارتكبت مخالفة صغيرة للقانون الداخلي والمقدس، فإن الملكية تخفف العقاب وخجل التجسيد؛ وشرطها باتخاذ جسد، لايشبه شروط غيرها، إنها سعيدة كما لو كانت قد تحررت.

أما فيما يخص تنوعات وصفة الملوك، فإنها لاتعود لأرواحهم، لأنها كلها إلهية، وإنما لطبيعة الملائكة والشياطين التي تساعدها؛ لأن الأرواح المعينة، لمثل هذه الوظائف لاتنزل دون مواكب ودون حراسة. فالعدالة السماوية تعرف معاملتها كما يناسب، وكل ذلك بإبعادها عن مقر الغبطة. عندئذ، يا ولدي حورس، ولتكون الملائكة والشياطين الرائدة محاربة، وتأخذ الروح خاصيتها وتنسى صفتها الخاصة، أو بالأحرى تدعها جانباً إلى تغير جديد للشرط. وإذا كان مُرشدي الروح مسالمين، فإنها بذاتها تتبع مسيرتها بسلام؛ وإذا كانوا محبي الأحكام، فإنها تحب أن تحكم؛ وإذا كانوا موسيقيين فإنها تغني؛ وإذا أحبوا الحقيقة، فإنها فيلسوفة، إنها لضرورة بالنسبة للأرواح أن تتبع مذاقات قادتها؛ وبسقوطها في البشرية، تنسى طبيعتها الخاصة، وفي نفس الوقت الذي تبتعد عنها تقترب من تلك التي سجنت في جسد.

قال حورس: إن شرحك يا والدتي، كامل، لكنك لم تعلميني كيف تتولد الأرواح النبيلة؟

ـ يا ولدي، يوجد على الأرض حكومات مختلفة: كذلك الأمر بين الأرواح؛ إنها تشغل أمكنة مختلفة، وتلك التي تخرج من مكان أكثر مجداً هي أكثر نبلاً من غيرها. كذلك بين البشر، فالذي هو حر

أكثر نبلاً من العبد. والأرواح العالية والملكية تسود بالضرورة على غيرها.

ـ كيف تولد الأرواح ذكوراً وإناث؟

ـ الأرواح، ياولدي حورس، متجانسة فيما بينها، كما لو أنها آتية من نفس المنطقة حيث كوّنها خالقها؛ فلا يوجد بينها لاذكور ولا إناث، فهذا التمييز لايوجد إلا بين الأجساد وليس بين غير المجسدات. إذا كان بعضها أكثر حيوية، فالأخرى أكثر رخاوة، ويعود هذا للهواء، حيث تشكل كل شيء؛ وهذا الهواء هو الجسد الذي يغلف الروح؛ إنه خليط مكون من تراب، وماء ونار، في الإناث يحتوي الخليط أكثر من البرودة، والرطوبة عما هو من الجاف والحار؛ فالروح التي حبست فيه رطبة ومعدة للرخاوة. والعكس يحصل في الذكور؛ فيوجد فيها أكثر من الجاف والحار وأقل من البرد والرطوبة؛ أيضاً في الأجساد كذلك تكونت الأرواح فهي أكثر حيوية وأكثر نشاطاً.

ـ كيف تولد الأرواح الحكيمة يا أمي؟ وأجابت ايزيس: عضو النظر مغلف بأغلفة وعندما تكون هذه الأغلفة سميكة وكثيفة يكون النظر كليلاً؛ وإذا كانت رقيقة وناعمة يكون البصر ثاقباً. كذلك الأمر بالنسبة للروح؛ إن لها أغطيتها، التي هي لامادية مثلها. هذه الأغلفة هي من الهواء الذي فينا؛ فعندما يكون ناعماً، واضحاً وشفّافاً عندئذ تكون الروح عادة حاذقة؛ وعندما يكون على العكس كثيفاً وسميكاً عندئذ لاترى بعيداً ولاتميز، كما في الأزمنة الرديئة، إلا ماهو أمام الأرجل.

قال حورس: ماهو السبب يا أمي في أن للبشر الذين هم خارج أرضنا المقدسة جداً، ذهنية أقل انفتاحاً عن تلك التي في بلادنا؟ وأجابت إيزيس: الأرض هي وسط الكون كرجل نائم على الظهر وينظر للسماء؛ وتستجيب مختلف أجزائها للأعضاء البشرية، إنها تدير نظرتها نحو السماء كما نحو أبيها كي تتبع في تغيراتها تغيرات السماء. ولها

رأسها الموضوع إلى جانب الظهر، والكتف الأيمن نحو ريح الشرق والكتف الأيسر نحو الريح الليبية. والأرجل تحت الدب الأكبر، والساق اليمنى تحت الذنب، والساق اليسرى تحت رأس الدب، والجنبان تحت مناطق السماء المجاورة للدب ووسط الجسم تحت وسط السماء، والدليل هو أن للجنوبيين الذين يسكنون من جانب الرأس رأس جميل وشعور جميلة؛ وللشرقيين أيدي قاسية للصراع وهم رماة سهام ممتازون يمسكونها باليد اليمنى؛ والغربيون ثابتون ويقاتلون باليد اليسرى، والوظائف التي يسندها غيرهم للجانب الأيمن تعود عندهم للجانب الأيسر؛ والذين هم تحت الدب يتميزون بأرجلهم وبجمال أفخاذهم. والذين يسكنون بعيداً أكثر عن الدب؛ في إقليم ايطاليا واليونان، يتميزون بجمال أفخاذهم وأصلابهم، ومن هنا يأتي ميل تفضيل الذكر. وهذا الجزء من الجسم بكونه أكثر بياضاً ينتج أيضاً الناس الأكثر بياضاً. المنطقة المقدسة لأجدادنا هي وسط الأرض، ووسط الجسد البشري هو قفص القلب، وتقيم الروح فيه، ولهذا السبب يا ولدي، إن للبشر من هذه البلاد، مع الصفات نفسها التي للبشر الآخرين، عقلاً وحكمة أعلى بكثير، لأن قلب الأرض يولدها ويغذيها.

إضافة إلى هذا ياولدي، فإن الجنوب هو مستودع الغيوم، ففيه تتجمع هناك، ويقال إن نهرنا ينبع، من هنالك عندما تصبح جمادات الصقيع أكثر غزارة. وعلى ذلك، فإن هنالك حيث تسقط الغيوم، يظلم الهواء ويمتلئ بنوع من الدخان يمتد كغطاء ليس على البصر فحسب، وإنما على العقل. إن الشرق، يا ولدي حورس، قد اضطرب بدون توقف، وتدفأ بشروق الشمس، مثل الغرب بغيابها؛ فالناس من هذه المناطق لايمكن أن يكون لهم إدراك واضح جداً. فالشمال بمناخه البارد يسمّك العقل في نفس الوقت الذي يسمك الجسم. والمنطقة الوسطى، الوضاءة والهادئة، متميزة كأؤلئك الذين يسكنونها؛ وهي تولد في هدوء مستمر، وتزين وتنمي حاصلاتها، وتصارع لوحدها ضد الجميع، وتنتصر، شأنها شأن مرزبان، يوزع ثمار نصره للمغلوبين.

ـ اشرحي لي، يا أمي العظيمة، لأي سبب، في الأمراض الطويلة، التي يستمر الناس معها أحياء، يوجد فساد في التمييز وفي الإدراك وفي الروح نفسها وأجابت ايزيس: بعض الحيوانات، له علاقة مع النار. ولبعضها الآخر علاقة مع الماء، وثمة منها له علاقة مع العناصر الأربعة كلها. وبالمقابل فإن بعضها يتنافر مع النار والآخر مع المياه والآخر مع الأرض والآخر مع الهواء، وبعضها مع عنصرين أو ثلاثة أو أربعة، وهكذا فإن الجرادة وكل أنواع الذباب تهرب من النار؛ والنسر والحدأة وكل الطيور ذات الطيران المرتفع تخاف الماء، والأسماك تخاف الهواء والأرض، والحية تخاف الهواء النقي، مثل كل الحيوانات الزاحفة وتحب الأرض؛ وكل الأسماك تسر في المياه، والطيور في الهواء وتمضي حياتها فيه، والتي تطير للأعلى تحب النار وتعيش في جوارها. كذلك توجد بعض الحيوانات التي تسر في النار، مثلاً السلمند ـ التي تسكن فيها. كل واحد من العناصر هو غطاء الأجساد، وكل روح في جسد مثقلة ومقيدة بالعناصر الأربعة؛ ومن الطبيعي أن يكون لها تذوق بالنسبة للبعض، وتقزز بالنسبة للبعض الآخر؛ وإنها لهذا لاتتمتع بسعادة كاملة. مع ذلك وكما أنها من طبيعة إلهية حتى تحت هذا الغطاء تصارع وتفكر؛ لكن ليست الأفكار هي التي تكون لها فيما لو استخلصت من الجسد. وإذا كان هذا الجسد قد اضطرب وتعكر بالمرض أو الخوف، فإن الروح نفسها مهزوزة كرجل وسط الأمواج...

ـ ٣ ـ

....

ـ لقد أعطيتني، يا أمي القوية جداً ايزيس، ايضاحات رائعة حول خلق الله للأرواح، وإنني مفعم بالاعجاب؛ ولكنك لم تلقنيني أين

تذهب الأرواح المتحررة من الأبدان؛ أريد التأمل بهذا السر ولم أجد غيرك لأشكره على هذا التلقين. وقالت إيزيس: اصغ يا ولدي، لأن هذا البحث ضروري جداً يأخذ مكاناً هاماً ولايمكن إهماله وإليك جوابي:

أيها الفرع الرائع من العظيم أوزيريس، لاينبغي أن تعتقد أن الأرواح، بخروجها من الأبدان تنتشر بصورة فوضوية في أمواج الهواء وتتشتت مجمل نفحة لامتناهية، دون القدرة على العودة إلى الأبدان مع بقائها نفسها، ولا أن تؤوب لمقامها الأول. فالماء المنضوح من كأس لايمكن أن يعثر على المكان الذي كان يشغله، وليس له مكان خاص، إنه يختلط بكتلة الماء؛ بيد أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأرواح؛ يا حورس الراجح العقل. لقد تلقنت بأسرار الطبيعة الخالدة ومشيت في روض الحقيقة وسوف أكشف لك كل شيء بدون أن أستبعد شيئاً سأقول لك بدئياً، إن الماء هو بدون إدراك، مؤلف من مجموعة جزئيات مائعة، في حين أن الروح يا ولدي هي شيء شخصي، وعمل ملكي من يدي وعقل الله، سائرة بذاتها في العقل. إن مايأتي من الوحدة وليس من الخلاف لايمكن أن يختلط بشيء آخر، ولكي تكون الروح مرتبطة بالبدن، ينبغي أن يخضع الله هذا الاتحاد المتناسق للضرورة..

فالأرواح لاترجع إذن بصورة مختلطة وبالمصادفة إلى مكان واحد هو نفسه، لكن كل واحدة منها ترسل إلى المكان الذي يخصها. ويستخلص هذا نفسه مما تكابده عندما تظل في غلاف البدن مثقلة بوزن مناقض لطبيعتها. فاصغ لهذه المقارنة يا عزيزي حورس: لنفترض أننا حبسنا رجالاً في سجن واحد، وعقباناً وحمائم، وتمائم، وحدأات، وسنونوات، وعصافير، وذباباً، وأفاعي، وأسوداً وفهوداً وذئاباً وكلاباً وأرانب وثيراناً وخرافاً، وبعض الحيوانات البرمائية أيضاً، مثل الفقمات، وأفراس البحر والسلاحف وتماسيح؛ ثم، نترك الجميع بحرية في نفس اللحظة. الجميع سيندفع في آن واحد: الرجال سيذهبون إلى البيوت

والساحات العامة، والعقاب ينطلق في الأثير، حيث تحمله طبيعته لأن يعيش، والحمائم في الجو المجاور، والحدأات في الهواء الأعلى، والسنونوات في الأماكن المسكونة من قبل الناس، والعصافير نحو الأشجار المثمرة والتمائم في الأمكنة التي تستطيع فيها الغناء، والذباب على مقربة من الأرض، وإلى حيث تمتد رائحة الإنسان، لأن خاصية الذباب أن تعيش من الإنسان وتطير قرب الأرض؛ والأسود والفهود نحو الجبال. والذئاب في البراري؛ والكلاب ستتبع أثر قدم البشر، والأرانب ستمضي إلى الغابة، والثيران ستمضي في البراري والحقول، والخراف في المراعي، والأفاعي في مغاور الأرض، والفقمات والسلاحف ستنضم لمثيلاتها في اللجج والتيارات، كي تتمتع في آن، وفق طبيعتها، قرب الأرض وقرب الماء. فكل حيوان سيعود مقاداً ببصيرته الداخلية، إلى محل الإقامة الذي يناسبه. وهكذا فإن كل روح، مهما كانت أنسنتها أو كانت تسكن الأرض في شروط أخرى، تعلم أين ينبغي أن تذهب؛ على الأقل ألّا يأتي بعض أبناء ثيفوتَ ليقول أن ثوراً يمكن أن يعيش في المياه أو أن سلحفاة تعيش في الهواء. فهي اذن لاتتنحى حتى ولو طمست في اللحم والدم، لاتتنحى عن القاعدة، وحتى لو عوقبت، لأن الاتحاد مع الجسد قصاص، وكم ستتوافق أكثر، عندما تتحرر من قيودها وتترك حرة كما تشاء.

وعلى ذلك، انظر كم أن هذه القاعدة مقدسة جداً، وتمتد حتى للسماء يا ولدي المتميز: تأمل تراتبية الأرواح؛ وإن الفراغ بين قمة السماء والقمر مشغول بالآلهة، والكواكب وبقية العناية. فبيننا وبين القمر يا ولدي، مقر الأرواح. فالهواء اللامحدود الذي نسميه الريح، له في ذاته طريق ذو عظمة حقيقية يتحرك فيها ليرطب الأرض كما سوف أقول لك بعدئذ. بيد أن حركة الهواء حول ذاتها، لاتزعج الأرواح في شيء ولاتعيقها من الصعود والهبوط دون عقبة؛ إنها تسيل عبر الهواء دون أن تختلط ودون أن تمتزج معه، كالماء عبر الزيت. وهذا الفضاء يا

ولدي مقسم إلى أربعةاقسام وإلى ستين قسماً فرعية. فالجزء الأول، انطلاقاً من الأرض يتضمن أربع مناطق ويمتد إلى بعض القمم أو الرعن(*) فوقها تمنعه طبيعته من الارتفاع. ويتضمن القسم الثاني ثماني مناطق تحصل فيها تحركات الرياح. ـ وتنبه يا ولدي، كي تسمع الأسرار الفائقة الوصف للأرض، وللسماء وكل المائع المقدس للوسط ـ ففي منطقة الرياح تطير الطيور، وفي الأعلى لايوجد ريح متحرك ولايوجد أي حيوان، مع ذلك فإن لهذا الهواء امتيازاً من امتداده مع كل حيواناته في المناطق التي هي خاصة به وفي المناطق الأربع من الأرض، طالما أن الأرض لايمكن ان ترتفع في مناطق الهواء. ويتضمن القسم الثالث ست مناطق ملأى بهواء لطيف ونقي؛ والرابع ويتضمن اثنين وثلاثين، فيها الهواء لطيف تماماً وشفاف، ويترك فوقه لتمييز الطبيعة النارية. ذلك هو النظام المقام بخط مستقيم من الأعلى إلى الأدنى دون اختلاط؛ أربعة أقسام عامة، واثنتا عشرة فسحة، وستون منطقة، وفي هذه الستين منطقة تسكن الأرواح، كل واحدة حسب طبيعتها. إنها مكونة كذلك، لكنْ يوجد بينها تراتبية وبمقدار ماتبتعد منطقة أكثر عن الأرض، بمقدار ماترتفع الأرواح التي تسكنها بكرامة.

ويبقى علي أن أشرح لك يا حورس المكرم جداً. ماهي الأرواح التي تنتشر في كل واحدة من هذه المناطق، وهذا ما سأفعله مبتدئة بالأكثر رفعة منها.

عن التقمص(١١)

إن الفضاء الذي يمتد بين الأرض والسماء مقسم إلى مناطق، يا ولدي حورس. وحسب المقياس والتناسق. وقد تلقت هذه المناطق أسماء مختلفة من أجدادنا، بعضهم يسميها مناطق، وبعضهم أفلاك،

(*) الرعن: أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر.

(١١) ذُكر هذا العنوان في مخطوط «ستوبي» لكن لايوجد ثغرة في النص.

والبعض الآخر أغطية. وإنه هنالك تسكن الأرواح المتحررة من الأبدان والأرواح التي لم تتجسد بعد. والأمكنة التي تشغلها تكافئ كرامتها؛ ففي المنطقة العليا الأرواح الإلهية والملكية، أما الأرواح الدنيا، فتلك هي التي تطير قرب الأرض وهي الأدنى تماماً، والأرواح الوسطى في المناطق الوسطى. وهكذا يا ولدي، فإن الأرواح المعينة للقيادة تذهب من مناطق عليا، وعندما تتحرر فإنها تعود إلى هنالك، أو حتى لما هو أكثر علواً أيضاً، على الأقل إذا لم تكن قد عملت خلافاً لكرامة طبيعتها وخلافاً للقوانين الإلهية؛ وفي هذه الحالة، فإن العناية الإلهية العليا تجعلها تسقط في المناطق الدنيا حسب معيار أخطائها، كذلك فإنها تقود أرواحاً أخرى، أضعف في قوتها وفي كرامتها، من مناطق دنيا نحو مقر أكثر رفعة، لأنه هنالك في الأعلى يوجد وزيران للعناية الإلهية الشاملة، أحدهما حارس الأرواح، والآخر قائدها، ذلك الذي يرسلها ويضعها في الأبدان، الأول يحفظها والآخر يطلقها حسب أوامر الله.

وهكذا فإن قانون العدالة يُدير التغييرات التي تكتمل هنالك في الأعالي، كذلك على الأرض يُقَوْلِب وينشئ الآنية التي تحبس فيها الأرواح. ويساعده في ذلك طاقات الذاكرة والتجربة. فالذاكرة تسهر على ماتحفظه الطبيعة ويسند كل واحد من النماذج الأصولية كما أقيمت هنالك في الأعلى؛ ووظيفة التجربة أن تقدم لكل واحدة من الأرواح التي تنزل للبدن ما يتناسب معها؛ فتعطى للأرواح اليقظة أبدان يقظة، والأرواح البطيئة، أبدان بطيئة، والأرواح النشيطة أبدان نشطة، والأرواح الرخوة أبدان رخوة، والأرواح القوية أبدان قوية، والأرواح المخادعة أبدان مخادعة، وأخيراً أن يكون لكل روح البدن المناسب لها؛ لأنه ليس بدون هدف أن تكون الحيوانات المجنحة مغطاة بالريش، وأن تكون الحيوانات المدركة ممنوحة حواساً عالية وأكثر رهافة، وأن تكون ذوات الأربع متصلة بقرون، وأنياب ومخالب أو أسلحة أخرى، وأن

تكون الزواحف قد تلقت أبداناً متموجة ولدنة، وخوفاً من ألّا تجعلها رطوبة أبدانها ضعيفة جداً، سلحت إما بأنياب وإما بصدف حادة؛ لكي تقاوم بصورة أفضل من غيرها الخوف من الموت. أما لجهة الأسماك التي هي فزعة، فقد تلقت لمقرها عنصراً يكون فيه النور محروماً من فاعليته المزدوجة، إذ لايمكن للنار أن تنير في الماء ولا أن تشتعل. فكل واحدة منها تسبح بمعونة أصداف أو حسك، تهرب حيث تريد، وضعفها محمي بكثافة الماء. وهكذا فإن الأرواح السجينة في البدان مشابهة لها: فالأرواح في الناس موهوبة فن الحكم العقلية وفي ذوات الأجنحة تكون الأرواح متوحشة، وفي ذوات الأربع تكون الأرواح بدون محاكمة عقلية ويكون قانونها الوحيد هو القوة، وفي الزواحف تكون الأرواح مخادعة، لأنها لاتهاجم الإنسان مواجهة، وإنما تترصد له؛ وتتلقى الأسماك أرواحاً فزعة وكل مالايستحق التمتع بعناصر أخرى.

وقد يحصل في كل صنف من الحيوانات أن تنتهك قوانين طبيعتها ـ فكيف يكون هذا؟ تساءل حورس؟ وأجابت إيزيس: على سبيل المثال: رجل يعمل ضد المنطق، وذو أربع يتهرب من الضرورة، وزاحف ينسى حيلته وسمكة تفقد فزعها، وطائر يتنازل عن طبيعته المتوحشة، ذلك مايمكن قوله حول تسلسلية الأرواح، وحول سقوطها، وحول خلق الأبدان.

يا ولدي، يوجد في كل واحدة من الصفوف بعض الأرواح الملكية؛ فهي تنزل فيها طباع مختلفة، بعضها ناري والآخر بارد، وبعضها متكبر والآخر ناعم، بعضها ذكي والآخر طائش، بعضها كسول والآخر نشيط. وهذا التنوع يعود للأمكنة التي ينطلق منها كي ينزل ويتجسد. ففي المنطقة الملكية تذهب الأرواح الملكية، وتوجد ملكيات عديدة؛ ملكيات الأرواح، الأبدان، الغنى، العلم، الفضائل. وقال حورس:

ـ كيف تسمين هؤلاء الملوك(١٢)؟ وقالت إيزيس:

ـ يا ولدي، إن ملك الأرواح التي وجدت حتى الآن هو والدك أوزيريس؛ وملك الأبدان هو أمير كل أمة، ذلك الذي يحكمها. وملك الحكمة هو أبو كل الأشياء؛ والملقن هو المثلث العظمة هرمس، ويرأس الطب اسكليبيوس ابن هيفيستوس؛ والقوة والقدرة هما تحت سلطة أوزيريس، وبعده تحت سلطتك يا ولدي. والفلسفة ترتبط بأريباسكليس، والشعر أيضاً باسكليبيوس، ابن ايموتيه وبصورة عامة، إذا فكرت، سوف تعرف أنه يوجد كثير من الإمبراطوريات وكثير من الملوك.

لكن الرئيس الأعلى ينتمي إلى المنطقة العليا؛ فالملكيات الجزائية ترتد للأمكنة التي خرجت منها. فتلك التي تأتي من منطقة النار تعمل النار، وتلك التي تأتي من منطقة رطبة تعيش في الأمكنة الرطبة. ومن الفلك الغني والعالِم تتولد تلك التي تهتم بالغنى والعلم؛ ومن الفلك الخامد تلك التي تعيش في العطالة. فكل ماصنع وكل ماقيل على الأرض له مصدره في الأعالي ومن هنا وزعت علينا الجواهر بمعيار وتوازن ولايوجد شيء لايأتي من الأعلى ولايعود إليه.

ـ اشرحي لي ماقلته يا أماه. وأجابت ايزيس: وضعت الطبيعة المقدسة جداً في الحيوانات علامة واضحة من هذه العلاقات. فالنسمة التي نتنشقها من الهواء الأعلى، ننفسها كي نتنشقها أيضاً، ويوجد فينا رئتان لانجاز هذا العمل؛ وعندما تغلق الفتحات المعينة لتلقي النسمة، لن نبقى على هذه الأرض، بل نمضي. ويوجد أيضاً، يا ولدي المكرم، طوارئ أخرى تدمر توازن تركيبنا.

---

(١٢) يبدو أن النص قد حُرّف في هذا الموضع فاتبعت هنا تصويب هيرين الذي يبّدل كلمة καὶ ἑαυτῶν بـ καλεῖς τούτους.

ـ ماهو إذن هذا التركيب، ياوالدتي؟

ـ إنه اجتماع وخلط العناصر الأربعة؛ فيتصاعد منها بخار يغلف الروح، وينتشر في الجسد ويوصل صفته الخاصة بعضها بالبعض الآخر، وهكذا تحصل الفوارق في الأبدان والأرواح. فإذا سادت النار في تركيب الجسد، فإن الروح، التي سبق أن كانت حارة بصورة طبيعية، تتلقى زيادة في الحرارة تجعل الحيوان أكثر فاعلية وأكثر فوعة، وتجعل الجسد أكثر نشاطاً وأكثر فاعلية. وإذا كان الهواء هو الذي يطغى فإن روح وبدن الحيوان هما بذلك نفسه متحركان وقلقان. فالإفراط في الماء يجعل الروح حلوة، لطيفة، سهلة، اجتماعية ومعدة للمرونة، لأن الماء يختلط ويتحد بكل الأشياء الأخرى، يذيبها إذا كان غزيراً ويلينها وينتشر عليها إذا كان بكمية قليلة. إن جسداً متليناً بكثير من الرطوبة يكون قليل المقاومة، ويذيبه مرض خفيف ويحل روابطه شيئاً فشيئاً. وإذا كان عنصر الأرض سائداً فإن روح الحيوان تكون منفرجة لأن البدن تنقصه اللدانة؛ ولايمكن أن تتوضح عبر سماكة الأعضاء، وتبقى في ذاتها، معاقة بالوزن الذي تحمله؛ ويكون الجسد صلباً، ولكن خامداً وثقيلاً، ولايمكن أن يتحرك إلا بجهد.

لكن إذا كانت العناصر في توازن صحيح، فإن الحيوان يكون معداً للعمل، خفيفاً بالنسبة للحركة، وذي تواصل سهل وتكوين قوى. ومن تَفَوُّق الهواء تتولد الطيور، التي تتقرب من العناصر التي خرجت منها. وإن نسبة كبيرة من النار موصولة بقليل من الهواء وبكمية متساوية من الماء والتراب تنتج البشر، ولفرط الحرارة تصبح من البصيرة، لأن عقلنا نوع من النار، التي لاتحرق وإنما تَكْتَشِف وتُدْرِك. بمزيد من الماء والتراب مع كمية كافية من الهواء وقليل من النار تتكون ذوات الأربع؛ وإن من له منها نار أكثر يكون أكثر شجاعة من غيره. إن نسبة متساوية من ماء وتراب تنتج الزواحف، التي تنقصها الجرأة والاستقامة

لأنها محرومة من النار؛ فزيادة الماء تجعلها باردة، وزيادة التراب تجعلها ثقيلة وبطيئة، وفقدان الهواء يجعل حركتها صعبة. ومن مزيد من الرطوبة مع قليل من الجفاف تتولد الأسماك؛ فقدانها للنار والهواء يجعلها فزعة ويدفعها لتخبئ نفسها، وفرط الماء والتراب يقربها بقرابة طبيعية من الأرض المنحلة في الماء.

إن الزيادة المتناسبة للعناصر التي تؤلف الأجساد توصل هذه إلى نموها وتوقف النمو عندما يدرك المقياس. وإضافة لذلك، يا ولدي الحبيب، طالما يوجد التوازن في الخلط البدئي وفي البخار الذي يتشكل فيه، أي طالما أن النسبة العادية، من النار، الهواء، التراب والماء لم تُتَجاوز، يبقى الحيوان في حالته الصحية. لكن إذا لم تبق العناصر في المعيار المثبت من الأصل (لا أتكلم هنا عن نمو نشاط ولانمو ناتج عن تغيير الصف، وإنما عن اختلال التوازن من الإفراط أو الإنقاص للنار أو العناصر الأخرى)، عندئذ يمرض الحيوان؛ وإذا كان الهواء والنار، اللذان هما من نفس طبيعة الروح، يسودان، فإن الحيوان يخرج عن حالته العادية بفيض العناصر المدمرة للجسد. لأن العنصر الأرضي هو عجينة الجسد، والرطوبة التي تنتشر فيه تساهم في جعله متماسكاً؛ فإن العنصرالهوائي هو الذي يعطينا الحركة، وإن النشاط العام يعود إلى النار. فهذا البخار الحاصل باتحاد وخلط العناصر يختلط بالروح بنوع من الاندماج، ويجرها معه، يطبع خاصيته الخاصة، حسنة أم سيئة. إن الروح تحافظ على صنعها ببقائها في هذه الشراكة الطبيعية؛ لكن حصول أي تغيير في مجمل التركيبة، سواء في أحد أقسامها أو تفرعاتها، يفسد البخار، وتفسد معه بذلك علاقات الروح بالجسد. أمّا والنار والهواء، اللذان يميلان نحو الأعلى، فيجرّان الروح، المجانسة لهما، والجزء المائي والأرضي، الذي يميل نحو الأسفل مثل الجسد، يثقل على ذاته.

الكتاب الرابع

مقاطع
من كتب هرمس
إلـــى ابنـه تـات

ـ ١ ـ

إنني بسبب حبي للبشر وبورع تجاه الله، يا ولدي، أبدأ كتابة هذا. إذْ لايوجد ورع حقيقي آخر سوى التفكير حول الكون وتقديم الحمد للخالق؛ وهذا مالن أتوقف عن ممارسته.

ـ يا والدي، إذا لم يكن هنا شيء حقيقي على الأرض، فكيف يمكن إذن أن يستعمل المرء حياته بحكمة؟

ـ كن تقياً يا بني؛ فالورع هو الفلسفة العليا؛ وبدون فلسفة لايوجد ورع رفيع. فالذي يتعلم عن الكون، وتوجُّهُهِ، ومبدئه وغايته، يرد أفضال كل الأشياء إلى الخالق كما إلى أب طيب، وإلى معيل طيب، وإلى وحي أمين. ذلك هو الورع؛ وبوساطته تعرف أين هي الحقيقة وماهي هذه الحقيقة. والعلم يزيد في الورع. فما أن تنضوي الروح في الجسد وترتفع إلى إدراك الخير الصحيح والحقيقة، حتى تكف عن السقوط. إن قوة الحب، ونسيان كل الأشياء السيئة، يمنعان الروح التي تعرف خالقها أن تنفصل عن الخير. ذلك هو هدف الورع، يا بني؛ فإذا أدركته، فإن حياتك ستكون طاهرة، وموتك سعيداً، وتعرف روحك أين ينبغي أن تطير. ذلك هو الطريق الوحيد الذي يوصل إلى الحقيقة، وهو الطريق الذي اتبعه أسلافنا، وقد وصلوا به إلى امتلاك الخير. هذه الطريق جميلة وموصلة؛ ومع ذلك من الصعب على الروح أن تسير عليها طالما هي سجينة في سجن البدن؛ فينبغي عليها بدءاً أن

تكافح ضد ذاتها وتجري قسمة كبرى وتخضع إلى جزء واحد من ذاتها. لأن الواحد هو في صراع ضد الاثنين؛ فهذا يهرب، وهذان يجرانه إلى الأسفل[١]. ومن جانب أو آخر لايكون النصر هو ذاته: أحدهما يميل نحو الخير، والاثنان نحو الشر؛ الواحد يريد التحرر، والاثنان يحبان العبودية. وإذا غُلب الاثنان يبقى لهما متراس[٢] بالنسبة لهما ولسيدهما، لكن إذا كان الواحد هو الأكثر ضعفاً، فإنه يجر بواسطة الاثنين ويعاقب في الحياة الدنيا. هذا هو، يا ولدي ما يجب أن يكون دليلك. يجب أن تتدهن بالزيت من أجل الصراع، وأن تدعم معركة الحياة وتخرج منها ظافراً.

والآن يا بني، أريد أن أستعرض المبادئ: سوف تفهم كلماتي بتذكيرك فيما كنت قد تعلمت.

كل الأشياء تتحرك؛ واللاكائن وحده ثابت. كل الأجسام تتحول، بعضها فقط يتحلل. ليست كل الحيوانات فانية؛ وليست كلها خالدة. القابل للانحلال قابل للفساد، والثابت غير متحول، وغير المتحول أزلي. من يولد دائماً يفسد دائماً، لكن مالايولد إلا مرة واحدة لايفسد أبداً ولايصبح شيئاً آخر. بدئياً الله، ثم العالم، وثالثاً الإنسان؛ العالم لأجل الإنسان، والإنسان لأجل الله. إن الجزء الحساس من الروح قابل للموت، وجزءها المعقول خالد؛ كل جوهر خالد، وكل جوهر هو خاضع للتغيير. كل كائن مزدوج، وأي كائن ليس ثابتاً. كل الأشياء ليست متحركة بالروح، ولكن كل ماهو كائن، هو متحرك بالروح. كل سلبي يشعر، وكل مايشعر هو سلبي. كل مايتألم ويتمتع هو حيوان قابل للموت، كل مايتمتع ولايتألم هو حيوان خالد. ليس كل جسد

(١) يقابل هنا هرمس، وفقاً لأفلاطون، بين الذكاء الذي هو أحد أجزاء الروح مع جزأيها الأخيرين وهما: الحماس والرغبة.

(٢) أقرأ Ερυμα بدلاً من ,ερημα التي تبدو لي غير مفهومة.

خاضع للأمراض، وكل جسد خاضعاً للأمراض هو قابل للتدمير. العقل في الله، وفي الإنسان الإدراك؛ الإدراك هو في العقل، والعقل هو ممتنع على الألم. لاشيء صحيح في الجسد، ولاشيء غلط في اللامتجسد. كل مايولد يتغير، ولكن ليس كل مايولد لايفسد. لاحسن على الأرض، لاسيء في السماء. الله طيب، والإنسان سيء. الخير مرغوب، والشر غير مرغوب. الآلهة تريد الخيرات كخيرات... القاعدة[٣]. الزمن إلهي، القانون بشري (؟). الشر هو عنصر العالم، الزمن هو تدمير الإنسان. كل شيء غير متحول في السماء، لاشيء لايتحول على الأرض. لاشيء عبد في السماء، لاشيء حر على الأرض. لاشيء غير معلوم في السماء، لاشيء معلوم على الأرض. لاشيء مشترك يدخل الأشياء السماوية والأشياء الأرضية. كل شيء لايلام في السماء، لاشيء لايلام على الأرض. الخالد ليس فانياً، الفاني ليس خالداً. مازرع لايولد دائماً، وماولد كان قد زرع دائماً. ثمة زمنان في الجسد القابل للانحلال: من الحمل إلى الولادة، ومن الولادة إلى الموت. ليس للجسد الخالد سوى زمن انطلاقاً من الولادة. الأجسام القابلة للتحلل تزيد وتنقص. المادة القابلة للذوبان تتغير في موعدين متناقضين: التدمير والولادة؛ والمادة الخالدة تتغير إما في ذاتها أو مشابهاتها. ولادة الإنسان تدمير، ودمار الإنسان هو مبدأ الولادة. ماينتهي يبدأ، ومايبدأ ينتهي. بين الكائنات، بعضها هو في الأجسام، والأخرى في الأشكال، وغيرها في الطاقات. الجسد هو في الأشكال، والشكل والطاقة هما في الجسد. الخالد لايتلقى شيئاً من الفاني، والفاني يتلقى من الخالد. الفاني لايدخل في جسد خالد، والخالد يدخل في الفاني. الطاقات لاتتجه نحو الأعلى، وإنما نحو الأدنى. ماهو على الأرض لايفيد ماهو في السماء، وكل مافي السماء يفيد ماهو على الأرض. السماء تحتوي الأجساد

---

(٣) يوجد هنا تحريف في النص يجعل الفكرة غير مفهومة.

الخالدة، والأرض تحتوي الأجساد القابلة للفناء. الأرض لاعقلانية، والسماء معقولة. الأشياء السماوية هي تحت السماء، والأشياء الأرضية على الأرض. السماء هي العنصر الأول. العناية الإلهية هي النظام، والضرورة هي أداة العناية. الثروة هي عربة الفوضى، ظل الطاقة، ورأي خادع. ماهو الله؟ الخير الثابت. ماهو الإنسان؟ الشر الثابت.

بتذكيرك بهذه المبادئ، سوف تتذكر بسهولة أشياء كنت شرحتها لك بصورة مُطَّولة والتي توجد هنا موجزة. لكن تحاشَ أن تغذي بها الجمهور؛ ليس لأنني أريد منعه من فهمها، وإنما لا أريد أن أعرضك إلى سخريته. من يتشابه يتجمع؛ وبين المتعارضين لاتوجد محبة. هذه الدروس ينبغي أن يكون لها عدد من المستمعين وإما سرعان مالايكون لها أحد. وبخاصيتها هذه يندفع الخبثاء أيضاً نحو الشر. فيجب أن تحترس إذن من العامة التي لاتفهم فضيلة هذه الخطابات.

- ماالذي تريد أن تقوله يا والدي؟

- إليكَهُ يا بني. إن الجنس البشري مطبوع على الشر؛ فالشر هو طبيعته وهو يرضيه. فإذا تعلم الإنسان أن العالم مخلوق، وإن كل شيء صنع حسب العناية والضرورة، وإن الضرورة، كالقدر تحكم كل شيء، سوف يتوصل دون عناء لاحتقار مجمل الأشياء لأنها مخلوقة، وأن يسند العيب إلى القدر، ولن يمتنع عن أي عمل شرير. فيجب إذن التحفظ من العامة، كي تجعلها الجهالة أقل سوءاً بجعلها تخاف من المجهول.

ـ ٢ ـ

النشاط والاحساس

ـ لقد شرحت لي جيداً هذه الأشياء، يا والدي، ولكن زدني علماً حول هذه: فقد تعلمت أن العلم والفن كانا نشاطاً للإدراك؛ والآن تقول أن الحيوانات البرية مدعوة هكذا لأنها محرومة من الإدراك. ويستخلص من ذلك بالضرورة أنه لاينبغي أن يكون لها لا علم ولا فن.

ـ بالضرورة يا ولدي.

ـ كيف ترى إذن، يا والدي، بعض الحيوانات تستعمل علماً وفناً، على سبيل المثال، النحل الذي يجمع مؤونة الشتاء، والطيور التي تبني أعشاشها، وذوات الأربع أرجل التي تتعرف على اسطبلاتها؟

ـ ليس هذا علماً ولافناً ذلك الذي يوجهها، يا بني، تلك هي الطبيعة. فالعلم والفن يلقنان وهذه الحيوانات لاتلقن شيئاً. فالذي يحصل بصورة طبيعية هو حصيلة نشاط شمولي، والعلم والفن ينتميان فقط لأولئك الذين اكتسبوهما. الوظائف العامة للجميع هي وظائف طبيعية. وهكذا يمكن للبشر جميعاً أن ينظروا في الأعلى، لكن ليسوا جميعاً موسيقيين، ولا رماة سهام، ولا صيادين وهكذا دواليك. بعضها تلقى علماً وفناً، ويمارسهما. وإذا بالطريقة ذاتها فعلت بعض النحلات مالاتفعله النحلات الأخرى، يمكن أن تقول بحق أنها تملك علماً أو أن لديها فن جمع المؤن. لكنها جميعاً نفس الشيء تحت اندفاع الطبيعة، وبدون إرادة؛ فبديهي إذن أن لا العلم ولا الفن هو الذي يوجهها.

إن النشاطات، يا تات، هي لامجسدة وتمارس في الجسد وبوساطة الجسد. وبكونها لامجسدة، يمكن أن تقول عنها أنها خالدة؛ وبصفة أنها لايمكن أن تمارس خارج الجسد، أقول أنها دائماً في الجسد. ومن له غايته وسببه المعيّنان بالعناية الالهية والضرورة، لايمكن أن يبقى ساكناً. وهذا الذي سيكون دائماً هنا، هو جسده وحياته. ولهذا السبب، سيكون هنالك دائماً أجساد؛ كذلك فإن خلق الأجساد هي وظيفة أبدية. ذلك لأن الأجساد الأرضية هي قابلة للتحمل ولكن الأجساد ضرورية لاستخدامها مقراً وأدوات للطاقات؛ وعلى ذلك فإن الطاقات خالدة، وماهو خالد هو دائماً فعّال: فخلق الأجساد هو إذن وظيفة، وهي أزلية.

إن طاقات أو قدرات الروح لاتظهر جميعاً في آن واحد؛ فبعضها يعمل منذ ولادة الإنسان، وفي الجزء غير المدرك من روحه؛ وبمقدار ماينمو الجزء المدرك مع العمر، فإن قدرات أكثر رفعة تمنحه معونتها. والقدرات مرتبطة بالأجساد. إنها تهبط من أجساد إلهية إلى الأجساد الفانية، وبها قد خُلقت هذه. وتمارس كل واحدة من بينها وظيفة الجسد أو الروح، لكنها [لا] توجد(٤) في الروح بصورة مستقلة عن الجسد. لأن الطاقات موجودة دائماً، لكن الروح ليست موجودة دائماً في جسد فان؛ ويمكن أن توجد بدونه، في حين أن القدرات لايمكن أن توجد بدون جسد. هذا خطاب مقدس يا ولدي؛ فالجسد لايمكن أن يدوم بدون الروح، لكن الكائن يستطيع ذلك.

ـ ماذا تود أن تقول يا والدي؟

ـ افهمني، يا تات. عندما تنفصل الروح عن الجسد، يبقى الجسد، لكنه يُشْغَل بتحلل داخلي وينتهي إلى الزوال؛ وهذا الأثر

---

(٤) أضفتُ نفياً بين قوسين ليس موجوداً في النص لكنه يتناسب مع المعنى.

لايمكن أن يحصل بدون سبب إيجابي: فيبقى إذن طاقة في الجسد بعد ذهاب الروح. وبين جسد خالد وجسد فانٍ يوجد فارق: الأول تكوَّن من مادة واحدة، والأمر على خلاف ذلك في الثاني؛ الأول إيجابي والآخر سلبي. وكل كائن إيجابي يهيمن، وكل كائن سلبي يطيع؛ الأول هو حر ويحكم، والآخر هو عبد ويتحمل اندفاعاً.

الطاقات لاتعمل فقط في الأجساد الحية، وإنما في الأجساد غير الحيةأيضاً، كالخشب، الحجارة والأشياء المماثلة. إنها تزيد فيها، تجعلها تثمر، تجعلها تنضج، تحللها، تذيبها، تطهرها، تهرسها، تجعلها تتحمل كل التغيرات التي تكون الأجساد غير الحية قابلة لها، لأننا نسمي الطاقة كل ماينتج التغيير، المصير. وعلى ذلك، فإن المصير، متعدد، أو بالأحرى شامل. أبداً لاشيء مما يولد، لن يفقد في العالم، فهو يولِّد بدون انقطاع في ذاته كل الكائنات كي يدمرها بدون انقطاع. فكل طاقة هي إذن خالدة دائماً، وأية طبيعة كانت لها وفي أي جسد تُنتج. لكن بين الطاقات، مايمارس في الأجساد الفانية؛ بعضها شمولي، والآخر خاص؛ وبعض يؤثر على الأنواع، والآخر على كل واحد من أجزائها. فالطاقات الإلهية تمارس في الأجساد الأزلية وهي تامة مثلها. والطاقات الجزئية تعمل بواسطة كل واحد من الكائنات الحية؛ والطاقات الخاصة تعمل في كل واحد من الأشياء التي توجد. ويستخلص من هذا يا ولدي، أن الكون مليء بالطاقات. لأنه ينبغي أن تكون الطاقات في الأجساد، ويوجد كثير من الأجساد في العالم، وعلى ذلك، فإن الطاقات هي أكثر عدداً من الأجساد، لأنه غالباً ماكان يوجد طاقة أو طاقتان أو ثلاثية، دون احتساب الطاقات التي هي شمولية، وأقصد شمولية: الطاقات التي لايمكن أن تنفصل عن الأجساد والتي تظهر بالإحساسات، والحركات، وبدونها لايمكن لجسد أن يوجد وغيرها هو الطاقات الخاصة التي تظهر في الأرواح الإنسانية بواسطة الفنون، العلوم والصنائع. الإحساسات تصاحب الطاقات أو بالأحرى هي نتائجها.

لتعلم، يا بني، الفارق الذي يوجد بين الطاقات والإحساسات. فالطاقة تأتي من الأعلى، والإحساس هو في الجسد ويأخذ منه جوهره؛ إنه مقر الطاقة، ويظهرها ويعطيها جسداً بنوع ما. ولهذا قلت أن الإحساسات هي متجسدة وفانية؛ ووجودها مرتبط بوجود الجسد؛ إنها تتولد معه وتموت معه. فالأجساد الخالدة لايوجد لها إحساس، وبدقة بسبب جوهرها؛ لأنه لايمكن أن يوجد فيه إحساس آخر سوى إحساس الخير أو الشر الذي يصل إلى جسد ما أو يبتعد عنه؛ وعلى ذلك، فالأجساد الخالدة ليست محلاً لهذه الحوادث.

ـ الإحساس يشعر به في كل جسد إذن؟

ـ نعم يابني، وفي كل جسد تعمل الطاقات.

ـ حتى في الأجساد غير الحية، يا والدي؟

ـ حتى في الأجساد غير الحية. فالاحساسات من مختلف الأنواع: احساسات الكائنات المدركة تترافق بالادراك؛ واحساسات الكائنات التي هي بدون إدراك تكون جسدية صرفة؛ واما احساسات الكائنات غير الحية فهي سلبية وتتكون فقط في الزيادة والنقصان. وانطلاقاً من المبدأ نفسه ووصولاً إلى النقطة نفسها، فإن الهوى والاحساس هما نتاج الطاقات. وفي الكائنات الحية، توجد طاقتان أخريان ترافقان الأهواء والإحساسات، إنهما السرور والحزن. وبدونها فإن الكائن الحي، وبخاصة الكائن المدرك، لن يشعر بشيء؛ ويمكن اعتبارها إذن كأشكال عواطف لدى الكائنات المدركة، أو بالأحرى لدى كل الكائنات الحية. إنها نشاطات ظاهرة بالاحساسات، وحركات جسدية منتجة بواسطة الأجزاء اللاعقلانية للروح. أن الفرح والحزن كلاهما سيئان جداً؛ لأن الفرح، أي الإحساس المصحوب باللذة، يجر بعده آلاماً كبرى؛ والحزن ينتج آلاماً وأوجاع أكثر قوة: إنهما إذن سيئان أولهما وآخرهما.

ـ هل الإحساس هو نفسه في الروح وفي الجسد يا والدي!

ـ ماذا تفهم يا بني، بإحساس الروح؟

ـ أليست الروح غير مجسدة؟ بينما الإحساس يجب أن يكون جسداً، يا والدي، لأنه يوجد في الجسد.

ـ إذا وضعناه في الجسد، يا بني، نشبهه بالروح أو بالطاقات، التي هي غير مجسدة مع كونها في الجسد. لكن الإحساس ليس هو، لا الطاقة، ولا الروح، ولاشيء يتميز عن الجسد؛ إنه إذن غير متجسد. وإذا لم يكن غير متجسد، فإنه يجب أن يكون متجسداً؛ ذلك لأن ليس شيئاً ما لايكون متجسداً أو غير متجسد.

ـ ٣ ـ

إن الله، خالق الأجساد الخالدة، يا تات، بعد أن أكمل عمله، لم يفعل شيئاً ولن يفعل شيئاً. وعندما سلم هذه الأجساد الخالدة لذاتها ووصل بعضها بالبعض الآخر، تحركت دون أن تكون بحاجة إلى شيء؛ وإذا كان بعضها بحاجة إلى البعض الآخر، فإنها على الأقل ليست بأية حاجة لدافع أجنبي، لأنها خالدة. وهذا ماينبغي أن تكونه طبيعة مخلوقات هذا الإله العلي. لكنْ لخالقنا جسد؛ وهو خلقنا، وبدون توقف يخلق وسوف يخلق أجساداً قابلة للانحلال وفانية، لأنه لم يكن ينبغي أن يقلد خالقه الخاص، وهو من جانب آخر لم يكن يستطيع ذلك. هذا استخرج مخلوقاته من جوهرها الأول وغير المجسد، وذاك شكَّلنا من جوهر مجسد ومتولد. وطبيعي أن يتبع ذلك أن الأجسام السماوية المتولدة من جوهر لامتجسد تكون غير قابلة للتلف، في حين أن أجسادنا هي قابلة للانحلال وفانية. كما لو أنها مكونة من مادة جسدية و، بالنتيجة، ضعيفة بذاتها وهي بحاجة لعون خارجي.

كيف يستطيع الذي يشكل أجسادنا أن يبقى إذا كان في الواقع لم يُغَذَّ بعناصر من نفس طبيعته؟ فالأرض، والماء، والنار والهواء تؤثر فينا

وتّجدد غلافنا. إننا ضعفاء بحيث أننا لانستطيع تحمل يومٍ واحدٍ من الحركة. وتعرف تماماً، يا ولدي، أنه بدون الاستراحة لَيلاً لايمكن لجسدنا أن يقاوم نهاراً. ولهذا فإن خالقنا الكريم، في بصيرته الشمولية، ضَمِنَ مدة الكائنات الحية بخلقه الرُقاد المجدد للقوى من التعب والحركة، وبمنحنا جزءاً من الوقت مساوياً أو حتى أكبر للراحة. فلتفهم جيداً يا بني، أن طاقة الرُقاد هذه، مقابلة لطاقة الروح وليست بأقل منها. فإذا كانت وظيفة الروح هي الحركة. فإنه لايمكن للأجساد أن تعيش بدون الرقاد، الذي يرخي ويحل صلة الأعضاء، وبعمله التجديدي، يوزع على كل واحدة منها المادة التي هي بحاجة لها، مقدماً الماء للدم، والتراب للعظام، والهواء للأعصاب والعروق، والنار للعيون. ومن هنا كانت اللذة القصوى التي يجدها الجسد في الرقاد.

ـ ٤ ـ

ثمة ألوهة كبيرة جداً قد أقيمت، يا ولدي، وسط الكون، ترى كل ماهو على الأرض، من عمل البشر. في النظام الإلهي، كل شيء منظم بالعناية الالهية والضرورة؛ وبين البشر تعود الوظيفة نفسها إلى العدالة. أول هذين القانونين يمتد إلى (الحركات) السماوية، لأن الآلهة لاتريد ولايمكن أن تضل؛ وبكونها ليست عرضة للخطأ، الذي هو مصدر الذنب، فهي معصومة. وثانيهما، العدالة، مكلفة بأن تصلح على الأرض الشر الذي يحصل بين البشر. فالعرق البشري، بكونه فانياً ومكوناً من مادة سيئة، خاضع لحالات العجز، عندما لاتدعمه نظرة الأشياء الإلهية. فانظر أين تمارس العدالة علمها. بالطاقات التي تعود للطبيعة، يكون الإنسان خاضعاً للقدر؛ وبأخطاء حياته، يكون خاضعاً للعدالة.

ـ ٥ ـ

إليك مايمكن قوله عن الأزمنة الثلاثة: إنها ليست بذاتها وليست مرتبطة، ومن جانب آخر هي مرتبطة وهي بذاتها. هل يراد افتراض الحاضر دون وجود الماضي؟ لايمكن للأول أن يدوم بدون الآخر، لأن الحاضر يولد من الماضي، ومن الحاضر يخرج المستقبل. إذا رغبنا المضي إلى عمق الأشياء، سوف ندرك هكذا: الزمن الماضي دخل في ما لم يعد موجوداً؛ والمستقبل ليس موجوداً طالما لم يصبح حاضراً؛ والحاضر، بدوره، يتوقف عن أن يكون هو من اللحظة التي يدوم. فكل ما لا يدوم لحظة وليس له مركز ثابت هل يمكن أن يسمى حاضراً، عندما لايمكن حتى أن يقال أنه يوجد؟ إضافةإلى ذلك، فإن الماضي المتلائم مع الحاضر والحاضر مع المستقبل، يصبحون واحداً. ثمة بينهم هوية، وحدة، استمرارية. وهكذا الزمن هو مستمر ومتميز، تماماً مع كونه واحداً ومتشابهاً.

ـ ٦ ـ

درجات البـروج العشرة والنجوم[٥]

تات

من خطاباتك العامة السابقة، وعدتني بأن تعلمني حول الدرجات الست والثلاثين من البروج؛ فاعرض لي الآن طبيعة عملها.

---

(٥) الجزء الأول من هذا المقطع مفقود في «باتريزي» كما في الطبعات القديمة من مخطوط «ستوبي».

هرمس

لا أرفض طلبك يا تات، وسيكون هذا الخطاب الأكثر أهمية والأكثر رفعة من الجميع؛ فافهمه إذن جيداً. لقد حدثتك عن دارة البروج، أي التي تحمل الحيوانات، والكواكب، والشمس، والقمر وكل واحدة من دوائرها.

تات

لقد تحدثت لي عنها أيها المثلث العظمة.

هرمس

تذكر ماكنت قلته لك، وستفهم كذلك مالديَّ لأقوله لك عن الست والثلاثين درجة، وستظهر لك كلماتي أكثر وضوحاً.

تات

أتذكره يا والدي.

هرمس

لقد قلنا يا بني، إنه يوجد جسم يغطي الجميع؛ ويجب أن تتصوره على شكل كروي، لأن ذلك هو شكل الكون.

تات

أتمثل هذا الشكل، يا والدي.

هرمس

تحت دائرة هذا الجسم وضعت الست والثلاثون درجة، بين دائرة الكون والبرج، على الحد الأول والآخر. وكما يقال، أنها تدعم البرج، وتستخدم له حدوداً وهي محمولة مع الكواكب. قوتها، مساوية لحركة الكون وفي اتجاه معاكس لحركة السبعة، تمسك الجسم المغلَّف. إنها تدفع الدوائر السبع الأخرى، الأكثر بطأً في حركتها من دائرة الكون.

هاتان الحركتان، هما ضروريتان بنوع ما. ولنتصور إذن الدرجات العشر كالحارسة للدوائر السبع والدائرة الشمولية، أو بالأحرى لكل مايؤلف العالم؛ إنها تحافظ على الجميع وتحافظ على النظام العام للمجموع.

تات

إنني أتمثل جيداً ماقلته يا والدي.

هرمس

ولتعلم أيضاً يا تات، أنها لاتبقى بنفس التتابعات مثل النجوم الأخرى: إنها غير محفوظة في مسيرتها ولاملزمة بالتوقف والتراجع إلى الوراء؛ إنها ليست، مثل النجوم الأخرى، مغطاة بنور الشمس؛ وهي حرة في قمة العالم، تضم له النهار والليل كحارسين ومشرفين نابهين.

تات

هل لها أيضاً تأثير علينا، يا والدي!

هرمس

تأثير كبير جداً يا بني. فإذا كانت تؤثر على الأشياء السماوية، فكيف لا تؤثر علينا؟ إنه تأثير خاص وعام. وهكذا، فإنه بين الأحداث العامة التي تتعلق بتأثيرها، سوف أذكر ثورات الممالك، وتمردات المدن، والمجاعات، والأوبئة ومد البحر وجزره. والهزات الأرضية؛ لاشيء من كل هذا، ياولدي، خارج تأثيرها. وانتبه أيضاً لهذا: طالما أننا تحت الأفلاك السبعة التي لها التوجيه، ألا تعرف أن طاقتها تمتد حتى إلينا، وإلى أبنائها، الذين يوجدون بواسطتها؟

تات

وماهو شكلها يا بني؟

هرمس: نسميها عادة الشياطين، ولكن الشياطين ليسوا صنفاً

خاصاً، فليس لهم أجساد مختلفة مكونة من مادة خاصة وتتحرك بروح مثلنا؛ إنها الطاقات لهذه الستة وثلاثين إلهاً. ولتعلم أيضاً، ياتات، في موضوع تأثيرها، إنها تبذر على الأرض مانسميه **التانات**، بعضها شافٍ، وبعضها الآخر مهلك. إضافة لذلك، إن نجوم السماء تولد وزراء، ولهم خدم وجنود، ينتشرون في الأثير ويملؤون امتداده، إذ لايوجد في الأعالي فراغ دون نجم. وهذه تسهر على انتظام الكون، ولها طاقتها الخاصة التابعة لطاقة الستة والثلاثين؛ وتمارسها بتدمير كائنات أخرى حية وإنتاج حيوانات تتلف الثمار. وهي ترأس مجموعة الدب، المؤلفة من سبعة نجوم وسط دائرة البروج، والتي لها منها تابع آخر فوق رأسها. طاقته هي طاقة محور، لاتغيب، ليس لاتشرق، انها تستمر وتدور في الفراغ نفسه، وتنتج ثورة فلك البرج، وتناوبات الليل والنهار في الكون. وهي متبوعة بجوقة أخرى من النجوم التي لم نعط أسماء لها؛ لكن من سوف يقلدوننا في المستقبل سوف يعطونها أسماء. وتحت القمرِ نجوم فانية. تضيء خلال وقت قصير، منتجة في الهواء الأعلى بوساطة فوحانات الأرض. إننا نَراها تنحل، شبيهة بتلك الحيوانات غير المفيدة التي لاتولد إلا لكي تموت، الذباب، القمل، الديدان وماشابهها. هذه الفوائض عن الطبيعة، ولدت بدون هدف، ولاتستخدم لا لنا ولا للعالم؛ وهي بالأحرى ضارة. كذلك نجوم الأرض الفواحة تلك التي لايمكنها أن تدرك الأعالي لأنها خرجت من المناطق السفلى. وبما أن لها كثيراً من الثقل، فإنها قد جرَّت بواسطة مادتها الخاصة، وبذوبانها تعاود السقوط على الأرض، وبدون أن تفعل شيئاً سوى تعكير الهواء الأعلى.

ويوجد أيضاً، يا تات، نوع آخر من الكواكب التي نسميها المذنبات؛ وهي تظهر لساعتها وتختفي خلال وقت قصير. ليس لها لاغروب ولا شروق، وهي المنبئة والمبعوثة للأحداث الكبرى التي ينبغي أن تكتمل. ومكانها تحت دائرة الشمس. فعندما ينبغي حصول شيء في

العالم، تظهر، وخلال بضعة ايام، تعود في دائرة الشمس وتبقى غير مرئية، بعد أن تكون ظهرت إما في الغرب، وإما في الشمال، إما في الشرق، إما في الجنوب؛ ونسميها نُزُرْ. تلك هي طبيعة الكواكب، وهي تختلف عن النجوم؛ فالكواكب معلقة في السماء، والنجوم مثبتة في جسم السماء ومحمولة معها. وبينها، سمينا الاثنتي عشرة علامة من تلك البروج. ومن يعرف هذه الأشياء يستطيع الحصول على مفهوم دقيق عن الله، وأن يتأمله كما يقال، ويحصل منه على الطوبى (السعادة الأبدية).

تات

إنه سعيد في الواقع من يراه، يا والدي.

هرمس

هذه السعادة ليست ممكنة طالما نحن في الجسد؛ يجب تدريب الروح هنا على الأرض، كي لاتخطئ الطريق عندما ستصل إلى المكان الذي يكون لها فيه هذا التأمل مسموحاً به. فالناس المرتبطون بالجسد سيكونون محرومين إلى الأبد من رؤية الجمال والخير. لأنه، يا بني، هو جمال لاشكل له، ولا لون، ولاجسد.

تات

هل يوجد جمال خارج هذه الأشياء يا والدي.

هرمس

الله وحده، يا بني، أو بالأحرى، شيء ما أكبر، اسم الله.

ـ ٧ ـ

تات: لقد أعلمتني عن كل الأشياء يا والدي، ولكن أوضح لي أيضاً ما يتعلق بالضرورة، وبماذا تتعلق العناية أو القدر.

هرمس: لقد قلت، يا تات، أنه كان يوجد فينا ثلاثة أنواع من اللامتجسدات. أولها معقول، لا لون له، ولاشكل ولاجسد، ويتفرع من الجوهر الأول. ومعقول، ويوجد فينا أشكال تستجيب له وتتلقى. وماوضع في الحركة بواسطة الجوهر المعقول والمتلقي بواسطته يتغير لشكل آخر من الحركة، والتي هي صورة الخالق. والنوع الثالث من اللامتجسدات يرافق الأجساد: تلك هي المكان، الزمان، الحركة، الصورة، التألق، العظمة، الشكل. وينبغي تمييز الصفات بمعنى الكلمة لتلك التي تعود للأجساد. فالأولى هي الوجه، اللون، الشكل، المكان، الزمان، الحركة. والأخرى هي الوجه المصور، اللون الملون الشكل المتشكل، المظهر، والعظمة. وهذه الأشياء لاتساهم أبداً بـ [هذا؟][٦]. فالجوهر المعقول الذي هو في الله هو سيد ذاته، وبحفاظه على ذاته، يمكن أن يحفظ شيئاً آخر، طالما أن الجوهر غير خاضع للضرورة. لكنه بإهمال الله له، يأخذ طبيعة مجسدة، ويحدث هذا الخيار حسب العناية [وهذا يرتبط بالعالم]. كل ماهو غير عقلي متحرك لسبب معين؛ والسبب مترتب حسب العناية، واللامعقول حسب الضرورة، وأحداث الجسد حسب القدر. ذلك هو توضيح دور العناية، الضرورة والقدر.

(٦) يبدو أن النص يعج بالثغرات والأخطاء لذا وضعت بين قوسين بعض المقاطع التي بدت لي غير مفهومة (المؤلف).

ـ ٨ ـ

يا ولدي، المادة ولدت وكانت[٧]، لأن المادة هي إناء ولادة (المصير) المصير هو طريقة نشاط الإله غير المخلوق والبصير. بتلقيها بذرة الولادة، ولدت، وتلقت الأشكال، لأن القوة الخلاقة تقولبها حسب الأشكال المثالية. المادة غير المتولدة بعد لم يكن لها شكل، وتولد عندما توضع موضع الحركة.

ـ ٩ ـ

الحديث بأمان عن الحقيقة، ياتاتيوس، هو شيء مستحيل للإنسان، الحيوان الناقص، المؤلف من أعضاء ناقصة والمكون من تجمع أجسام غريبة؛ ولكن أقول، بمقدار ماهو ممكن ومتاح، إن الحقيقة هي فقط في الكائنات الأزلية، التي أجسادها نفسها حقيقية. فالنار ليست إلا من نار ولا أكثر؛ والتراب ليس إلا من تراب، والهواء من الهواء. لكن أجسادنا مؤلفة من كل هذا؛ ويوجد فيها، نار، وتراب، وماء، وهواء، وهي ليست لا ناراً، ولاتراباً، ولاماءً، ولاهواء ولاشيئاً من الحقيقة، وإذا كانت الحقيقة منذ الأصل غريبة عن تكويننا، فكيف يمكننا أن نرى الحقيقة، بالحديث عنها أو فقط فهمها، إن لم يكن الله أرادها. كل الأشياء الأرضية، يا تاتيوس، ليست إذن الحقيقة، وإنما ظل

(٧) يبدو أنه يوجد هنا تناقض ما لكنه تناقض ظاهري فقط. يفرق الكاتب بين الحياة المتبدّلة والوجود الساكن. نقول عن المادة قبل أن تتحقق أنها «كانت» ثم «تصبح». في اللغة اليونانية، تعني الكلمة ذاتها الخلق والتحوّل. وفي الواقع، كلّ تغيير هو خلق (المؤلف).

الحقيقة، وليس حتى جميعها، وإنما عدد صغير؛ والأخرى هي كذب وخلال، ياتاتيوس، مظاهر خيالية وكالصور. وعندما يتلقى أحد هذه المظاهر الفوحان من الأعلى، يصبح تقليداً للحقيقة؛ وبدون هذا التأثير الأعلى، يبقى كذباً. وكالرسم تكون الصورة المرسومة للجسد، لكن ليس الجسد الذي تمثله. يبدو أن له عيوناً، ولكن لاترى شيئاً؛ وآذاناً، ولاتسمع شيئاً، وهكذا فيما يبقى. إنه تصوير يخدع العيون؛ يعتقد برؤية الحقيقة، ولايوجد سوى الكذب. الذين لايرون الكذب يرون الحقيقي؛ إذا فهمنا، وإذا رأينا كل شيء كما هو، نفهم، ونرى الحقيقة؛ ولكن إذا رأينا ماليس هو، لايمكن أن نفهم ولن نعلم شيئاً عن الحقيقي.

ـ إذن توجد حقيقة يا والدي حتى على الأرض؟

ـ خطؤك ليس انعدام تبصر، يا ولدي. فالحقيقة ليست على الأرض، يا تاتيوس، ولايمكن أن تكون عليها، لكنها يمكن أن تكون مفهومة من قبل الأشخاص الذين يعطيهم الله رؤية إلهية. لاشيء حقيقي على الأرض، ولايوجد سوى مظاهر وآراء؛ وكل شيء هو حقيقي بالنسبة للعقل والإدراك؛ وهكذا، أن تفكر وتقول الحقيقي، ذلك هو ماينبغي أن يسمى الحقيقة.

ـ ماذا إذن؟ يجب التفكير وقول ماهو حقيقي، ولاشيء حقيقي على الأرض؟

ـ يوجد هذا حقيقي هو أننا لانعلم شيئاً عن الحقيقي. وكيف يمكن أن يكون خلاف ذلك يا ولدي؟ الحقيقة هي الفضيلة الكاملة، السيد مع أنه ليس معكراً بالمادة، ولامحصوراً بالجسد، الخير الخالص، واضح، غير قابل للفساد، سامي، ثابت. وعلى ذلك، فإن الأشياء على هذه الأرض، كما ترى، يا بني، هي غير متلائمة مع الخير؛ إنها قابلة للتلف، متغيرة قابلة للفساد، تعبر من شكل لآخر. فالذي هو ليس ذاته هل يمكن أن يكون حقيقياً؟ كل مايتحول هو كذب، ليس في ذاته، وإنما في المظاهر التي يقدمها لنا الواحد بعد الآخر.

ـ الإنسان نفسه أليس حقيقياً، يا والدي؟

ـ ليس حقيقياً بصفته إنساناً يا بني. فالحقيقي لايتكون إلا في ذاته ويبقى على ماهو. الإنسان مركب من عناصر متعددة ولايبقى مماثلاً لذاته. فطالما يسكن الجسد، يمزق عمراً لآخر، ومن شكل لآخر. غالباً، بعد فترة قصيرة من الزمن، لايعرف الآباء أبناءهم، ولا الأبناء آباءهم. فالذي يتغير لدرجة أن لايُعرف هل هو شيء حقيقي، يا تاتيوس؟ أليس هو بالأحرى كذب مثل هذا التتابع للمظاهر المختلفة؟ لاتنظر لاتعد حقيقياً سوى الأزلي والعادل. فالإنسان ليس هو دائماً، اذن فهو غير حقيقي؛ والإنسان ليس سوى مظهر، والمظهر هو الكذب الأقصى.

ـ لكن الأجساد الأزلية بذاتها ليست إذن حقيقية، يا والدي، طالما أنها متغيرة؟

ـ كل مايولد وموضوع تغيير ليس حقيقياً، لكن منتجات الجد الأكبر يمكن أن تتلقى منه مادة حقيقية. مع ذلك يوجد عيب فيهم بفعل التغيير، لأنه لايوجد حقيقي إلا ماهو مشابه لذاته.

ـ فما الذي يمكن تسميته حقيقياً اذن يا والدي؟

ـ الشمس، الوحيد من كل الكائنات الذي لايتغير والذي يبقى مشابهاً لذاته. ولهذا أنيط بها دورها نظام العالم؛ إنها الرئيس والخالق لكل الأشياء وإنني لأعبدها وأسجد أمام حقيقتها، وبعد الوحدة الأولى، أعترف بها كخالقة.

ـ ماهي اذن الحقيقة الأولى، يا والدي؟

ـ إنها واحد ووحيد، يا تاتيوس، ذلك الذي لم يتشكل من المادة، وليس في جسد، وانه لا لون ولا وجه له، والذي لايتغير ولايتحول الذي هو دائماً.

ماهو كذب يفسد، يا ولدي. عناية الحقيقي غلفت وسوف

تغلف من الفساد كل الأشياء الأرضية لأن الفساد هو شرط كل ولادة؛ فكل ماولد يفسد ليعاود الولادة أيضاً. ومن الضروري أن يخرج الفساد الحياة وأن تفسد الحياة بدورها، كي لايتوقف أبداً توالد الكائنات. فاعرف إذن بدئياً الخالق في ولادة الكائنات هذه. الكائنات المتولدة من الفساد ليست سوى كذب، تارة تصبح هذا، وتارة ذاك؛ لأنها لايمكن أن تصبح ذاتها، وكيف يمكن لما ليس مشابهاً أن يكون حقيقياً؟ فيجب إذن تسميتها مظاهر، يا بني، وأن يُرى في الإنسان مظهر الإنسانية؛ وبمعنى الكلمة فإن الولد، هو مظهر لولد، والشاب مظهر لشاب، والبالغ مظهر لبالغ، والشيخ مظهر لشيخ؛ لأنه لايمكن القول أن الرجل هو رجل، والولد ولد، والشاب شابٌّ، والشيخ شيخ؛ فبتحولهم يخدعوننا حول ماكانوا وماهم عليه. فلا ترى إذن في كل هذا يا ولدي، سوى مظاهر كاذبة لحقيقة عليا وطالما أن الأمر هكذا، اسمي الكذب تعبيراً عن الحقيقة.

ـ ١٠ ـ

فهم الله صعب، والحديث عنه مستحيل؛ لأن الجسد لايستطيع أن يعبر عن غير المجسد، والناقص لايمكن أن يعانق الكامل. كيف تشرك الأزلي بما يدوم وقتاً قصيراً؟ الأول يبقى دائماً، والآخر يمضي: الأول هو الحقيقة، والآخر ظل خيالي. بمقدار مايختلف الضعف عن القوة والصغار عن العظمة، بمقدار مايختلف الفاني عن الإلهي. المسافة التي تفصلهما تظلم رؤية الجمال. الأجساد مرئية بالعيون، وماتراه العين يستطيع اللسان أن يعبر عنه؛ ولكن ماليس لابجسد، ولا بمظهر، ولابشكل، ولامادة لايمكن أن يدرك بحواسنا. افهم، يا تات، افهم ما مالايمكن أن يعبر عن نفسه، ذلك هو الله.

مقاطع
من كتب هرمس إلى آمون

ـ ١ ـ

حول الاقتصاد العام

مايحكم العالم، هو العناية؛ ومايحتويه ويغلفه، هي الضرورة؛ والقدر يدفع ويتضمن كل شيء بقوة إلزامية هي طبيعته. إنه سبب الولادة وفساد الحياة. فأول ما للعالم إذن العناية، لأنه يتلقاها بدئياً. العناية تنتشر في السماء. حولها تدور الآلهة بحركة لاتكل وأبدية. يوجد قدر لأنه توجد ضرورة. العناية تتبصر، والقدر هو سبب وضع الكواكب. ذلك هو القانون الشمولي.

ـ ٢ ـ

كل شيء يحصل بوساطة الطبيعة والقدرة ولايوجد مكان خالٍ من العناية. فالعناية هي العلة الحرة للإله السماوي؛ وله قوتان عفويتان، الضرورة والقدر. القدر خاضع للعناية وللضرورة؛ وإلى القدر تخضع الكواكب. ولأنه لاشيء يمكنه تحاشي القدر ولا أن ينجو من تأثير الكواكب. إنها أدوات القدر، وإنه بواسطتها تكمل كل شيء في الطبيعة وفي الإنسانية.

ـ ٣ ـ

الروح هي إذن جوهر لامتجسد، وعندما تكون في الجسد لاتفقد بالكلية طريقتها بالتكون. جوهرها هو حركة مستمرة، الحركة العفوية للفكر؛ إنها ليست متحركة ولا في شيء ما. ولانحو شيء ما، ولا من

أجل شيء ما. لأنها قوة أولى، ومايسبق ليس بحاجة لما يتلو. عبارة في شيء ما تطبق على المكان، والزمان، والطبيعة؛ ونحو شيء ما تطبق على التناسق، على شكل، على صورة؛ ومن أجل شيء ماتطبق على جسد، لأن الزمن، المكان، الطبيعة ترتبط بالجسد. كل هذه العبارات مرتبطة فيما بينها بصلات متبادلة فالجسد بحاجة للمكان، لأنه لايمكن إدراك جسد دون المكان الذي يشغله؛ إنه يغير في طبيعته؛ وهذه التغيرات ليست ممكنة إلا في الزمن وبحركة الطبيعة؛ أجزاء الجسد لايمكن أن تكون متحدة دون التناسق. الفراغ يوجد بسبب الأجساد، لأنه يتضمن فيها التغييرات ولايدعها تتلاشى في هذه التغييرات؛ الجسد يمر من حالة لأخرى، لكنه بتركه حالته الأولى لايتوقف عن أن يكون الجسد، يأخذ حالة جديدة. كان جسداً، ويبقى جسداً، فقط يختلف شرطه: مايتغير في الجسد هو الصفة؟ طريقة التكون. المكان، الزمن، الحركة الطبيعية هي إذن لامتجسدة ولكل منها خاصيتها الخاصة خاصية الفراغ، هو أن يحتوي؛ خاصية الزمن، هي الفترة والعدد؛ خاصية الطبيعة، هي الحركة؛ خاصية التناسق، هي المحبة؛ خاصية الجسد، هي التغير؛ خاصية الروح، هي الفكر.

ـ ٤ ـ

كل حركة تنتج بالطاقة التي تحرك مجمل الأشياء. طبيعة الكون تقدم له نوعين من الحركة، الأولى حسب قوة الطبيعة، والأخرى حسب نشاطها، الأولى تخترق مجمل العالم وتؤثر في الداخل، والأخرى تغلف وتؤثر في الخارج؛ وهذان التأثيران يمضيان سوية. الطبيعة الشاملة تنتج الكائنات، تغذيها، تنشر بذورها المخصبة في المادة المتحركة. المادة تتدفأ بالحركة وتصبح ناراً وماء، العنصر الإيجابي والعنصر السلبي. بمقابلة النار للماء، يجفف جزء وينتج التراب. من هذا العمل المجفف

يخرج بخار مكون من ماء، تراب ونار، وهكذا يتولد الهواء. هذه العناصر الأربعة تختلط حسب قانون التناسق، الحار مع البارد، الجاف مع الرطب، ومن تعاونها تولد نفحة، وبذرة مشسابهة لنفحة تحتويها. هذه النفحة، تسقط في الرحم، تؤثر على البذرة، التحول، النمو بقوة وعظمة. لهذا التنامي يضاف ظل من الصورة، وبهذه الصورة يرتبط الشكل الذي يظهر الأشياء. وكما أنه ليس للنفحة في الرحم حركة حيوية، وإنما حركة تخمر، فإن التناسق يشكل الوعاء للحياة العاقلة. وهذه غير قابلة للقسمة وغير متبدلة، ولاتتوقف عن الكينونة. البذرة المحتواة في الرحم تظهر بأعداد وتنتج خلاصاً؛ والروح تسكن فيها، ليس بسبب مشابهة للطبيعة، وإنما بقانون حتمي؛ لاترغب أن تكون متحدة بالجسد: إنها إذن كي تطيع القدر تقدم للكائن الذي يولد الحركة العقلانية والجوهر المثالي لحياته؛ لأنها بإدخالها مع النفس، تنتج الحركة الحياتية.

ـ ٥ ـ

الروح هي إذن جوهر لامتجسد؛ ولو كان لها جسد، لما استطاعت أن تحافظ على ذاتها، لأن كل جسد هو بحاجة ليكون، للحياة، التي تتكون في النظام. في أي مكان توجد ولادة، يوجد تغيير. فالمصير يفرض عظمة، أي زيادة، والزيادة تجر النقصان، الذي يصل بذاته إلى الدمار. الذي يتلقى شكل الحياة يشارك الكائن بالروح. لانتاج الوجود يجب أن يوجد بدئياً: واسمِّي وجد، أصبح في علة وساهم بالحياة العقلية. الحياة تكون الحيوان، والعقل يجعله مدركاً، والجسد يجعله فانياً. الروح إذن لامتجسدة وتمتلك قوة ثابتة. هل يمكن للحيوان العاقل أن يوجد بدون جوهر يقدم الحياة؟ هل يمكن أن يكون مدركاً إذا لم يقدم له جوهر عاقل حياة عقلانية؟ إذا لم يظهر العقل في كل

الكائنات، فذلك تبعاً لتكوين الجسد بالنظر للتناسق. فإذا الحار هو الذي يسود في هذا التكوين، يكون الحيوان خفيفاً وحاداً؛ والذي يكون البارد سائداً فيه، يكون ثقيلاً وبطيئاً. الطبيعة تملك العناصر الجسدية حسب قانون التناسق. ولهذا الخلط المتناسق ثلاثة أشكال! الحار، البارد والمعتدل. التوافق يقام تبعاً لتأثير الكواكب، تستولي الروح على الجسد الذي عين لها، وتجعله يعيش بعملية من الطبيعة. الطبيعة تماثل تناسق الأجساد بتصرف الكواكب، وخلط العناصر بتناسق الكواكب، لكي يوجد تلاطف متبادل لأن هدف تناسق الكواكب أن يولّد الملاطفة حسب المصير.

ـ ٦ ـ

الروح هي إذن، يا آمون، جوهر له غاية في ذاته، متلقية منذ الأصل الحياة المعينة لها، وجاذبة لها، كمادة، إدراكاً له الرغبة والهياج. الهياج هو مادة؛ إذا توافق مع الجزء العاقل من الروح، يصبح الشجاعة ولايستسلم للخوف. الرغبة أيضاً هي مادة؛ باتحادها مع الجزء المدرك من الروح، تصبح الاعتدال ولاتستسلم إلى اللذة. لأن الإدراك يكمل عماء الرغبة. عندما تتناسق قدرات الروح هكذا تحت سيادة الإدراك، تنتج العدالة. إن حكم قدرات الروح ينتمي للجوهر العاقل الذي يوجد في جوهره في إدراكه البصير، والذي تقوم سلطته على إدراكه الخاص. إنه يحكم كل شيء كمحكمة عليا؛ وإدراكه البصير يستخدم له كمشير. إن إدراك الجوهر هو معرفة الاستدلالات التي تقدم إلى اللاعقلاني صورة الاستدلال؛ إنها صورة مظلمة نسبياً للإدراك، المدرك بالنسبة للامعقول، كالصدى بالنسبة للصوت، أو ضوء القمر بالنسبة للشمس. الهياج والرغبة مرتبان حسب إدراك معين، يتجاذبان بالتناوب ويقيمان فيهما دائرياً.

ـ ٧ ـ

كل روح خالدة وفي حركة دائمة. لأننا قلنا أن الحركات تجري إما من الطاقات، وإما من الأجساد. وقلنا أيضاً إن الروح، بكونها لامتجسدة، تأتي، ليس من مادة، وإنما من جوهر غير متجسد. كل مايولد هو منتج بالضرورة بوساطة شيء ما. حركتان تتبعان بالضرورة كل شيء يكون نسله متبوعاً بالفساد: حركة الروح؛ التي تجعلها تتحرك، وحركة الجسد، الذي يزيد فيها، ينقصها، ويحللها بتحلله نفسه. وهكذا أعرّف حركة الأجساد القابلة للفساد. لكن الروح متحركة دوماً، وبدون توقف تتحرك وتنتج الحركة. وهكذا كل روح هي خالدة ومتحركة دائماً؛ ولها نشاطها الخاص كحركة. وتوجد ثلاثة أنواع من الأرواح: إلهية، بشرية ولاعقلانية. الروح الإلهية تنتمي إلى جسد إلهي، وفيه تكون طاقتها، وفيه تتحرك وتضطرب. عندما تنفصل عن الكائنات الفانية، تترك أجزاءها اللاعقلانية وتدخل في الجسد الإلهي، وكما أنها متحركة دائماً، يكون محمولاً في الحركة الشمولية للروح البشرية أيضاً شيء من الإلهي، لكنها مرتبطة بعناصر لاعقلانية، الرغبة، الهياج، هذه العناصر هي خالدة، لأنها طاقات، لكنها هي طاقات الجسد الفاني؛ أيضاً هي مبتعدة عن الجزء الإلهي للروح، الذي هو في الجسد الإلهي. وعندما تدخل هذه في جسد فان وتلتقي فيه بهذه العناصر اللاعقلانية، تصبح بوجودها روحاً بشرية. وتتألف روح الحيوانات من هياج ورغبة. كذلك تدعى الحيوانات بأنها فظة، لأن روحها محرومة من الإدراك. ورابع نوع من الأرواح، روح الكائنات غير الحية. إنها تتحرك في الجسد الإلهي، وتحركه كما بصورة عابرة.

ـ ٨ ـ

الروح إذن هي جوهر أزلي وعاقل، وفكرها هو إدراكها الخاص. إنها تشرك الفكر بالتناسق. بانفصالها عن الجسد المادي، تستمر بذاتها، وهي مستقلة في العالم المثالي. إنها تحكم إدراكها، وتحمل للكائن الذي يدخل في الحياة حركة مشابهة لفكرها الخاص، والذي نسميه الحياة؛ لأنه خاصة الروح هي في تمثلها الأشياء الأخرى مع خاصتها. يوجد نوعان من الحركة الحيوية، إحداها حسب جوهر الروح، والآخر حسب طبيعة الجسد. الأول عام والثاني خاص؛ الأول مستقل والآخر خاضع للضرورة. لأن كل متحرك هو خاضع للقانون الضروري لمحرك. لكن الحركة المحركة متحدة بالحب للجوهر العاقل. وينبغي أن تكون الروح لامتجسدة وجوهراً غريباً عن الجسد المادي؛ ولو كان لها جسد، فلن يكون لها لا إدراك ولا فكر. كل جسد هو عاقل، وإنما بتلقيه الجوهر يصبح حيواناً يتنفس. النفس يعود للجسد، والإدراك يتأمل جمال الجوهر. النفس الحساس يميز المظاهر. إنه موزع في إحساسات عضوية، والرؤية الروحية هي جزء منه؛ كذلك النفخة السمعية، الشمية، الذوقية، اللمسية. هذه النفخة، المنجذبة بالفكر، تميز الإحساسات، وبصورة أخرى لاتخلق سوى الأشباح، لأنها تعود للجسد وتتلقى الجميع. إدراك الجوهر هو الحكم. وللإدراك ينتمي المعرفة لما هو مشرف، وللنفخة الرأي. ويتلقى هذا طاقته من العالم الخارجي، عالم من ذاته.

مقاطع مختلفة

ـ ١ ـ

يوجد إذن الجوهر، الإدراك، العقل، الإحساس. الرأي والشعور تحمل نفسها نحو الإحساس، الإدراك نحو الجوهر، والفكر يسير بذاته. الفكر مشترك مع الإحساس، بارتباط أحدها بالآخر، يصبحان شكلاً واحداً، هو شكل الروح. الرأي والشعور يحملان أيضاً نحو الكمال، لكنهما لايبقيان في نفس الحالة، يوجد إفراط، خطأ، خلاف. بالانفصال عن الإحساس يفسدان، وبتقربهما منه وباتباعه ويساهمان بالإدراك العقلي بوساطة العلم. لدينا الخيار، ويتعلق الأمر بنا لأن نختار الأفضل أو الأسوأ بإرادتنا. اختيار الشر يقربنا من الطبيعة الجسدية ويخضعنا للقدر. الجوهر العقلي الذي هو فينا بكونه حراً، يكون الإدراك العقلي حراً أيضاً، مشابهاً لذاته دائماً ومستقلاً عن القدر. وباتباع الإدراك الأولي والعاقل، المقام بواسطة الإله الأول، يكون فوق النظام المقام بواسطة الطبيعة على الكائنات المخلوقة، لكن الروح التي ترتبط بهذه تساهم في مصيرها، مهما كانت غريبة عن طبيعتها.

ـ ٢ ـ

مقطع من كتاب إيزيس

إنه للوم مقبول، أيها الملك الكبير، يلهم الرغبة لما جهلناه سابقاً.

ـ ٣ ـ

مقطع من كتاب أفروديت

لماذا يولد الأطفال مشابهين لآبائهم؟ هل هو أثر القرابة؟ سأقول السبب. عندما يسحب التوالد البذرة من الدم الأكثر نقاء، يحصل أن يتملص بعض الجوهر من كل الجسد بقوّة طاقة إلهية، كما لو أن نفس الرجل كان قد ولد. ونفس الشيء يحصل في المرأة. فعندما يغلب فوحان الرجل ويبقى سليماً، يشبه الولد أباه؛ وفي الحالة المعاكسة، يشبه الأم. وإن تكن بعض الأجزاء أكثر غزارة، تحصل المشابهة في هذا الجزء. وفي أثناء سلسلة طويلة من التوالدات يشبه الأبناء مَنْ ولدهم، حتى ولو أدارت درجات البروج العشر وقت الحمل.

ـ ٤ ـ

يوجد إذن سبق وجود فوق كل الكائنات ولما هو واقع. سبق الوجود هو ذلك الذي تكون بموجبه الجوهرية الشاملة مشتركة بين كل الكائنات المعقولة الموجودة فعلاً، والكائنات المفكرة في ذاتها.. نقيضها، المدرك بالتقابل، هو أيضاً في ذاته (؟). الطبيعة هي الجوهر الحساس الذي له في ذاته كل الأشياء المحسوسة. في الوسط تكون الآلهة العاقلة والآلهة الحساسة. مدركات العقل ذات علاقة مع الآلهة العاقلة، وأشياء الآراء مع الآلهة الحساسة، التي هي صور العقول؛ وعلى سبيل المثال، فإن الشمس هي صورة الإله السماوي والخالق. لأنه، مع أن هذا قد خلق الكون، فإن الشمس تخلق الحيوانات، وتنتج النباتات [وتحكم السوائل؟].

ولهذا، إن العين غير المجسدة تخرج من جسد لتتأمل الجميل؛ وإنها ترتفع وتتأمل لا الصورة، ولا الجسد، ولا المظهر، وإنما مايمكن الجميع، ماهو هادئ، ساكن، صلب، ثابت، ماهو الكل، الواحد والأحد، ماهو بذاته وفي ذاته، مشابه لذاته وليس مختلفاً.

إذا فهمت هذا الأوحد والخير الوحيد، لن تجد شيئاً مستحيلاً، لأنه هو كل الفضيلة. لاتفكر أن يكون في شيء، لاتقل أنه خارج أحدهم. إنه بدون حد، إنه حد كل شيء. لاشيء لا يحتويه، يحتوي كل شيء فيه. ماهو الفارق الموجود بين الجسد وغير المجسد، المخلوق وغير المخلوق، ماهو خاضع للضرورة وماهو حر، بين الأشياء الأرضية والأشياء السماوية، الأشياء القابلة للفساد والأشياء الأزلية؟ أليس إن بعضها يوجد بحرية وإن غيرها خاضع للضرورة؟ ماهو في الأدنى هو ناقص وقابل للفساد.

ـ ٥ ـ

مقاطع من الكتاب الأول الاستطرادات

أتود أن تشرح لنا ولادة الشمس، ومن أين جاءت؟

ـ سيد الأشياء كلها هتف تماماً من كلامه المقدس، العاقل والخلاق: «لتكن الشمس»! وفي الوقت نفسه الذي تكلم فيه، أثارت الطبيعة بنفحته وأخرجت النار من الماء النقي، وضاءة، ناشطة وخصبة.

و، أكمل يقول أوزيريس: ثم أيها الشيطان الطيب الكبير جداً، كيف ظهرت كل الأرض؟ وقال الشيطان الطيب الكبير: التصلب والجفاف للعناصر التي تحدثت عنها، والأمر المعطى إلى كتلة المياه بوساطة العقل لأن تنسحب على ذاتها، أظهر كل الأرض، معكرة ومضطربة. واستمرت الشمس بتلألئها ولم تتوقف عن التجفيف

والتسخين، والأرض تترسخ في المياه المغلفة لها. وقال الله بكلامه المقدس: «تنامي في النماء وتكاثري عدداً[1] ياكلّ مخلوقاتي».

ـ ٦ ـ

الهرم وضع تحت الطبيعة والعالم المثالي. وله رئيس مقام فوقه، الكلمة، الحكمة الخلاقة من سيد شمولي، الذي هو بعده أول قوة غير مخلوقة، لانهائية، خارجة منه وموالجة بكل مخلوقاته. إنه فرع التام الكمال، الخصب، الابن الشرعي، [لكنك لم تفهمه][2]. طبيعة هذه الحكمة المعقولة هي طبيعة مولدة وخلاقة. إنه كنسله، أو طبيعته، أو صفته، سمه كما تشاء. فكر بهذا فقط، إنه كامل في الكمال وخرج من الكامل، ليفعل أعمالاً حسنة تماماً، وأنه صانع الخليقة والحياة. وبما أن تلك هي طبيعته، فإنّه خير.

بدون عناية إله الكون الذي كشف لي هذا الخطاب، لن تكون لك رغبة كبيرة لتعيد البحث في هذه الأشياء. والآن، اسمعوا لنهاية هذا الخطاب. فهذه النفس التي غالباً ماتحدثت عنها هي ضرورية للجميع؛ لأنها تحمل الجميع، وتعطي الحياة للجميع، وتغذي الجميع. إنها تنبع من النبع المقدس وتأتي بدون توقف لمساعدة النفوس وكل الكائنات الحية.

نقرأ في معجم سويداس:

هرمس المثلث العظمة. كان حكيماً مصرياً سابقاً لفرعون، وسمى المعظم ثلاث «معظم ثلاث مرات» لأنه قيل أن في التثليث يوجد ألوهة واحدة:

---

(١) يوجد الحشو ذاته في كتابين باطنيين آخرين هما «البواماندريس» و «الخطاب المقدّس». ويقول سِفْر التكوين ببساطة: «تزوجوا وتكاثروا».

(٢) يبدو أن هذه الجملة عبارة عن ملاحظة كتبها نصراني ونقلها أحد النساخ الى النص.

«هكذا كان النور المثالي قبل النور المثالي، ودائماً كان العقل المنير للعقل، ووحدته لم تكن شيئاً آخر سوى السائل (النفس) المغلف الكون. خارجه، لا إله، لاملائكة ولا أي جوهر آخر، لأنه هو سيد كل الأشياء والأب والله[٣]، وكل شيء يرتبط به وفيه. كلمته تامة، مولدة وخالقة بسقوطها في الطبيعة المولدة وفي المياه المولدة، تجعل الماء مخصباً...».

بكلامه هكذا، نهض وقال: «أناشدك أيتها السماء، العمل الحكيم للرب الكبير، أناشدك صوت الأب، الذي نطق به أولاً عندما صنع الكون الشامل؛ أناشدك بالكلمة، الابن الوحيد للأب الذي يضم كل الأشياء، أن تتعطفي، أن تتعطفي».

ـ ٧ ـ

كواكب سبع سيارة تدور في طرقات الأوليمب، ومعها قطرات الأبدية. القمر الذي ينير الليل، وكرونوس المحزن، والشمس الحلوة، وبافيان، حامية الترتيل، وآرييس الشجاع، والخصب هرمز، وزوس، مبدأ الولادة، منبع الطبيعة. تلقوا نفسهم بقسمة العرق البشري، ويوجد فينا، القمر، زوس آريس، أفروديت، كرونوس، الشمس، هرمز. وأيضاً نستخرج من سائل الأثير الدموع، الضحك، الغضب، الكلام، التوالد، النوم، الرغبة. الدموع هي كرونوس وزوس التوالد، وهرمز الكلام، وآريس الشجاعة، والقمر الرقاد، وكيزيريه الرغبة، والشمس الضحك، لأنها هي التي تسر الفكر البشري والعالم اللامتناهي.

هذه القطعة من الشعر، كانت الأمر الذي جعل هيرين يفترض أنها قطعة أورفيه.

---

(٣) المصدر متبدّل كذلك هي الحياة والقدرة والنور والذكاء والفكر.

ـ ٨ ـ

نقرأ في الدساتير الإلهية لِلإكتافس ١١ ـ ١٥: «يؤكد هرمس أن الذين يعرفون الله هم بمنجاة من هجمات الشيطان، وأنهم حتى غير خاضعين للقدر:

يقول: إن الواقي الوحيد هو التقوى؛ فلا الشيطان السيء ولا القدر يملكان سلطة على الإنسان التقي، لأن الله يحميه من كل شر؛ الخير الوحيد بالنسبة للإنسان هي التقوى.

«ماهي التقوى، إنه يشرحها من جانب آخر في هذه العبارات»:

التقوى هي معرفة الله.

«تلميذه اسكليبيوس، يعرض بصورة مطولة أكثر الفكرة ذاتها في خطاب التلقين الذي يوجهه إلى الملك. وكلاهما يؤكد أن الشياطين هي عدوة للإنسان وتصنع له الشر. كذلك فإن المثلث العظمة يسميها الملائكة الشريرة».

التعريفات
اسكليبيوس للملك آمون

ـ ١ ـ

عن الشمس والشياطين

أوجه إليك، أيها الملك، خطاباً عظيماً الذي هو كنتيجة وكملخص لكل الخطابات الأخرى، وبعيداً عن أن يكون موافقاً لرأي العامة، هو نقيض له تماماً. وسوف يظهر لك حتى أنه مناقض لبعض خطاباتي. إن هرمس، معلمي، الذي غالباً ما كان يتحادث معي، فرداً لفرد أو بحضور تات، كان يقول أن من سيقرؤون كتبي قد يجدون فيها المذهب البسيط والواضح، في حين أنه على العكس هو غامض ويتضمن معنى خفياً. وقد أصبح أكثر غموضاً أيضاً منذ أراد الإغريقيون ترجمته من لغتنا إلى لغتهم. إنه هنالك منبع للامنطق والغموض. إن خاصية اللسان المصري، وطاقة الكلمات التي يستعملها، تجعل المعنى مفهوماً. فبمقدار ماسوف تستطيع أيها الملك، إذن، وتستطيع كل شيء، اعمل على أن لايترجم هذا الخطاب، خوفاً ألّا تفهم هذه الأسرار عند الاغريق، وكيلا يضعف مظهرها المفخم، المنشور والمثقل بالتزيينات القوية وألّا تخفف الرصانة السامية وطاقة التعبير. إن للإغريق أيها الملك أشكالاً جديدة من اللغة كي تنتج براهين، وفلسفتهم هي ضجة من الكلمات. ونحن، على العكس، نستعمل، ليس كلمات، وإنما الصوت الكبير للأشياء.

سوف أبدأ هذا الخطاب بأن أدعو الله سيد الكون، الخالق والأب، الذي يغلف الجميع، الذي هو كل في واحد وواحد في كل.

لأن كمال الأشياء كلها هو الوحدة وفي الوحدة؛ لايوجد حد أدنى من الآخر، فالاثنان ليسا سوى واحد. حافظ على هذه الفكرة، أيها الملك، أثناء كل العرض لخطابي. وسيجري البحث عبثاً لتمييز الكل والوحدة بتسمية كل التعددية للأشياء وليس الكمال؛ وهذا التمييز مستحيل، لأن الكل لايوجد بعد إذا فصل عن الوحدة؛ وإذا وجدت الوحدة، فهي في الكليانية؛ وعلى ذلك توجد ولاتتوقف أبداً عن أن تكون واحدة كي تحل الكمال.

يوجد في داخل الأراضي ينابيع تسيل من الماء والنار؛ ويلاحظ هنا الطبائع الثلاث، من النار، الماء والتراب، انطلاقاً من جذر مشترك، الأمر الذي يدعو للتفكير بأن هنالك حوضاً عاماً للمادة، يقدم بغزارة ويتلقى الوجود من الأعلى. وهكذا تحكم السماء والأرض بوساطة الخالق، أقصد الشمس، التي عملت على إنزال الجوهر واصعاد المادة، التي تجذب الكون إليها، وتعطي كل شيء للجميع وتوزع خيرات نورها. إنها التي تنشر طاقاتها الخيرة ليس في السماء وفي الهواء فحسب، وإنما على الأرض وحتى في أعماق الهاوية. وإذا كان هنالك جوهر معقول، فإنه ينبغي أن يكون مادة الشمس ذاتها، التي يكون نورها هو الحوض. فما يكون فيها التكوين والمصدر، وحدها تعرف. ولكي نفهم بطريقة الاستدلال مايخفى على ناظرنا، ينبغي أن نكون قربها وشبيهين بطبيعتها. لكن مايدعنا نرى ليس ظناً، إنه الرؤية الفاخرة التي تنير مجمل العالم الأعلى.

إنها مقامة وسط الكون مثل ذلك الذي يحمل التيجان؛ وشبيهة بحوذي جيد، تقود وتحافظ على عربة العالم وتمنعها من أن تضل. وتمسك فيها الأزِمَّة، التي هي الحياة، الروح، النفس، الخلود، التوالد. إنها تدعها تسير لمسافة صغيرة منها، أو لتكون أكثر حقيقة، معها. وإليك بأية طريقة تكون الأشياء كلها: إنها توزع على الخالدين الدوام الأزلي.

والنور، الذي من جزئها الأعلى يصعد نحو السماء، يغذي الأجزاء الخالدة من العالم. والباقي، يغطي وينير مجمل الماء، الأرض، الهواء، وهو الرحم حيث تبذر الحياة، وحيث تتحرك الولادات والتحولات. وكمروحة تتحرك، تحول الحيوانات التي تسكن هذه الأجزاء من العالم، وتجعلها تعبر من نوع لآخر ومن مظهر لآخر، معدلة تحولاتها المتتابعة، كما في خلق أجساد كبرى. لأن استمرارية جسد حي دائماً تَحَوُّل. لكن الأجساد الخالدة هي غير قابلة للانحلال، والأجساد الفانية تتحلل؛ وذلك هو الفارق الذي يوجد بين الخالد والفاني.

هذا الخلق للحياة بوساطة الشمس هو مستمر كنورها، ولاشيء يوقفه أو يحده. ومن حوله جيش من الكواكب التابعة والعديد من جوقات الشياطين. إنها تسكن في جوار الخالدين، ومن هنا تراقب الأمور البشرية. إنها تنفذ أوامر الآلهة بالأعاصير والعواصف الهوجاء، تحولات النار واضطرابات الأرض، كذلك بالمجاعات والحروب، كي تعاقب الكفر. ولأن أكبر جرم للبشر هو الكفر بالآلهة. وظيفة الآلهة هي فعل الخير، ووظيفة الناس ليكونوا أتقياء، ووظيفة الشياطين لتعاقب. إن الآلهة لاتطلب حساباً للإنسان عن الأخطاء المرتكبة خطأً، بتهور، بتلك الضرورة التي تسمى القدر، أو بالجهل؛ والكفر وحده يسقط تحت ضربة عدالتهم.

إن الشمس هي التي تحافظ على كل الكائنات وتغذيها؛ وكما أن العالم المثالي، الذي يغلف العالم المحسوس، ينشر فيه الكمال وتنوع الأشكال الشمولية: هكذا الشمس، بتغليفها للنور كله، تكمل في كل مكان ولادة الكائنات ونموها، وتستقبلها عندما تسقط إعياءً من مسيرتها. إن لها تحت أوامرها جوقة الشياطين، أو بالأحرى جوقات، الحسنة والشريرة بطبيعتها، أي بعملها، لأن العمل هو جوهر الشياطين. في بعضها يوجد حسن وسيء. وكل هذه الشياطين معدة لأشياء الأرض؛ إنها تهيج وتبلبل شرط الدول والأفراد، وتصنع أرواحنا على

شاكلتها، مقيمة في أعصابنا، وفي نخاعنا وفي عروقنا، وفي شرايينا وحتى في دماغنا، وحتى عمق أحشائنا، وفي الفترة التي يتلقى كل واحد منا فيها الحياة والروح، يحتجز من قبل الشياطين التي ترأس الولادات، والتي هي مصنفة في الكواكب. في كل لحظة تتغير، وليست هي دائماً نفسها، وتدور في دائرة. إنها تخترق من خلال الجسد في جزئين من الروح، لتصنّع كل واحدة حسب طاقتها. لكن الجزء المدرك من الروح ليس خاضعاً للشياطين. إنه معد ليتلقى الله، الذي ينيره بشعاع الشمس. والذين يُنارون هكذا هم قليلو العدد، وتمتنع عنهم الشياطين؛ لأنه لا الشياطين ولا الآلهة تمتلك أية سلطة ضد شعاع واحد من أشعة الشمس. كل الآخرين، الأرواح والأجساد، هي موجهة بواسطة الشياطين، ترتبط بها وتحب أعمالها؛ لكن الادراك ليس كالرغبة التي تخدع وتضل. للشياطين إذن توجيه الأشياء الأرضية وأجسادنا تستخدم لها كأدوات. وهذا التوجيه، يسميه هرمس القدر.

إن العالم المعقول يرتبط بالله، والعالم المحسوس بالعالم المعقول؛ وتقود الشمس عبر هذين العالمين نفحة الله، أي الخلق. حولها الأفلاك الثمانية التي ترتبط بها، فلك النجوم الثابتة. والأفلاك الستة للكواكب والفلك الذي يحيط بالأرض. الشياطين مرتبطة بهذه الأفلاك والبشر بالشياطين، وهكذا كل الكائنات ترتبط بالله، الذي هو الأب الشمولي. الخالق، هو الشمس والعالم هو أداة الخلق. الجوهر المعقول يوجه السماء، والسماء توجه الآلهة، وتحتها صنفت الشياطين التي تحكم البشر. تلك هي تراتبية الآلهة والشياطين وذلك هو العمل الذي يكمله الله بوساطتها ومن أجله ذاته. كل شيء هو جزء من الله، وهكذا فإن الله هو الكل. بخلقه للكل، يخلق نفسه بذاته دون توقف أبداً، لأن نشاطه ليس له حد، و، كما أن الله هو بدون حدود، فإنه ليس لمخلوقاته، لا بداية ولانهاية.

إذا فكرت، أيها الملك في ذلك، يوجد جسدان غير محسوسين. قال الملك ـ ماهما؟ ـ الجسدان اللذان يظهران في المرايا ألا يبدوان لك غير متجسدين؟ ـ هذا صحيح يا تات، قال الملك؛ إن لديك فكرة رائعة. ـ يوجد أيضاً غير متجسدات؛ على سبيل المثال، الأشكال، فبماذا تظن؟ إنها غير متجسدة وتبدو في الأجساد الحية وغير الحية ـ لقد قلت حقاً يا تات. يوجد إذن انعكاس غير المتجسدة على الأجساد، والأجساد على غير المتجسدة، أي العالم المحسوس على العالم المثالي، والعالم المثالي على العالم المحسوس. فيا أيها الملك إعبد إذن الأصنام، التي هي أيضاً، تعير أشكالها للعالم المحسوس.

فنهض الملك وقال: «ألا ينبغي، ايها النبي أن يهتم الملك بالعناية بضيوفه؟ غداً سوف نكمل هذا اللقاء الثيولوجي»[1].

---

(١) مع أن هذا المقطع مرتبط بالسابق في المخطوطات إلا أنه يبدو مسحوباً من عمل آخر.

ـ ٢ ـ

العوائق التي تجلبها أهواء الجسد للروح

عندما يريد موسيقي تنفيذ لحن ما، يجد نفسه متوقفاً بخطأ توافق الآلات، ولايحصل إلّا على نتيجة مضحكة؛ وهذه الجهود عديمة الفائدة تثير سخرية الحضور؛ وإنه عبثاً ينشر كل مصادر فنه ويتهم الأداة الغلط التي أوقعته في حالة العجز. إن الموسيقي الكبير للطبيعة، الإله الذي يرأس تناسق الأناشيد والذي يحرّك الأدوات حسب إيقاع النغمة، لايتعب، لأن التعب لايصيب الآلهة. وإذا أراد فنان أن يعطي تناغماً موسيقياً، عندما يعطي عازفو البوق مقياس عبقريتهم، وعندما يجرب عازفو الناي نعومات النغمة، وعندما ترافق القيثارة والكمان الغناء، لايتهم إرشاد الموسيقي، ويعطى التقدير الذي يستحقه عمله؛ لكن يشتكي من الأداة التي عكرت عدم اتفاق النغمة ومنع المستمعين من فهم الصفاء. كذلك ضعف أجسادنا لايمكن دون تجديف أن يكون مَلاماً (لصانع) عرقنا. ولكن لتعرف أن الله هو فنان ذو نفحة غير قابلة للتعب، ودائماً سيد علمه، ودائماً سعيد في جهوده، وناشر في كل مكان نفس صنائعه الحسنة. فإذا كان فيدياس، العامل المبدع، قد وجد مقاومة في المادة التي توجب عليه استعمالها من أجل عمله، فلا نتهم الفنان الذي عمل حسب قدرته؛ نشكُو من حبل ضعيف جداً سببَ، بتخفيض أو برفع الإشارة، تواري الإيقاع، ولكن لانتهم الفنان عن

عيوب الآلة؛ فبمقدار ماتكون هذه سيئة أكثر، بمقدار مايستحق ذلك المدائح عندما يتوصل ليلعب بنغمة صحيحة. فالمستمعون يحبونه أكثر، وبعيداً عن توجيه لوم إليه. وهكذا أيها الأفذاذ، يجب وضع قيثارتنا الداخلية بتوافق مع فكر الموسيقي.

كذلك أرى أن موسيقياً، محروماً من مساعدة القيثارة ويتوجب عليه انتاج أثر كبير من التناسق، أيمكن أن يتلافى النقص بوسائل مجهولة للأداة التي كان تعود عليها، لدرجة إثارة حماس المستمعين. يقال أن عازف قيثارة، كان إله الموسيقى مشجعاً له، قد توقف بانقطاع وتر أثناء تنفيذه للحن، إن عطف الله قد أعانه في ذلك وروّج موهبته؛ وبإسعاف سماوي حل زيز محل الوتر المقطوع ونفذ الإشارات التي نقصت. وإن الموسيقي، الذي واساه الحدث الذي كان أزعجه، قد انتصر. وأشعر في نفسي بشيء ما مماثل، أيها الأجِلّاء؛ كنت مقتنعاً في الحال بعجزي، وضعفي لكن قوة الكائن الأسمى تكمل في مكاني اللحن إكراماً للملك. لأن هدف هذا الخطاب هو الاحتفال بمجد الملوك وانتصاراتهم. فإلى الأمام إذن! الموسيقي يريد، وإنه من أجل هذا تناسقت القيثارة. فلتستجب عظمة وعذوبة اللحن لموضوع أغانينا! لأننا أصلحنا القيثارة كي تعزف مدح الملوك وتمجد الثناءات عليهم، لنغنٍّ بدئياً الإله الكريم، الملك الأعلى للكون. وبعده، لنمجد أولئك الذين يقدمون لنا صورته ويمسكون بالصولجان. فيرضى الملوك بذاتهم أن ينزل النشيد من الأعلى، ومن درجة فدرجة، ولترتبط الآمال بالسماء حيث يأتي منها نصرهم. فلينشد الموسيقي إذن عن الإله الكبير للكون، الخالد أبداً، والذي قوته أزلية مثله، المنتصر الأول الذي تأتي منه كل الانتصارات التي تتتابع بانتصارات. فلنسرع سير خطابنا، ولنصل إلى مديح الملوك، رعاة السلام والأمن العام، الذين يتلقون من الله العلي سلطتهم القديمة، والذين تلقوا النصر من يديه؛ أولئك الذين تزين

صولجانهم حتى قبل كوارث الحرب، والذين سبقت انتصاراتهم المعركة؛ أولئك الذين أعطي لهم ليس أن يحكموا، فحسب، بل أن ينتصروا جميعاً؛ أولئك الذين هم، حتى قبل أن يتحركوا، يضربون البرابرة بالرعب.

ـ ٣ ـ

مدائح الكائن الأعظم وتقريظ الملك

هذا الخطاب ينتهي من حيث بدأ، بالمدائح للكائن الأعظم، ثم الملوك الإلهيين الذي يحفظون السلام لنا. فبعد البدء بالإشادة بالقوة العظمى، فإننا لهذه القوة نعود عند النهاية. وكما أن الشمس تغذي كل البذور وتتلقى بواكير الثمار التي تجنيها مع أشعتها، وكما مع أيدٍ كبيرة، كذلك أن هذه الأيدي أو هذه الأشعة تجني بدئياً مايوجد أكثر عذوبة في النباتات، هذا نحن بذاتنا، بعد أن بدأنا بتمجيد الكائن الأعلى وفوحان حكمته، وبعد أن استقبلنا في أرواحنا هذه النباتات السماوية، ينبغي علينا أن نجني أيضاً هذا الحصاد المقدس الذي سوف ترويه من أمطارها المخصبة.

سوف يتوجب عشرة آلاف فم وعشرة آلاف صوت كي تمجد إله كل نقاء، وأب أرواحنا، وسنكون عاجزين عن تكريمه بما يستحق؛ لأن أولاداً حديثي الولادة، لايمكنهم بكرامة تكريم والدهم، وإنما يفعلون حسب قواهم وبذلك ينالون التسامح. أو بالأحرى، مجد الله، الذي هو أعلى من كل مخلوقاته؛ إنه البدء، الهدف، الوسط والغاية لكل مدائحهم؛ إنهم يعترفون فيه أنه أبوهم الكلي القوة واللامتناهي.

كذلك الأمر في الملك. طبيعي لنا، الذي نحن أبناؤه، أن نمجده، لكن يجب علينا طلب التسامح من والدنا، حتى ولو وافق قبل طلبنا. إن أباً، بعيداً عن أن يلتفت لأطفاله ولأبنائه حديثي الولادة بسبب ضعفهم، يسر بأن يرى نفسه وقد تعرفوا عليه. هذه المعرفة (الغنوص) الشمولية

التي توصل الحياة بالجميع وبنا وتسمح بتمجيد الله هي في ذاتها منحة من الله. لأن الله، بكونه طيباً، له في ذاته خير كل الكمال؛ وبكونه أزلياً، يغطي فيه الطمأنينة الخالدة، وقوته الأزلية ترسل في هذا العالم نعمة لدنية ملائمة. لاتوجد فوارق بين الكائنات التي يحتويها، ولا اختلافات؛ كلها حكيمة، ونفس العناية في الجميع، ويحكمها نفس العقل، وتدفعها نفس العاطفة للرفق المتبادل، ونفس الحب ينتج تناسقاً شاملاً.

وهكذا فلنبارك الله ونعاود النزول لأولئك الذين تلقوا منه الصولجان. وبعد أن نبدأ بالملوك ونحن الممارسون للاحتفال بمدائحهم، ينبغي علينا أن نمجد التقوى نحو الكائن الأعلى: الذي أرشدنا بذاته لتمجيده؛ فلنمارس بواسطته هذه الدراسة. وليكن أول تمرين أساسي الورع إلى الله ومدح الملوك. لأن اعترافنا واجب لهم من أجل السلام الخصب الذي جعلونا نتمتع به. إن فضيلة الملك، هي اسمه وحده الذي يضمن السلام؛ يسمى الملك لأنه يسير في مملكته وقوته، ولأنه يحكم بالعقل والسلام. إنه فوق كل مملكة بربرية؛ واسمه ذاته هو رمز السلام. اسم الملك وحده غالباً مايكفي لردع العدوان(٢).

وتماثيله هي منارات السلام في العاصفة. صورة الملك لوحدها تنتج النصر، وتعطي الأمان وتجعله عطوباً.

---

(٢) يمكن أن نجد هنا تلميحاً الى اسم «بتوليمي» ويعني «محارب»، لكن يبدو من البديهي أكثر أن نُفكر باسم «ڤالانس» ويعني «جبار» و«شجاع». ضمّ ڤالانتينيان أخاه ڤالانس الى الامبراطورية مما يُفسّر لماذا يتحدث الكاتب تارة عن ملك وطوراً عن ملوك.

واكب مدّاحو الامبراطور ذوق العصر في ذلك الوقت بينما لم تنقطع تلك العبودية الملكية في مصر. يبرهن التفسير الاشتقاقي لكلمة βασιλεύς أن هذه الفقرة كُتِبت باللغة اليونانية ولم يترجمها المصري. يمكننا أن نضيف كذلك عن الفقرة السابقة أنها تُلمّح إلى بيرياس. كُتبت هاتان الفقرتين بنفس الأسلوب ويبدو انهما ترجعان لنفس الكاتب.

الفهرست

صدر عن الدار

- نقد العقلانية العربية — الياس مرقص
- الجواري والقيان — د. سليمان حريتاني
- أخلاق الانجيل (دراسة سوسيولوجية) — ألبير بايه
- الله والانسان (على امتداد ٤٠٠٠ عام) — كارين آرمسترونغ
- الهزيمة والايديولوجية المهزومة — ياسين الحافظ
- حول بعض قضايا الثورة العربية — ياسين الحافظ
- في المسألة القومية الديمقراطية — ياسين الحافظ
- اللاعقلانية في السياسة العربية — ياسين الحافظ

التجربة التاريخية الفيتنامية — ياسين الحافظ

- الخمرة وظاهرة انتشار الحانات — د. سليمان حريتاني
- إعادة انتاج الهوية — د. أحمد حيدر
- الوثنية والمسيحية مرحلة الصراع الأخيرة — ألكسندر كرافتشوك
- أصداء الزمن (انتشار المسيحية والصراعات في أوربا) — يان دوبراتشينسكي
- قطار إلى باكستان (رواية) — خوشوانت سينج
- خطى كتبت علينا (رواية) — ناديا شومان

العقل واستخدام طاقته القصوى — توني بوزان

علم الكونتربوانت (موسيقى) — د. محمد عزيز شاكر ظاظا

هرمس
المثلث العظمة

هرمس شخصية مغرقة في القدم ويكتنف الغموض أصلها وانتماءها العرقي. كل ينسبها إليه، فاليونانيون يعدونه يونانياً، والمصريون القدماء يعدونه مصرياً، والعرب يعدونه منهم (ادريس) كما أشار إليه القرآن وكذلك يدعي الفرس وغيرهم أنه منهم.

ولعلّ هذا التداخل والتضارب يعود إلى تلك المرحلة البعيدة من الاختلاط بين شعوب الأقوام التي كانت تعيش في البقاع التي كانت تُشكل مركز العالم القديم: جزيرة العرب وامتداداتها بلاد الشام وبلاد الرافدين ثم مصر، وتلك المناطق الأخرى المجاورة، بلاد فارس واليونان.

ومع ظهور الاسكندر المقدوني، تلميذ المعلم الأول أرسطو، وبسط نفوذه على العالم المأهول آنذاك ورغبته في توحيد الامم ضمن دولة واحدة وخلق دين واحد، أتيح لكافة المذاهب الفكرية والدينية أن تطرح مالديها وتتلاقح فيما بينها. وهذا ماكان له الأثر الكبير في تداخل وتقارب الافكار ونموها. فكان للجميع مساهمتهم. ومن هنا، ربما، كان لكل جهة أن تتبنى هذه الشخصية الشهيرة /هرمس/ التي كانت على الأغلب بنت تلك المرحلة من الزمن، كما كان لها آن تدعي أن لها نصيباً في هذه النصوص التي تحتويها الكتب الهرمسية.

يتألف هذا الكتاب من قسمين: دراسة حديثة قام بها لويس مينارد محاولاً التوصل الى أصل الكتب الهرمسية وهي تساعد القارئ في الدخول الى القسم الثاني الذي يحتوي على النصوص المغرقة في القدم والمنسوبة إلى هرمس والتي يعدها بعض المفكرين بداية انطلاق الأديان اللاحقة التي عمّت العالم ومازال.

